




قام الطالب بإجراء التبدلات التي طلبت منه

١- أ.د. عبدالعظيم المطعني ... مشرفاً ()
٢- أ.د. إبراهيم الحارثي ... مناقشاً ()
٣- أ.د. نزيه عبد الحميد فراج ... مناقشاً ()

دراسة تحليلية تطبيقية



7-9-2000-6777

إعداد الطالب

شعيب بن أحمد بن محمد عبدالرحمن الغزالي

إشراف

أ. د. عبد العظيم إبراهيم الطعني

31315

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

تناول هذا البحث (أساليب السخرية في البلاغة العربية) بالدراسة والتحليل ولقد تتبع ماشاع من هذه الأساليب في كتب البلاغة والنقد ، وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يسلك الباحث المنهجين الوصفي والتحليلي ، وأن يكون البحث في ثلاثة فصول وخاتمة ، وسبق ذلك مقدمة وتمهيد ، وضع الباحث في التمهيد بعض الأمور العامة ، كالأسباب التي دعت لاختيار الموضوع ، وصلة الموضوع بالبلاغة العربية وبآداب العرب شعرهم ونثرهم ، وأهم المراجع التي استفاد منها البحث ، وقد كان التمهيد يشتمل على عنوانين : الأول يتحدث عن (السخرية بين المدلول اللغوي والاستعمال الفني) أما الثاني فيتتبع (المصطلح والظاهرة في كتب الأقدمين) وكان أول فصول البحث يتناول (السخرية في علم المعاني) تحته ثمانية مباحث : الأول يتناول (السخرية في استعمال الكلمات غير الفصيحة) أما الثاني (فالتعريف الساخر) والثالث (السخرية في وضع المظهر موضع الضمير) والرابع (الاستفهام الساخر) والخامس (الأمر الساخر) والسادس (النهي الساخر) والسابع (النداء الساخر) والثامن (التكرار الساخر)

أما الفصل الثاني فيتناول (السخرية في علم البيان) وتحته ثلاثة مباحث : أولها (التشبيه الساخر) الثاني (الاستعارة الساخرة) الثالث (الكناية الساخرة) .

أما الفصل الثالث فيتناول (السخرية في علم البديع) وتحته ثمانية مباحث : الأول (الاستطراد الساخر) الثاني (المبالغة الساخرة) الثالث (السخرية والهجاء في معرض المدح) الرابع (الإبهام الساخر) الخامس (السخرية في الهزل الذي يراد به الجحد) السادس (التجاهل الساخر) السابع (التهكم) الثامن (الاقتباس والتضمين الساخر) . وقد كان الباحث يقدم لكل مبحث بإيجاز ويعرف بالأسلوب ثم يذكر مكانته بين أساليب البلاغة ، وصلته بالسخرية ، ولما كان البحث ذا شقين : دراسة وتحليل ، فقد كانت الأمثلة النثرية والشعرية المختلفة وتحليلاتها جزءاً مهماً في البحث .

ومن أهم النتائج التي خرج بها البحث : أن سخرية القرآن الكريم سخرية خاصة ، وأنها تحتاج إلى كثير من الدراسات والبحوث ، ثم إن السخرية فن متنوع الأساليب شائع في أدبنا العربي شعره ونثره ، ثم إنها ظاهرة أسلوبية مثبتة في كثير من أبواب البلاغة وأساليبها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عميد الكلية
أ. د. حسن محمد باجودة

المشرف
أ. د. عبد العظيم المطهني

الطالب
شعيب بن أحمد الغرالي

(أ)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

نحمدك اللهم في الأولى والآخرة ، ونعوذُ بك من فتنة القول ، كما نعوذُ بك من فتنة العمل ، ونعوذُ بك من التكلف لما لا نُحسنُ ، كما نعوذُ بك من العُجب بما نُحسنُ ، ونعوذُ بك من السَّلاطة والهذر ، كما نعوذُ بك من العيِّ والحَصَر ، ونُصلي ونُسلمُ على عبدك ونبيك سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، وبعد :

فلقد شاعت السخرية في أدبنا العربي : شعره ونثره ، في القديم والحديث . ولقد كنت حينما أقرأ القرآن الكريم أقف ملياً أمام كثير من أساليبه الباهرة ، أتأمل عظمته وأتدبر آياته . وكانت السخرية من تلك الأساليب القرآنية التي ارتهنت فكري وقلبي أوقاتاً طويلة بما فيها من إعجاز وبيان . ومن قراءتي في كتب البلاغة تبين لي أن البلاغيين وقفوا عند كثير من الأساليب مشيرين إلى أن من أغراضها : السخرية والتهكم والاستخفاف والتحقير والإهانة وما إلى ذلك مما يدل على الذم والانتقاص .

وجدتهم أشاروا إلى ذلك في أبواب علم المعاني في مباحث : الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والقصر ، والاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والنداء ، والإيجاز والإطناب والتكرير . كما أشاروا إلى ذلك في أبواب علم البيان من : تشبيه ، ومجاز ، واستعارة ، وكناية وتعريض .

وأشاروا إلى ذلك أيضاً في كثير من فنون البديع ، ومنها : التورية ، والاستطراد ، والمبالغة ، والهجاء في معرض المدح ، والإبهام ، والهزل الذي يراد به الجد ، وتجاهل العارف ، والتهكم ، والاقتباس والتضمين .

(ب)

وعلى الرغم من ورود هذا الغرض في كثير من أبواب البلاغة إلا أن جلّ ما ذكره البلاغيون فيه لا يعدو أن يكون إشارات موجزة متفرقة تنير السبيل ولا تشفي الغليل ، خالية من التعليل والتحليل .

وكان من بين الأسباب التي دعنتني لدراسة هذا الموضوع أنني لم أجد من الباحثين المحدثين من تناول هذا الموضوع بالبحث والدراسة من الناحية البلاغية على الرغم من أهميته ، وطرافته ، وشيوعه ، وتنوع أساليبه ، وكثرة شعرائه وكتابه وأمثله في أدبنا العربي ، فتولد لدي إحساس عميق أن هذا الأسلوب الجميل الذي يُعد من أساليب البيان العظيمة ، يستحق كثيراً من التأمل والدرس ، ويحتاج إلى من يميّط اللثام عنه ، ويشير إليه ، ويجمع أشتاته في بحث علمي . يدرس أساليب السخر في البلاغة العربية ؛ لأنه - فيما أعلم - لم يتصد أحد لطرق هذا الموضوع في هذا الجانب ، فجلّ الدراسات السابقة تناولت السخرية من الجانب النفسي أو الفلسفي أو تحدث عنها كظاهرة أدبية انتشرت في عصر من العصور ، أو أسلوب تميز به كاتب أو شاعر معين ، ولم يتناول أيٌّ من هذه الدراسات السخرية بكل جوانبها وعناصرها وأساليبها ، مما يجعل صورتها تبدو ناقصة غير مكتملة .

ومن ثم عقدت العزم على دراسة هذا الموضوع دراسة بلاغية ترصده في شتى كتب البلاغة ، وتتبع مسيرته ، وتفصل جوانبه ، وتعدد أساليبه ، وتعلل مسأله ، وتحشد شواهد ، وتحلل أمثله .

ومن الأسباب التي دعنتني لدراسة هذا الموضوع شيوع أساليبه في القرآن الكريم ، فالقرآن نزل بلغة العرب ، وفي لغتهم من الأساليب الساخرة ما لا يخفى على من له أدنى علم بالبيان ، ولا ينفي وجود أساليب السخرية في القرآن قوله عز

وجل : « إنه لقول فصل وما هو بالهزل » (١) ؛ لأن السخرية القرآنية ليست هزلاً من أجل الهزل ، بل هي سخرية تتناسب مع جلال القرآن وعظمته ، وقد أخبر الله عز وجل عن نفسه أنه سبحانه يسخر ويستهزئ ، ونحن لا نملك أن ننفي ما أثبتته الله لنفسه جل وعلا ولكننا نقول إنه سخر وهزء يليق به سبحانه لا يشبه سخر المخلوقين واستهزاءهم .

والسخرية ليست باباً من أبواب البلاغة فقط ، أو نوعاً من أنواعها يندرج تحت قسم من أقسامها فحسب ، بل هي أسلوب في فن القول يصطبغ به النص الأدبي ، وغرض من أغراض البلاغة يكون في كثير من أبوابها ، ويكون في الشعر كما يكون في النثر ، وإن كانت أمثله في الشعر أكثر وأظهر حتى أن بعض النقاد القدامى يرى أنه خاص بالشعر ، وقد حاول البحث تنويع الأمثلة بين شعر ونثر .

والسخرية لون من ألوان الهجاء ، وقد أجمع النقاد على أن الهجاء أحد أغراض الشعر وأحد الفنون الأدبية مع أن موضوعه قد يكون ذا جوانب تتنافى مع النظرة الأخلاقية للأدب والفن عموماً ، وماذا إلا لأن الهجاء أحد وسائل التعبير الجميل حتى وإن كان ذا موضوع قبيح ، فإن هذا التعبير كثيراً ما يشير انفعالنا بل وإعجابنا في أحيان كثيرة .

والأدب صورة للحياة بحلوها ومرها ، بما فيها من جمال وقبح ، ورضى وغضب . والمبدع سواء كان مادحاً أم ساخرأ إنما يصدر في كل أحواله عن تلك المشاعر والأحاسيس التي تعتمل في داخله ، فيمدح إذا رضي ويسخر ويهجو إذا غضب .

(١) الأيتان (١٣ ، ١٤) من سورة الطارق .

ولانريد أن نتعجل فنصدر حكماً تعميمياً على أدب السخرية ، لأن السخرية إذا صدرت عن عاطفة صادقة في قالب جميل فلا مجال لأحد بأن يخرجها من دائرة الأدب ، أو يعدها عملاً رديئاً أو سيئاً أو غير مقبول ، خصوصاً إذا كان المسخور منه يتصف حقيقة بما وصف به . وماعلينا إذا عُرِّ الجبان بجبنه والبخيل ببخله ، أو سخر من بعض أصحاب الأخلاق الذميمة أو العادات السيئة لينفر منها . فلا يمكن إذاً أن نقف موقفاً سلبياً من السخر لمجرد إحساسنا بقبح موضوعه ، فإننا كثيراً مانقف معجبين أمام العديد من النصوص الساخرة ، وإن الفصيل في الحكم على النصوص الأدبية يكمن في مدى قدرة الأديب أو الفنان على التعبير عن عواطفه بصدق وجمال ، وقدرته في انتزاع إعجاب جمهوره ، وإثارة مشاعرهم ، بغض النظر عن الموضوع الذي يعالجه مادام أنه يصدر عن تجربة شعورية صادقة ، ومادام أنه يستطيع إثارة الإعجاب وامتلاك المشاعر .

والهجاء أو الساخر رسام ماهر يشير إعجابنا بتلك الصور التي يرسمها لمهجوئه ، صحيح أنه يصور القبح والنقائص ، ويصدر عن عاطفتي الغضب والبغض في بعض الأحيان ، ولكننا ينبغي ألا نحمد عند هذا الأمر فلا نصرف أنظارنا عنه ، بل يجب أن نلتفت إلى تلك المقدرة الفنية التي استطاع بها هذا الساخر أن يعبر عما في نفسه من مشاعر .

ونحن نظرب عند سماعنا قصيدة مدح مثلاً ، ونستعذب الغزل ، ونعجب بقصائد الفخر . والهجاء لا يختلف عن الأغراض السابقة ، والحكم من الوجهة الأدبية يعود إلى المقدرة على التعبير الجميل المؤثر .

وهنا قضية أخلاقية وشرعية ينبغي أن توضح ، وهي أننا لانريد أن نستطرد في هذا الحديث حتى يظن أن الأمر فيه ليس له زمام أو ضابط ، بل إن هناك موقفاً شرعياً وأخلاقياً يتحتم علينا بيانه .

وحقيقة موقف الشرع من الهجاء والسخر أباته الشارع في نصوص قرآنية عديدة وفي كثير من أحاديث السنة المطهرة . من ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) في الآية الكريمة نهى صريح عن السخرية ، مع ملاحظة أن الخطاب موجه للمؤمنين . ويقول النبي ﷺ في سياق التحذير والنهي عن الهجاء (سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر) (٢) ويقول (من قال في الإسلام شعراً مقدعاً فلسانه هدر) (٣) .

وينبغي أن نلاحظ أن هذه النصوص وغيرها إنما تنهى وتحذر من هجاء المؤمنين والسخرية بهم ، وأما غيرهم من أعداء الإسلام فقد قال النبي ﷺ لحسان رضي الله عنه (أهج المشركين فإن روح القدس معك) (٤) فدل هذا على جواز هجائهم والسخرية بهم .

ومع التزامنا التام لهذه النظرة الشرعية إلا أنه ينبغي ألا ننسى أن الهجاء والسخر أمر فطري مركب في جيلة الإنسان ؛ لأنه يصدر عن عاطفة الغضب لدى البشر ، فالإنسان إذا رضي مدح ، وإذا غضب هجا . وقد رضي الله عز وجل على عبد من عبيده فمدحه فقال ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ (٥) وغضب على آخر فقال ﴿ مناع للخير معتد أثيم ﴾ (٦) ولله المثل الأعلى .

(١) الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤٣٩ / ١ .

(٣) النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير ٢٩ / ٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٢٩٨ / ٤ .

(٥) الآية (٣٠) من سورة ص .

(٦) الآية (١٢) من سورة القلم .

ولقد اقتضت طبيعة البحث في أساليب السخرية في البلاغة العربية أن أسلك المنهج الوصفي والتحليلي في هذه الدراسة ، حيث قمت باستقراء وجمع لأساليب السخرية في البلاغة العربية ، وكنت أفرد كل أسلوب بمبحث مستقل ، أقدم له ثم أتناوله بالوصف والتحليل .

وقد حتمَّ عليَّ استقراء وجمع هذه الأساليب الرجوع إلى معظم كتب البلاغة والنقد القديمة ، فكانت هذه الكتب المرجع الأول الذي أمدني بمادة هذا البحث .

أما فيما يتعلق بالدراسات السابقة المتعلقة بموضوع السخرية ، فلم تكن هناك أي دراسة - فيما أعلم - تناولت أساليب السخرية من الناحية البلاغية ، إلا إشارات متفرقة في بعض الكتب لا يمكن أن نعدها دراسة للموضوع من الوجهة البلاغية .

وقد كانت هناك بعض الدراسات الجادة فيما يتعلق بموضوع الهجاء والسخرية استفاد منها البحث فوائدها جمّة وبالأخص : كتابي الدكتور محمد محمد حسين الهجاء والهجاءون في العصر الجاهلي ، وفي صدر الإسلام ، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري لقحطان التميمي ، وأسلوب السخرية في القرآن الكريم للدكتور عبدالحليم حفني ، والسخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتور نعمان طه .

وكانت هناك بعض الدراسات التي تناولت السخرية في شخصية بعض الأعلام الساخرين ، كان أكثرها نفعاً للبحث : كتاب ابن الرومي حياته من شعره للعقاد ، وابن الرومي فنّه ونفسيته من خلال شعره لإيليا حاوي ، والاتجاه الساخر

في أدب الشدياق للدكتور شوقي العاملي ، والسخرية في أدب المازني للدكتور حامد الهوال .

ولما كان البحث ذا شقين : دراسة وتحليل ، فقد كان للدواوين الشعرية أهمية بالغة ، حيث كانت المعين الأول الذي أمدَّ البحث بالأمثلة الساخرة ، وكان أبرز هذه الدواوين : ديوان جرير بن عطية ، وديوان أبوتمام ، وديوان ابن الرومي ، وشعر دعبل الخزاعي ، ومجموع المفضليات .

ولقد اعتمدتُ في تفسير الأمثلة القرآنية الساخرة وتحليلها على عدة تفاسير عُرِفَتْ باهتمامها وعنايتها بالجانب البلاغي والأدبي في تفسير القرآن الكريم ، وكان أكثر انتفاعي : بتفسير الكشاف للزمخشري ، وتفسير أبو السعود ، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، وتفسير البحر المحيط لأبوحيان .

وهناك دراسات حديثة ومراجع متنوعة ذات صلة بموضوع البحث ، كان لها فضل في إنارة السبيل للباحث ، وإن كانت في معظمها دراسات أدبية أو بلاغية عامة يندر أن تتناول السخرية كأسلوب بلاغي مستقل ، وكان من أبرز هذه الدراسات : كتاب خصائص التراكيب ، ودلالات التراكيب ، والتصوير البياني وجميعها للدكتور محمد أبو موسى ، والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم للدكتور صباح دراز ، وفن الاستعارة للدكتور أحمد الصاوي ، والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني للدكتور فتحي عامر ، وحصاد الهشيم للمازني ، والفكاهة عند العرب للدكتور أنيس فريحة .

أما المعاجم فقد كان أكثر استفادتي : بأساس البلاغة للزمخشري ، والمفردات للراغب الأصفهاني ، ولسان العرب لابن منظور ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور أحمد مطلوب .

(ح)

هذه أهم مراجع البحث ، مع ملاحظة أنني قد استخدمت مصطلح (المرجع) بمعناه اللغوي . فلم أفرّق بينه وبين مصطلح (المصدر) ثم إنني كنت أكتب في الهامش إذا تكررت الإحالة إلى مرجع واحد عبارة (المرجع السابق) وأكتفي بذلك إذا كانت الإحالة لنفس المكان ، وأدون بيانات المكان الجديد إذا تغير مكان الإحالة .

وربما نقلت في بعض المواضع نصاً طويلاً وذلك لأهميته ووضوحه ، ولاعتقادي أنه يفي بالغرض الذي نقل من أجله ، وقد حدث هذا في مواضع معدودة .

ولقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يكون البحث في ثلاثة فصول وخاتمة هي عبارة عن ملخص للبحث وذكر لأهم نتائجه ، وسبق ذلك مقدمة وتمهيد .

ويتألف التمهيد من عنوانين ، أولهما يتناول (السخرية بين المدلول اللغوي والاستعمال الفني) أما العنوان الثاني فهو عبارة عن نظرة تاريخية للسخرية في كتب البلاغة والنقد القديمة ، وكان بعنوان (المصطلح والظاهرة في التراث البلاغي) وتلا ذلك الفصل الأول وهو بعنوان (السخرية في أساليب علم المعاني) وتحتة ثمانية مباحث هي بالترتيب : السخرية باستعمال الكلمات غير الفصيحة ، فالتعريف الساخر ، فالسخرية في وضع المظهر موضع المضمهر ، فالاستفهام الساخر ، فالأمر الساخر ، فالنهي الساخر ، فالنداء الساخر ، وآخر المباحث في هذا الفصل التكرار الساخر .

تلا ذلك الفصل الثاني وهو بعنوان (السخرية في أساليب علم البيان) وتحتة ثلاثة مباحث هي بالترتيب : التشبيه الساخر ، فالاستعارة الساخرة ، فالكناية الساخرة .

ثم آخر فصول البحث وهو بعنوان (السخرية في أساليب علم البديع)
وتحتة ثمانية مباحث هي بالترتيب : الاستطراد الساخر ، فالمبالغة الساخرة ،
فالسخرية والهجاء في معرض المدح ، فالإبهام الساخر ، فالسخرية في الهزل الذي
يراد به الجد ، فالتجاهل الساخر ، فالتهمك ، فالإقتباس والتضمين الساخر .

بهذا تكون قد انتهت فصول البحث ومباحثه ، وينبغي أن أنه قبل الختام
أنني لا أدعي أن هذه الأساليب الساخرة التي تناولتها بالدراسة والتحليل هي كل
الأساليب الساخرة في البلاغة العربية ، فربما تبين لغيري شيء لم يبلغه إدراكي أو
قصر عنه نظري ، ففي الدنيا من السخر بقدر مافيهها من الساخرين ، وإنما جمعت
الأساليب التي شاع استخدام السخرية منها ، وحاولت جهدي أن أدرس هذه
الأساليب دراسة بلاغية وأدبية معتدلة ، ولم أر من اللازم أن أشايح أحداً أو أخالف
إلا بقدر ما يتطلبه البحث وتعليه طبيعة الأشياء .

وختاماً هذا ما مكنني فيه ربي ، وأعانني عليه أساتذتي ، وبلغ جهدي
وطاقتي ، فما كان من صواب فمن الله ثم من توجيهات أساتذتي الفضلاء ،
وما كان من خطأ أو تقصير فمن نفسي ، والله ورسوله والأساتذة منه براء .

الباحث

شكر وتقدير

﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ .

الشكر لله أولاً ثم لوالدي الكريمين ، امتثالاً لأمر الله ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير ﴾ ثم لأساتذتي الأفاضل ، امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه) يسعدني أن أتقدم بالشكر الوافر لأستاذي الكبير سعادة الدكتور عبدالعظيم المطعني المشرف على هذا البحث ، والذي كان نعم العون لي ، يفيض عليّ من علمه ، ويجود بوقته وجهده ، ويغمرني بتواضعه ونبل أخلاقه ، فجزاه الله عني وعن طلبة العلم خير الجزاء .

كما أشكر أستاذي الفاضل الذي أشرف على هذا البحث في بدايته سعادة الدكتور الشحات أبوستيت ، الذي لا ينكر فضله عليّ وعلى البحث ، فله مني خالص الشكر ومن الله جزيل الثواب .

كما أشكر أستاذي الكريمين عضوي المناقشة سعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم الحارثي ، وسعادة الأستاذ الدكتور نزيه عبدالحميد ، على تفضلهما بقبول مناقشة هذا البحث ، وعلى ما يبذلانه من جهد لتقويمه وتوجيه صاحبه ، وأسأل الله العليّ القدير أن ينفعني بعلمهما .

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ممثلة في أساتذتها الأفاضل ، وعميدها الموقر سعادة الأستاذ الدكتور حسن باجودة ورئيس قسم دراساتها العليا المحبوب سعادة الأستاذ الدكتور سليمان العايد فجزى الله الجميع عني ما صنعوا خير الجزاء .

التمهيد

ويشمل

- **السفرية بين الدول اللغوي والاستعمال الفني .**
- **المصطلح والظاهرة في التراث البلاغي .**

السخرية

بين المدلول اللغوي والاستعمال الفني

للموضوع الذي نتناوله بالبحث عدة ألفاظ في العربية ، فالسخرية ،
والتهكم ، والاستهزاء ، والاستخفاف ، والتندير ، والضحك ، والإهانة ،
والاحتقار ، كلها ألفاظ تدور حول معنى معين ، لكن دلالتها على هذا المعنى
ليست بدرجة واحدة ، فالألفاظ الأربعة الأولى تفسر في المعاجم بمعنى واحد هو
مانسميه (السخرية) أما بقية الألفاظ (فالندير ، والضحك) قد تستعمل بمعنى
السخرية وغيرها ، أما (الإهانة والاحتقار) فقد اكتسبا دلالتها على السخرية من
الاستعمال الغالب الذي شاع في كتب الأدب والنقد والبلاغة وغيرها .

وقبل أن نخوض في الحديث عن هذا الأسلوب يحسن بنا أن نفتش قليلاً
في معاجم اللغة حتى نتبين مدى استعمال هذه الألفاظ وأبعادها ودلالاتها اللغوية
والفروق بينها إن وجدت .

وأول هذه الألفاظ كلمة (السخرية) السين ، والخاء ، والراء أصل مطرد
مستقيم يدل على احتقار واستدلال (١) وسخر منه وبه ، قال الأخفش : سخرت
منه وسخرت به ، وضحكت منه وضحكت به ، وهزئت منه وهزئت به ، كلُّ
يقال .

والاسم السُّخْرِيَّةُ والسُّخْرِيُّ والسُّخْرِيُّ ، والسُّخْرَةُ : الضُّحْكَةُ (٢)

(١) معجم مقاييس اللغة (سخر) .

(٢) لسان العرب (سخر) .

ويقال : فلان سُخْرَة سُخْرَة : يضحك منه الناس ويضحك منهم (١) إذا فالسخرية احتقار واستذلال ، وضحك .

وقد استعمل القرآن الكريم هذه المادة (سخر) بهذا المعنى ست عشر مرة (٢) وشاع استعمال الشعراء له بهذا المعنى منذ القدم ، يقول عبيد بن الأبرص (٣) :

وساخرة مني لو أن عينها رأت مارأت عيني من الهول جنت
أيت بسعلاة وغول بقفرة إذا الليل وارى اللحن فيه أرنت
ومن ذلك قول عبدالمسيح بن عسكة العبدي (٤) :

فأما أخو قُـرْطٍ ، ولست بساخر فقولاً له : يا اسلم بجرة سالما
أما (التهكم) فالهاء ، والكاف ، والميم ، تدل على تقحم وتهدم ،
والتهكم : التهزؤ (٥) وتهكم به : تهزأ به وقال ذلك على سبيل التهكم (٦) وتهكم
بنا : زرى علينا ، وعبث بنا ، والتهكم : الاستهزاء (٧) إذا فالتهكم : تقحم ،
وتهدم ، وتهزؤ ، وزراية ، وعبث .

(١) أساس البلاغة (سخر) .

(٢) انظر الآيات : البقرة ٢١٢ ، الأنعام ١٠ ، التوبة ٧٩ ، هود ٣٨ ، الأنبياء ٤١ ،

المؤمنون ١١٠ ، الصافات ١٢ ، ١٤ ، ص ٦٣ ، الزمر ٥٦ ، الحجرات ١١ .

(٣) مروج الذهب ، للمسعودي ، ١٦٥ / ٢ ، تحقيق قاسم الشماحي .

(٤) الفضليات ٣٠٤ .

(٥) معجم مقاييس اللغة (هكم) .

(٦) أساس البلاغة (هكم) .

(٧) لسان العرب (هكم) .

ولم ترد لفظة التهكم في القرآن الكريم ، لكنها كانت شائعة على ألسنة الشعراء وغيرهم ، يقول عامر بن الطفيل حينما بلغه هجاء النابغة له : «ماهجاني أحد حتى هجاني النابغة ، جعلني القوم سيداً رئيساً ، وجعلني النابغة سفيهاً جاهلاً ، وتهكم بي» (١) .

ويقول الأصمعي عن أبيات لزهير يهجو فيها : « هذا منه تهكم » (٢) .

ويقول حسان رضي الله عنه : (٣)

بني أم البنين ألم ير عكم وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبي براء ليخفره وما خطأ كعمد

وقال عامر المحاربي يناقض الحصين بن الحمام المري (*) : (٤)

يغني حصين بالحجاز بناتيه وأعيا عليه الفخر إلا تهكمًا
وإنا لنشفي صورة التيس مثله ونضربه حتى نبلى استه دما

ومن ألفاظ السخرية (الهزء) الهاء ، والزاء ، والهمزة ، كلمة واحدة ، يقال : هزئ ، واستهزأ إذا سخر (٥) والهزء ، والهزؤ : السخرية ، وهزئ به

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ٨٤٧/٢ ، تحقيق د. محمد قرقران .

(٢) أساس البلاغة (هكم) .

(٣) المرجع السابق .

(*) الحصين بن الحمام بن ربيعة من بني سهم بن مرة ، كان سيد قومه وذرايهم وقائدهم ورائدهم ، وكان يقال له : مانع الضيم ، قيل إنه أدرك الإسلام ، ورد ابنه على معاوية فأكرمه . الأغاني ١/١٤ .

(٤) الفضليات ٣١٨ .

(٥) معجم مقاييس اللغة (هزأ) .

ومنه ، وتهزأ واستهزأ به : سخر ، ورجل هزأة - بالتحريك - : يهزأ بالناس ، وهزأة - بالتسكين - : يهزأ به (١) فالهزء سخرية ، وهو شائع ومستعمل بهذا المعنى ، وقد ورد في القرآن الكريم أربعاً وثلاثين مرة بصيغ متعددة ، واستعمله الشعراء كذلك بمعنى السخرية ، يقول عبدالله بن سلمة الغامدي (٢) :

ولم أرَ مثلاً لبنتِ أبي وفاءٍ غداةَ بَراقٍ ثَجَرَ ولا أَحُوبُ
على ما أنها هَزَّتْ وقالتُ : هُنُونٌ ، أَجَنٌّ ؟ مَنْشَأُ ذا قَرِيبُ

أما (الضحك) فهو انبساط الوجه ، وتكشر الأسنان من سرور النفس ، ولظهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك ، وقيل ضحكت منه ، ورجل ضحكة يضحك من الناس ، وضحكة لمن يضحك منه ، واستعمل الضحك بمعنى السخرية في القرآن الكريم في عدة مواضع (٣) منها قوله تعالى عن فرعون وقومه : ﴿ فلما جاءهم بآيتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ (٤) أي استهزءوا بها أول مارأوها (٥) وقوله عز وجل مخاطباً أهل النار : ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا ءامنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ﴾ (٦) وتضحكون هنا أي تستهزئون وتسخرون (٧) .

(١) لسان العرب (هزئ) .

(٢) المفضليات ١٠٣ .

(٣) المفردات في غريب القرآن ٢٩٢ .

(٤) الآية (٤٧) من سورة الزخرف .

(٥) روح المعاني ، ٨٧ / ٢٥ .

(٦) الآيتان (١٠٩ ، ١١٠) من سورة المؤمنون .

(٧) انظر روح المعاني ، ٦٩ / ١٨ .

ويوم القيامة يضحك المؤمنون من مصير الكافرين ، فيردون عليهم ضحكهم وهزأهم كما في الآيات ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين ءامنوا يضحكون ... فالיום الذين ءامنوا من الكفار يضحكون ﴾ (١) .

واستعمل الضحك في الشعر بمعنى الهزاء ، يقول عبد يغوث بن وقاص(*) : (٢)

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم تر قلبي أسيراً يمانيا

والضحك يستعمل بمعنى الهزاء والسخرية كما في الشواهد الماضية ويستعمل في مطلق السرور وفي التعجب وغيرها (٣) فيكون تهكماً وسخرية ، ويكون عبثاً ولهواً ومجانة ويكون فكاهة (٤) .

ومن هذه الألفاظ التي تستعمل بمعنى السخرية (التندير) من ندر الشيء ندوراً ، يفيد معنى السقوط ، ويقال : أسمعني النوادر ، وفلان يتنادر علينا (٥) وفي التندير معنى السقوط وكأن المتندر يحاول إسقاط أو إظهار العيوب بطريقة

(١) الآيتان (٢٩ ، ٣٤) من سورة المطففين .

(*) عبد يغوث بن صلاءة أو ابن الحارث بن وقاص ابن صلاءة ، كان شاعراً من شعراء الجاهلية فارساً سيداً لقومه وهو قائد لهم في يوم الكلاب وفيه أسر فقتل ، وهذه أشهر قصائده . الأغاني ٣٢٨ / ١٦ .

(٢) المفضليات ١٥٨ .

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن ، ٢٩٢ .

(٤) انظر ابن الرومي حياته من شعره ، للعقاد ١٢٠ ، ١٢١ .

(٥) أساس البلاغة ، والقاموس المحيط (ندر) .

ملتوية فيها تبالة وتجاهل وإظهار لنوادير الشخص الذي يتندر به (١) والتندير ليس سوى تعبير ساخر بالجد والهزل (٢) ويعده بعض البلاغيين بهذه التسمية أحد أساليب البديع الساخرة مع أنه يمكن أن يدخل في بعض الأساليب البديعية الأخرى كالتحكم والهزل الذي يراد به الجد « لأنه غالباً ما يقع في الهزل » (٣).

وهناك ألفاظ تلازم السخرية والاستخفاف ، منها (الإهانة) و (الاحتقار) فالسخر أصل يدل على احتقار واستدلال (٤) وكثيراً ما يجمع بينهما ، كما عند ابن رشيق في العمدة حيث يقرن بين الاستحقار والاستخفاف (٥) ، وكما عند السكاكي أيضاً (٦).

وابن الأثير الحلبي يعد من وضع الهجاء ما خرج مخرج التهكم والاستهزاء ، وتجاهل العارف ، ونوع يقال له الاحتقار (٧) ، والاحتقار استصغار ، وكثيراً ما يصاحب السخرية ويأتي بمعناها .

(١) انظر السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، د. نعمان طه ١١ .

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، لابن أبي الإصبع المصري ٥٧١ ، تحقيق حفني شرف .

(٣) حسن التوصل إلى صناعة الترسل ، شهاب الدين الحلبي ، ص ٣٠٧ ، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف .

(٤) معجم مقاييس اللغة (سخر) .

(٥) انظر العمدة ، ٨٥٠ / ٢ .

(٦) مفتاح العلوم ٣١٤ .

(٧) جوهر الكنز ، لابن الأثير الحلبي ٣١٢ ، ٣١٣ ، تحقيق د. محمد زغلول سلام .

أما (الإهانة) فهي مصدر أهان ، واستهان به وتهاون به : استخف به ، ورجل فيه مهانة : أي ذل ، والمهانة من الحقارة ، واستهان به وتهاون به : استحقره (١) ، فالإهانة : استخفاف واستذلال وتحقير ، وكل ذلك يلزمه غالبا ويصحبه التهكم والسخرية (٢) . وتعرف السخرية بأنها إنزال الهوان والحقارة كما عند الزمخشري (٣) أو الاستحقار والاستهانة كما يقول القرطبي (٤) وبالاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب في تعريف طاش كبرى زادة (٥) ، فالسخر أصل من عناصره الاحتقار والإهانة ويغلب مصاحبته لهما .

هذه الألفاظ التي تدل على السخرية - كما في كتب النقد والبلاغة العربية - ، ولا شك أن أحدا لا يدعي أنه ليس في العربية ألفاظ أخرى تدل على هذا المعنى ، إنما هذه تقريبا هي الألفاظ التي كانت تدور بهذا المعنى في كتب الأدب والنقد ، والنوادر والأخبار ، وهناك صعوبة تواجه كل من أراد أن يتصدى لإيجاد فروق واضحة بين هذه الألفاظ ، ففي المعاجم تذكر هذه الألفاظ بمعنى السخرية «ومهما أدرنا الألفاظ على وجوها فلن تسعفنا الدلالات المعجمية على مناحي الخلاف بصورة واضحة محددة» (٦) .

(١) لسان العرب (هون) .

(٢) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها في القرآن الكريم ، د. صباح دراز ٤٦ .

(٣) تفسير الكشاف ، ٣٥/١ .

(٤) انظر روح المعاني ، ١٥٢/٢٦ .

(٥) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لطاش كبرى زاده ، ٣/٣٥٣ .

(٦) الاتجاه الساخر في أدب الشدياق ، د. شوقي المعاملي ١٠ .

وقد اخترنا لفظة (السخرية) لأنها كما يبدو أقرب الألفاظ للدلالة على المعنى المقصود ؛ ولكثرة دورانها على ألسنة الأدباء والنقاد حتى صارت علماً لاتجاه أدبي معروف يسمى (بالاتجاه الساخر) أو (الأدب الساخر) ، وكثيراً ما يوصف شاعر أو أديب بأنه (شاعر ساخر) ، أو (أديب ساخر) ، ولأمر ما استعمل القرآن الكريم هذه اللفظة للدلالة على هذا المعنى ست عشرة مرة ، وحينما أراد القرآن الكريم أن يصرح بالنهي عن استخدام هذا الفعل ترك كل المترادفات وعبر بلفظ (السخرية) فقال « لا يسخر قوم من قوم » (١) ، ثم إن لفظة (السخرية) كما دلت على ذلك معاجم اللغة فيها معنى (التسخير) أي التذليل ، والساخر يحاول دائماً إخضاع خصمه وتذليله « وفي حروف الكلمة إحساس بالطراوة والخبث والدهاء ، بعكس لفظة (تهكم) التي تدل على تهمد وتقحم ، ففي لفظ (السخرية) لين أشبه بلين الأفاعي » (٢) .

ولو ذهبنا نعرف السخرية لوجدنا صعوبة كبيرة ؛ لأن السخرية فن ، والفنون أعمال نابضة بالحياة ، لا يمكن تعريفها والإحاطة بها ببعض ألفاظ قاصرة ، إذ الفن حي متحرك والألفاظ مهما تكن جامدة ساكنة (٣) ، ثم إن السخرية انفعال ، ومن أصعب الأشياء محاولة تعريف الانفعالات أو وصفها ، لذلك رأينا كثيراً من الباحثين الذين تصدوا لتعريف السخرية أو وصفها يصرحون بهذه الصعوبة ، لقد حاول (أدلر) الفيلسوف أن يحللها ، فقال : « إنها مركبة من غرائز

(١) بعض الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٢) انظر السخرية في الأدب العربي ١٣ .

(٣) المرجع السابق ١٤ .

ثلاث : الغضب ، والانتقام ، والخضوع - ثم قال بعد هذا - ولست مقتنعاً إلى اليوم بأي تعريف لها فيما قرأته إلى الآن» (١) ، ويقول المازني بعد أن حاول تعريف السخرية : « ولسنا نظن أننا أحطنا في هذا التعريف بكل ما ينبغي أن يحاط به ، أو أقمنا كل المعالم والحدود » (٢) ، ويقول سليمان الشبانة : « رغم كثرة استخدام لفظة السخرية وجريانها على الألسنة ، وورودها في القرآن الكريم في أكثر من إحدى عشرة آية إلا أنها لم تحظ بتعريف اصطلاحى جامع مانع » (٣) .

ورغم معرفتي بأن تعريف السخرية تعريفاً جامعاً مانعاً أمر بالغ الصعوبة إلا أنني حاولت أن أتبع أشهر الذين تعرضوا لتعريفها ، ومن أوائل هؤلاء الزمخشري حيث يقول في معرض تفسير معنى استهزاء الله عز وجل بالمنافقين : « فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت : معناه إنزال الهوان والحقارة بهم ، لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ، وإدخال الهوان والحقارة عليه » (٤) .

وينقل الألوسي عن القرطبي قوله : « السخرية : الاستحقار والاستهانة والتنبية على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه ، وقد تكون بالمحاكات بالفعل والقول أو الإشارة أو الإيماء أو الضحك على كلام المسخور منه إذا تخطيط فيه أو غلط ، أو على صنعته أو قبح صورته » (٥) .

(١) انظر السخرية في الأدب العربي ١٥ .

(٢) حصاد الهشيم ، إبراهيم المازني ٣٠٢ .

(٣) الرسوم الساخرة في الصحافة ، سليمان الشبانة ٩ .

(٤) تفسير الكشاف ، ٣٥ / ١ .

(٥) روح المعاني ، ١٥٢ / ٢٦ .

ومن تناولوا السخرية بالتعريف طاش كبري زادة في المطلب الأول من آفات اللسان ، يقول : « ومن الآفات السخرية والاستهزاء ومعناها الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون بالحاكاة في الفعل وفي القول ، وقد يكون بالإشارة والإيحاء » (١) ، وهذا التعريف قريب جداً من تعريف القرطبي السابق .

ومن الأدباء والباحثين المحدثين الذين حاولوا تعريف السخرية المازني الذي يرى أن السخرية عبارة عما يثيره المضحك أو غير اللائق من الشعور بالتسلي أو التقزز ، على أن تكون الفكاهة عنصراً بارزاً والكلام مفرغاً في قالب أدبي (٢) ولا أعلم ما العلاقة بين السخرية والشعور بالتقزز !

ومن تناولوا السخرية بالتعريف عبدالحليم حفني ، يقول : « السخرية أسلوب أو سلاح عدائي ، مهما كانت دوافعها ، ومهما كان مقامها ، ومهما صغرت درجتها أو كبرت ، ويتميز عن غيره من أساليب العداء بأنه مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها » (٣) . وليست السخرية عدائية دائماً ، بل قد تكون توجيهية أو نقدية تقويمية أو تفسيرية من سلوك أو عادة سيئة ، أما أن تكون عدائية مهما كان مقامها أو دوافعها فأمر لا يستقيم هكذا على إطلاقه إلا إن كنا نقصد أنها كذلك من وجهة نظر المسخور منه وربما .

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٣ / ٣٥٣ .

(٢) حصاد الهشيم ٣٠٢ .

(٣) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، د . عبدالحليم حفني ١٥ .

ويعرف نعمان طه السخرية بأنها النقد الضاحك أو التجريح الهازئ (١) .

أما قحطان التميمي فيقول : « السخرية في الشعر طريقة تعبيرية متطورة ،
توسل بها الشعراء لنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية والسير الفردية ، والنيل
منها بأسلوب يترفع عن الشتيمة والسباب المحض ، ويتنزه عن القذف والإيغال في
الفحش ورفث القول » (٢) .

ويعرفها سليمان الشبابة بأنها الاستهزاء من الشخص أو الموقف بأسلوب
يشير الضحك منه ، بقصد إهانته واحتقاره ؛ لتحطيم معنويته الشخصية ، والابتعاد
عن مواقفه الشائنة (٣) .

وليس في كل التعاريف السابقة ما يمكن أن يصف لنا جوهر السخرية ، إنما
يلامس كل واحد جانباً من جوانبها ، أو يعدد بعض وسائلها أو عناصرها ، أو
يذكر بعض مرادفاتها ، كأن يقول « هي الاستحقار والاستهانة » (٤) أو يعدد بعض
أساليبها بقوله : « وقد يكون بالمحاكاة في الفعل وفي القول ، وقد يكون بالإشارة
والإيحاء » (٥) ، أو يقول « بأنها أسلوب أو سلاح عدائي » (٦) وهي ليست هكذا
دائماً ، أو يحصر بعض هذه التعاريف السخرية في النقد الضاحك أو التجريح

(١) السخرية في الأدب العربي ١٤ .

(٢) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، د. قحطان التميمي ٣٥٦ .

(٣) الرسوم الساخرة في الصحافة ١٠ .

(٤) روح المعاني ، ١٥٢ / ٢٦ .

(٥) مفتاح السعادة ، ومصباح السيادة ، ٣ / ٣٥٣ .

(٦) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ١٥ .

الهائى (١) مع أنها كثيراً ما تكون غير نقد ولا تجريح « ففي الدنيا من السخرية بقدر ما فيها من الساخرين » (٢) .

ويمكن أن تعد هذه التعاريف السابقة للسخرية محاولات لوصف السخرية أو توضيحها أو شرح بعض جوانبها ووسائلها وأساليبها وعناصرها ، أما جوهر السخرية وحقيقتها فأمر يتعالى على التعريف ، والأفضل للباحث أن ينصرف إلى معرفة حقيقة السخر عن طريق « وصف الفنان الساخر واستبطان نفسه ، وتحليل الأعمال الساخرة ، والبعد عن محاولة تعريفها بعبارات منطقية محدده » (٣) .

والسخرية نوع من الهجاء ولكنها تختلف عنه ، فالهجاء صادر عن نفس غاضبة تهدف إلى التجريح والتشهير والانتقاص والمبالغة في التعدي ، وليست السخرية كذلك في أغلب الأحيان (٤) .

وقد اصطلح الناس منذ القدم على أن الهجاء فن الشتم والسباب (٥) وهو ضد المديح كما يقول قدامة (٦) ، وقد أجمع أشهر الذين تعرضوا لتقسيم الشعر على أنه باب رئيس من أبواب الشعر ، فأبو تمام الذي يعد من أقدم من تعرض لتبويب الشعر العربي يفرد له باباً في حماسته (٧) ، ويجعل له قدامة قسماً في كتابه

(١) السخرية في الأدب العربي ١٤ .

(٢) انظر ابن الرومي حياته من شعره ١٢١ .

(٣) انظر السخرية في الأدب العربي ١٦ .

(٤) انظر الاتجاه الساخر في أدب الشدياق ١١ .

(٥) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، د. محمد محمد حسين ٥ .

(٦) انظر نقد الشعر ٩٢ .

(٧) انظر الحماسة ، ١٥٦/٢ .

(نقد الشعر) (١) ، ويفرد له أبو هلال العسكري فصلاً في كتابه ديوان المعاني (٢) ، وأبواب الشعر عند ابن رشيق تسعة أقسام منها الهجاء (٣) ، وهذه التقسيمات تظهر أن الهجاء فن أصيل من فنون القول وما ذاك إلا لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفطرة الإنسانية فهو نابع من عاطفة الغضب ، ثم هو مرتبط أيضاً بالحياة والواقع ، بل وبتفاصيل هذا الواقع .

والهجاء كما يرى قدامة ضد المديح (٤) ، وهو عند ابن الأثير الحلبي ذكر المساوي (٥) ، ويعرفه محمد محمد حسين بأنه أدب غنائي يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء (٦) ، بينما يرى قحطان التميمي في كتابه (اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري) أن الهجاء تعداد للمعائب وكشف لبشاعة الرذائل والنقائص في الفرد والمجتمع بكل مظاهره السياسية والاجتماعية والأخلاقية (٧) .

والعلاقة بين السخر والهجاء كالعلاقة بين الجزء والكل ، إذ السخرية لم تكن يوماً غرضاً شعرياً مستقلاً عن الهجاء إنما هي أسلوب في الأداء الهجائي تطور

(١) نقد الشعر ٩٢ .

(٢) ديوان المعاني ، ١ / ١٧٠ .

(٣) العمدة ٢ / ٨٤٤ .

(٤) نقد الشعر ٩٢ .

(٥) جوهر الكنتز ٣٠٩ .

(٦) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ١٦ .

(٧) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ١٢ .

بتطور الهجاء لأنها أداة من أدواته وجزء منه ، وليس من مبرر لجعلها غرضاً مستقلاً ، فكما سلك الشعراء إلى هجاء المظاهر السياسية والاجتماعية والشخصية أسلوباً جاداً فإنهم سلكوا إلى هجاء هذه المظاهر أسلوباً هازلاً متفكها ساخرأ(١) ، والأديب حينما يسخر يتناول بعد ما بين الأشياء والطبيعة ، ويركض في حلبة يتقابل عند طرفيها الواقع من ناحية ومثل الكمال من ناحية أخرى ، وقد يفعل ذلك جاداً أو متفكها مداعباً ، أي أنه قد يستوحي إرادته ومشاعره أو يستملي عقله ، فإن كانت الأولى فهو هاج متقم ، وإن كانت الثانية فهو ساخر يركب مابدا له بالدعابة (٢) .

فالسخرية فن له خصائصه وطبيعته إلا أنه لا يخرج عن كونه هجاءً ، وهي عنصر من عناصر هذا الهجاء تحتاج إلى مواهب متعددة ومقدرة فائقة في اختيار الموضوع وصياغته وطريقة تقديمه وأسلوب المعالجة ، ومعرفة بأذواق المتلقين وأقدار المهجويين (٣) .

والهجاء حينما يفقد عنصر السخرية فإنه قد ينساق إلى مجرد السب والشتم ، فيزول عنه بذلك عامل كبير من عوامل قوة هجائه ، وقد فطن البعض إلى ذلك منذ القدم ، فالنابغة حينما قدم بعد وقعة « حسي » سأل بني ذبيان : ماقلتم لعامر بن الطفيل ، وما قال لكم ؟ فأنشدوه ، فقال : أفحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل ذلك ، ولكني سأقول ، ثم قال :

(١) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٥٧ .

(٢) حصاد الهشيم ٣٠٢ .

(٣) انظر الهجاء الجاهلي صورته وأساليبه الفنية ، د. عباس بيومي ٢٨٢ .

إِنَّ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظْنَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ
 فَكُنْ كَأَيْكَ ، أَوْ كَأَنِّي بَرَاءُ تصادفك الحُكُومَةُ والصَّوَابُ
 وَلَا تَذْهَبْ بِلَيْكَ طَائِشَاتٍ مِنَ الْخِيَلِ لَيْسَ لَهُنَّ بَابُ
 فَإِنَّكَ سَوْفَ تَحْلُمُ أَوْ تَنَاهَى إِذَا مَا شَبَّتْ أَوْ شَابَ الْغُرَابُ
 فَإِنْ تَكُنِ الْفَوَارِسُ يَوْمَ حِسِي أَصَابُوا مِنْ لِقَائِكَ مَا أَصَابُوا
 فَمَا إِنْ كَانَ عَنْ نَسَبٍ بَعِيدٍ وَلَكِنْ أَدْرَكُوكَ وَهُمْ غَضَابُ

فلما بلغ عامراً ما قال النابغة شق عليه ، وقال : ماهجاني أحد حتى هجاني
 النابغة ، جعلني القوم سيداً رئيساً ، وجعلني النابغة سفيها جاهلاً ، وتهكم
 بي (١) .

فالسخرية المؤلمة التي شقت على عامر بن الطفيل وغيره ليست سباً
 وإفحاشاً ، بل هي أسلوب يترفع عن الشتم والسباب المحض ، ويتنزه عن القذف
 والإيغال في الفحش ورفث القول « لأن الحديث الساخر ينبغي ألا يكون محتداً
 نائراً وألا يكون سيئ اللفظ بذيئاً » (٢) .

أما الهجاء فالأغلب أن يكون صادراً من نفس غاضبة ترغب في الانتقام
 وتطمح في النيل من خصمها وإصااق كل نقيصة به ولو كان ذلك بأسلوب التشهير
 أو السب والشتم . وقد لا يبالي الهجاء قبل الناس هجوه هذا أم لا ، وربما فقد
 بكثرة تحامله وإسرافه في السباب تعاطف الناس ، بل وربما جعلهم يشفقون على

(١) العمدة ، ٨٤٦/٢ .

(٢) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٥٦ .

خصمه ويتعاطفون معه ، فلكي يتمكن الهجاء من جذب الناس نحوه ، وتنفيرهم من خصمه ومهجوه ، لابد له أن يسلك إلى ذلك سبيل السخرية والعبث حتى يستطيع « جذب المتلقي وشد السامع نحو هجائه ، وإغراءه على رواية ما يقرأ أو حفظ ما يسمع وإن كان ذلك طعنًا في قومه وقذفًا في قبيلته ، ثم يكون في هذا السخر دحرٌ لمهجوه بإضحاك الناس عليه وسخريتهم منه » (١) ، والسخر بهذه الطريقة الماكرة أشد على المهجو من وقع الحسام المهند ؛ لأن أشد الهجاء كما قيل « ما خرج مخرج التهكم والاستهزاء » (٢) ، وقد رأينا عامر بن الطفيل كيف آلمه تهكم النابغة ولم يعد ما قاله غير النابغة من سب وإفحاش هجاء البتة .

وهذه الطريقة الذكية التي تسخر العقل وتعتمد برود الأعصاب هي طريقة السخرية « فالسخرية فن لا يتقنه ولا يجيده إلا الأذكىء البارعون في التعبير عن الكلمة بحذق ولباقة وذكاء ، بينما الهجاء الخالص لا يعوزه التركيز على الكلمات أو اختيار المعاني الناعمة الجارحة في آن واحد كما هو الحال في السخرية » (٣) . وعلماء النفس يرون أن هناك صلة وثيقة بين الذكاء والسخر ويقولون إن هذا الارتباط واضح بينهما ، فكلما ارتفعت نسبة الذكاء كان المجال أرحب لوجود الحس الفكاهي أو الحس الساخر (٤) ، وقد أدرك أرسطو منذ القدم هذه العلاقة فعالجها في خطابه (٥) .

(١) انظر الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية ٢٨٢ .

(٢) جوهر الكثر ٣١٢ .

(٣) انظر أدبنا الضاحك ، عبد الغني العطري ١٣١ .

(٤) انظر أسلوب السخرية في القرآن الكريم ١٥ .

(٥) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، وهبة والمهندس ٦٠ .

والسخرية مزيج بين شيئين ، الهجاء والفكاهة ، وترشيح الهجاء بالفكاهة والهزل يكسبه قوة وطرافة « فأبلغ الهجو ماجرى مجرى الهزل والتهافت » (١) ،
 وحينما يصب الشاعر وغير الشاعر هجاءه في قوالب فكاهة فإنه بذلك يتخذ
 الأسباب التي تكتب لهجائه البقاء والخلود ، فالهجاء بدون فكاهة وهزل كالجسد
 بلا روح ، مجرد دمية بدون نبض أو حياة ، وحينما تمتزج الفكاهة بالهجاء فإنه
 ينتج أقوى الأساليب الهجائية .

والفكاهة شيء موهوب غير مكتسب ، فهي مركبة في طباع الهجائيين
 الممتازين ، الذين لا تكاد أعينهم تقع على الشيء حتى تتدفق عليهم ألوان من الصور
 الفكاهة والأخيلة الساخرة التي تسعفهم بها البديهة دون إعمال كبير للعقل أو كد
 للمخيلة ، فالصورة تلمع في ذهن الهجاء الساخر الفطن فتسعه بالنكتة الصائبة
 بمجرد وقوع عينه على موضوع هجائه أو تخيله (٢) .

وليس كل شاعر بمستطيع أن يكون ذلك الفنان الساخر ، فإن السخر موهبة
 تميز بها أفراد دون آخرين ، فالشاعر إن لم يكن ذا موهبة فطرية وذهن لماح وعين
 حساسة تقع مباشرة وبدون جهد على مواقع النقص والنقد ، فإنه عبثا يحاول ادعاء
 الخفة والظرافة ، فالسخر موهبة « وهذه الموهبة لا تنمو في الرؤوس الخاملة ولا في
 الجماعات ذات العقول المشوشة أو المضطربة ، إذ إنها موهبة تخاطب العقل
 بالدرجة الأولى » (٣) .

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٢٤ .

(٢) انظر الهجاء والهجاءون في العصر الجاهلي ٤٦ .

(٣) الاتجاه الساخر في أدب الشدياق ١٤ .

وإذا أردنا أن نعرف الفكاهة التي تعد عنصراً أساسياً من عناصر السخرية فإننا نقف حائرين إذ ليس من اليسير تعريف الفنون ، وتذكر ما قاله أحد الباحثين حينما طلب منه تعريف الفكاهة قال : « هي اصطلاح لا يابى أن يعرف فحسب بل تتعالى عن التعريف » (١) ، ومن أقرب التعريفات التي توضح هذا المعنى التعريف الذي صاغه أحد الباحثين بقوله « الفكاهة تجاوب بين ما هو مضحك ، أو غير معقول ، أو ما يتميز بصفة التناقض في القول والفعل والحركة ، وبين قدرة الإنسان العقلية على إدراك هذه العناصر وتقديرها والتعبير عنها » (٢) ، إذاً فالفكاهة تفاعل بين المضحك والعقل .

والضحك نعمة اختص بها الإنسان عن سائر المخلوقات ، وما ذاك إلا لأن الإنسان « لما كان أعمق الموجودات ألماً أعطي الضحك ، فأكثر المخلوقات تعاسة وشقاءً هو بطبيعة الحال أكثرها بشاشة وانشراحاً » (٣) ، والإنسان يضحك لينفس عما في نفسه من ألم وليستعوض بهذا الضحك عن آلام لو لم يجد لها متنفساً لأتعبته كثيراً ، يقول أحد الفلاسفة « ماضحت لمشهد بشري زائل إلا وكان ضحكي بديلاً أستعين به على اجتناب البكاء » (٤) ، وكان الفيلسوف الفرنسي الساخر « فولتير » يرى أن الأمل والنوم منحتان عظيمتان أعطيهما الإنسان عوضاً عن الآلام والمحن التي تواجهه في الحياة ، ولكن « كانت » الفيلسوف الشهير كان يعلق على رأي فولتير هذا قائلاً « ما كان أخرى فولتير بأن يضيف إليهما الضحك » (٥) .

(١) انظر السخرية في الأدب العربي ١٥ .

(٢) الفكاهة عند العرب ، د. أنيس فريحة ١٤ .

(٣) انظر أسلوب السخرية في القرآن الكريم ١٦ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق ١٧ .

والضحك ليس نوعاً واحداً ، فهو يتنوع بحسب الباعث الذي يوحيه ، ويذكر العقاد أن أدباء « النفسيين » يقسمونه إلى تهكم ، وعبث ، ومجانة ، وفكاهة (١) ، والأقرب إلى فهم « الضحك » عند العقاد أن الضحك قابل لجميع هذه الحالات وأنه يمكن أن يكون متحكماً حيناً وعبثاً حيناً ويمكن أن يمزج أحياناً بين هذين الشعورين (٢) .

فالضحك عنده واحد لكنه يختلف باختلاف النفوس وحالاتها ، فهناك نفس كريمة ، ونفس لثيمة ، وهناك ضحك في حالة الرضى ، وضحك في حالة الغضب والجفاء ، ثم هناك فرق بين الضحك والعبث بشتى أنواعه حينما يصدر عن نفس واحدة « فعبث وضحك النبل الأريحي غير عبث وضحك الوضع الخبيث ، وتهكم الصارم الأبى غير تهكم الرخو الدليل ، وفي الدنيا من التهكم بمقدار مافيه من المتكهمين » (٣) .

والسخرية ليست ضحكاً من أجل الضحك فحسب « فالسخر والتهكم لا يراد لذاته » (٤) ، بل هي ضحك جاد « فالساخر حينما يتناول المضحكات أحياناً ويمزح ويسخر ويركب الأشياء والناس بالهزل ، فإن هزله أبداً مبطن بالجد ، وهو لا يقصد إلى الهزل في ذاته » (٥) ، إن السخر يمكن أن يكون وسيلة للتقويم ونقد

(١) ابن الرومي حياته من شعره ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦١ .

(٥) انظر حصاد الهشيم ٣٠٦ .

الأخطاء وتبصير الغافلين بعيوبهم ليتنبهوا لما هم فيه من خطأ ، وقد يكون قاسياً في بعض الأحيان وخاصة حينما يصادف تصلباً من الطرف الآخر ؛ لأن الضحك كما يقول برجسون : « ليس طيباً في كل الأحيان » (١) فهو تأديب قبل كل شيء ، وقد وجد ليخجل ويخزي (٢) .

والضحك الساخر كما يرى بعض الباحثين أسلوب وسلاح عدائي مهما كانت دوافعه إلا أنه يتميز عن غيره من الأساليب العدائية بأنه مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها (٣) ، فالسخر عنده أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة ، وفي هذا تعميم لا يستقيم هكذا على إطلاقه لأن السخر قد يكون ذا غاية نقدية إصلاحية .

وختاماً فإن الحديث عن السخر يمكن أن يستغرق بحوثاً ودراسات طويلة تبدأ من تعريف السخرية وألفاظها والفروق الدقيقة بين هذه الألفاظ ، ثم الحديث عن طبيعة السخر وعلاقته بالفكاهة والضحك ، وحاجة الإنسان إليه ، ثم البحث في مصادر السخرية ، وطبيعة الساخر ، وأسباب السخرية ودواعيها ومقوماتها .

والقصد المراد بهذا التمهيد التقديم والتوطئة للموضوع الرئيس لهذا البحث وهو « أساليب السخرية في البلاغة العربية » .

(١) الضحك ، هنري برجسون ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق ١٥٨ .

(٣) انظر أسلوب السخرية في القرآن الكريم ١٣ .

المصطلح والظاهرة في التراث البلاغي

لم يكن لموضوع التهكم والسخرية في كتب الأقدمين - فيما أعلم - مصنف مستقل ، بل كانت مباحثه وأساليبه وأمثله مبثوثة في كتب البلاغة والنقد والأدب ودواوين الشعر ، فمن هذه الكتب ما تناول مجموعة من أساليب السخرية ومباحثها ، ومنها ما اكتفى بالحديث عن مبحث أو أسلوب واحد ، بل ومنها ما أشار مجرد إشارة عابرة إلى أن هنا تهكماً أو أن هناك سخرية .

ومن أوائل هذه الإشارات والأمثلة العابرة ، ما نجده عند الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في كتابيه (البيان والتبيين) و(الحيوان) ، حيث يحشد فيهما كثيراً من القصص والشواهد والأمثلة الساخرة ، وقد تحدث عن طبقات الكلام ، وتخير الألفاظ ، فالكلام منه الجزل والسخيف ، ومنه المليح والحسن ، والقيح والسمج ، والألفاظ منها العامي الساقط ، ومنها الوحشي الغريب (١) . واستعمال الغريب والوحشي من الكلمات ، ومحادثة الناس دون اعتبار طبقاتهم ومنازلهم ، مدعاة للسخرية ، وقد عقد الجاحظ فصلاً جمع فيه كثيراً من كلام النوكى والموسوسين والجفاة والأغبياء وما ضارح ذلك وشاكله (٢) ، ومن ذلك مايرويه عن أبي علقمة النحوي الذي كان مولعاً باستعمال الغريب من الكلام مما جلب له كثيراً من السخریات ، وربما استعمل أبوعلقمة نفسه ذلك ليرد على سخرية ساخر ، أو هزاء متطفل (٣) .

(١) انظر البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ١/١٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ١/٤ .

(٣) المرجع السابق ، ١/٣٧٩ ، ٣٨٠ .

ويكتب الجاحظ عن الإشارة فيجعلها شريكة للفظ ، بل يجعلها من تمام حسن البيان باللسان (١) ، ومعلوم أن السخرية ربما كانت بالمحاكات بالفعل ، والقول ، أو الإشارة ، أو الإيماء (٢) .

والجاحظ بطبعه يميل إلى السخرية والتفكه ، فالناظر في كتبه يدرك هذا بوضوح ، وخصوصاً كتابه عن (البخلاء) الذي تتضح فيه الروح الساخرة بجلاء ، وكذلك رسالته (الترييع والتدوير) .

ومن أوائل من تناول السخرية والتهكم أيضاً ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) صاحب كتاب (البديع) فإنه يتناول في كتابه بعض الأساليب التي يجعلها من محاسن الكلام ، وتأتي منها السخرية ، فمن ذلك (الاستطراد) ، الذي يسميه (حسن الخروج من معنى إلى معنى) (٣) ويجعل له أمثلة الاستطراد ، وينوع في أمثلته ، فبعضها خروج إلى المدح والبعض إلى الهجاء والسخر ، إلا أنه يجعل الكثرة للاستطرادات الساخرة (٤) وكأنه فطن بذلك إلى أن هذا الأسلوب يكون في المدح كما يكون في الهجاء ولكنه في الهجاء أشهر وأكثر وقوعاً .

ويتناول تحت ما يسميه محاسن الكلام (الهزل الذي يراد به الجد) ويمثل له بأربعة أمثلة فيها سخر وهجاء (٥) ويعد من محاسن الكلام أيضاً (تجاهل العارف)

(١) انظر البيان والتبيين ، ٧٧ / ١ ، ٧٩ .

(٢) انظر روح المعاني ، ١٥٢ / ٢٦ .

(٣) البديع ، لابن المعتز ٦٠ .

(٤) المرجع السابق ٦١ ، ٦٢ .

(٥) المرجع السابق ٦٣ .

فيسميه باسمه ويذكر له ثلاثة أمثلة (١) ، وينقل ابن أبي الأصبع عن ابن المعتز أنه يسمي هذا الأسلوب (بالإعنات) (٢) ، ولم أجد للتجاهل عنده إلا هذه التسمية ، والاعنات شيء آخر .

ويتناول ابن المعتز أيضاً فيما يعده من محاسن الكلام (حسن التضمين) ويأتي بأمثلة منها تضمينات ساخرة متهازلة (٣) .

ومن تناول من الأقدمين أساليب السخر والهجاء قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) في كتابه (نقد الشعر) الذي قسم فيه الشعر إلى ستة أقسام هي : المديح ، والهجاء ، والمراثي ، والتشبيه ، والوصف ، والنسيب (٤) ، وأما الكتاب الآخر المنسوب إليه والمسمى (نقد النثر) فقد قسم الشعر فيه إلى أربعة أقسام : مديح ، وهجاء ، وحكمة ، ولهو ، ويبدو أن صاحب هذا التقسيم كان متأثراً فيه بقراءاته في فلسفة اليونان وتقسيمهم للشعر « فالقسم الأخير وهو (اللهو) يقابل كلمة (كوميديا) في أقسام الشعر الإغريقي والتي كانت تستخدم أسلوب اللهو والسخرية » (٥) ، ولكن هل معنى هذا أن مؤلف نقد النثر أراد به الأدب الساخر مقابل الكوميديا الساخرة .

وإذا تجاوزنا تقسيم الشعر عند قدامة إلى المباحث التي تناول فيها جانباً من الأساليب البلاغية الساخرة ، نراه مثلاً في (نعت الهجاء) يجعل أسلوب (الهجاء

(١) البديع لابن المعتز ٦٢ .

(٢) انظر تحرير التحبير ١٣٥ .

(٣) البديع ٦٤ .

(٤) نقد الشعر ٥٨ .

(٥) انظر السخرية في الأدب العربي ٢٥ .

في معرض المدح) من الهجاء المقذع الموجه ، ولا يسميه باسمه ، يقول : « ومن الهجاء المقذع الموجه ما أنشدناه أحمد بن يحيى : (١)

كَأَثَرُ سَعْدٍ إِنْ سَعْدًا كَثِيرَةً وَلَا تَبْغِ مِنْ سَعْدٍ وِفَاءً وَلَا نَصْرًا
وَلَا تَدْعُ سَعْدًا لِلْقِرَاعِ وَخَلِّهَا إِذَا أَمِنْتَ ، وَرَغِيهَا الْبَلَدَ الْقَفْرًا
يَرُوعُكَ مِنْ سَعْدٍ بِنِ عَمْرٍو جُسُومُهَا وَتَزْهَدُ فِيهَا حِينَ تَقْتُلُهَا خُبْرًا

ثم يعلق على هذه الأبيات بقوله : « فمن إصابة المعنى في هذا الهجاء أن هذا الشاعر سلم لهؤلاء القوم أمرين يظن أنهما فضيلتان ، وليستا بحسب ما وصفناه من الفضائل مصيبتين ، وهما كثرة العدد وعظم الخلق ، وغزا بذلك مغازي دلت على حذقه بالشعر ، فمنها أن أدخل هجاء لهم في باب الأقوال الصادقة لإعطائه إياهم شيئاً ومنعه لهم شيئاً آخر ، وقصد بذلك لأن يظن أن قوله فيهم إنما هو على سبيل الصدق ، وذكره إياهم بما هم فيه من جيد وردئ ، ومنها ما بان من معرفته بالفضائل حتى ميز صحيحها من باطلها ، فسلم الباطلة ومنع الصحيحة ، ومنها أن قطع عن هؤلاء القوم ما يعتذر به الكرام من قلة العدد ، فإن الكرام أبداً فيهم قلة » (٢) .

وفي نفس هذا المبحث يأتي قدامة بأمثلة يرى أن الشعراء قد أفرطوا وبالغوا فيها بذكر النقائص (٣) ، ليشير بذلك إلى أن من أساليب الهجاء والسخر المبالغة في ذكر النقائص .

(١) نقد الشعر ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) المرجع السابق ٩٧ ، ٩٩ .

ويرى قدامة أن من عيوب الهجاء سلب غير الفضائل النفسية مثل أن ينسب المهجو إلى أنه قبيح الوجه ، أو صغير الحجم ، أو ضئيل الجسم أو مقتر ، أو معسر (١) ، وقد خولف في رأيه هذا (٢) .

ومن البلاغيين الذين تعرضوا لمباحث التهكم والسخرية أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) فإنه يعقد في كتابه (ديوان المعاني) (كتاباً للمبالغات في المعاتبات والهجاء والاعتذار) (٣) فيفرد للمبالغة في الهجاء فصلاً ، يكثر فيه من العبارات التي تدل على المبالغة والإفراط في الهجاء والسخر ، ويحشد الأمثلة الساخرة فيتردد كثيراً مثل قوله : « قالوا أهجى بيت . . . وأبلغ ما قيل في الاحتقار . . . ومن التناهي في الاحتقار . . . ومن الاستحقار الشديد . . . ومن أبلغ ما قيل في الهجاء . . . ومن بليغ ما جاء في الاستصغار . . . ومن الإفراط في صفة البخل . . . وأبلغ ما قيل في الهجاء باللؤم » (٤) ، ويأتي بنصوص كثيرة أمدتنا بأمثلة وافرة في هذا البحث عند الحديث عن المبالغة الساخرة وغيرها .

ويعدد أبو هلال في الصناعتين صنوفاً من فنون البديع ، فمن الأساليب التي يعددها وتأتي منها السخرية (الاستطراد) (٥) و(المبالغة) (٦) و(تجاهل العارف) (٧) ويحشد لكل ذلك الأمثلة التي كان كثيراً منها في الهجاء والسخرية .

(١) نقد الشر ١٩٢ .

(٢) انظر كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ٨٢ .

(٣) ديوان المعاني ١٥٧/١ .

(٤) المرجع السابق ١٧٠ - ١٨٥ .

(٥) الصناعتين ٤٤٨ .

(٦) المرجع السابق ٣٣٤ ، ٤٠٣ .

(٧) المرجع السابق ٤٤٥ .

كما يتناول أبو هلال في الفصل الثالث من الباب الأول في الصناعتين عند حديثه عن حدود البلاغة ، قضية تتعلق باستعمال الغريب في اللغة ، ويرى أن للكلام منازل وطبقات ينبغي أن تقسم على طبقات الناس ومنازلهم ، فإذا اختل ذلك كان مدعاة للتهكم والسخرية ؛ لأن العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك وزرى عليك ، ثم يأتي لذلك بعدة أمثلة وقصص مما اشتهر عن أبي علقمة النحوي وتكلفاته وسخرياته (١) .

ويفرد أبو هلال للتشبيه باباً ، ويذكر أنه قد عرف عند العرب تشبيهات مشهورة مستمدة من بيئتهم وحياتهم سلكوا بها طريقة معينة في المدح والذم (٢) .

ومن هؤلاء الذين تعرضوا لمباحث التهكم والسخرية أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) في كتابه (الصحاحي) حيث يعقد باباً لأحد أساليب السخرية والتهكم يسميه (باب ما يجري من كلامهم مجرى التهكم والهزاء) ويضع تحته أمثلة الاستعارة التهكمية ، أو ما يسمى (بالعكس في الكلام) (٣) .

ويعقد باباً آخر في (زيادات الأسماء) لأجل المبالغة أو التشويه والتقبيح (٤) يعدد فيه بعض الألفاظ التي استعملها العرب وزادوا في حروفها بقصد المبالغة أو التشويه والتقبيح ، ولا شك أن تشويه الاسم وتقبيحه يؤهله للسخرية حين يلقب شخص أو ينادي به .

(١) الصناعتين ٣٩ - ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ٢٦٥ .

(٣) الصحاحي ، لابن فارس ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، تحقيق السيد أحمد صقر .

(٤) المرجع السابق ١٢٢ .

ومن هذه الأسماء والألفاظ التي تكون مؤهلة لأن تستعمل استعمالاً ساخراً ما جاء في (فقه اللغة) لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) حيث عقد في كتابه فصولاً عن أسماء غريبة لبعض عيوب الجسم كالسمن والطول المفرط أو القصر الشديد (١) ومعظم هذه الأسماء التي أوردها غريبة متنافرة الحروف ، إذا لقب شخص أو نودي بها أثارت حوله الضحكات .

ومن تعرض لأسلوب السخرية والتهكم وأفرد للهجاء باباً ، ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) في كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) يذكر فيه خير الهجاء ، وأبلغه وأشد الهجاء عنده هو ما يسميه بالهجاء (المقذع) وهو الهجاء بالتفضيل ، ويذكر في هذا الباب أمثلة للون من ألوان الهجاء الساخر ، وهو (الهجاء في معرض المدح) ولكنه لا يسميه .

وتتكرر كثيراً بعض ألفاظ وعبارات السخرية في كتابه في مثل قوله « ومن الاستحقار والاستخفاف . . . ومن مליح التهكم والاستخفاف . . . ومن الاحتقار » (٢) .

ويعقد ابن رشيق (للتكرار) باباً ، ويعدده في الأساليب التي تأتي منها السخرية فيقول : « ويقع أيضاً على سبيل الازدراء والتهكم والتنقيص » (٣) ، ويقول : « ويقع التكرار في الهجاء على سبيل الشهرة ، وشدة التوضيح » (٤) ، كما يعقد (للاستطراد) باباً يعرفه ويفرق بينه وبين ما يسمى بالخروج ، ويجعل منه نوعاً يسمى (الإدماج) ويورد في هذا الباب أمثلة كثيرة للاستطراد الساخر (٥) .

(١) فقه اللغة ، للثعالبي ٤٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، تحقيق السقا والأبياري وشلبي .

(٢) انظر العمدة ٢ / ٨٤٤ - ٨٥٤ .

(٣) المرجع السابق ، ٢ / ٦٨٨ .

(٤) المرجع السابق ، ٢ / ٦٨٧ .

(٥) المرجع السابق ، ١ / ٦٢٨ - ٦٣٢ .

كما يعقد ابن رشيق باباً في أسلوب (تجاهل العارف) ويسميه (التشكك) وهو من ملح الشعر وطرف الكلام عنده ، ويرى أن الهجو والتهكم بهذا الأسلوب هو أبلغ الهجاء ، ويأتي له بالأمثلة (١) .

وعلى العموم فإن كتاب العمدة مليء بالحديث عن السخرية أساليبها وصورها وأمثلتها .

ويأتي بعد ابن رشيق ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) صاحب كتاب (سر الفصاحة) فيتحدث عن الأصوات ، والكلام في الفصاحة والألفاظ ، ويأتي بأمثلة لألفاظ غير فصيحة استعملت استعمالاً ساخراً (٢) ، ويتناول مسألة اقتباس المصطلحات العلمية وله فيها رأي وجيه ، حيث يرى أنها إنما تسوغ وتقبل إذا خرجت مخرج الهزل ولم تدخل في باب الجد (٣) .

ويأتي بعد هؤلاء إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) فيتناول في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) مسائل كثيرة متفرقة مما يتصل بأساليب السخرية ، وقد فطن إلى لون من الاستعارة الساخرة ربما لم يسبقه إليه أحد ، وهو ما أسماه بالاستعارة اللفظية ، وأشار إلى أنها تجري بين الأسماء التي تتحد أجناس مسمياتها ، كالشفة ، والمشفّر ، والاستعارة هنا كما يراها لفظية لكنها ناظرة إلى الاستعارة المعنوية ؛ لأن استعمال ألفاظ كالمشافر والأظلاف والتوالب

(١) العمدة ، ١ / ٦٧٠ ، ٢ / ٨٤٦ .

(٢) سر الفصاحة ٥٧ ، ٦٧ .

(٣) المرجع السابق ١٦٩ .

للإنسان ، قد يكون من قبيل الذم والتهكم إذا أتى بها في مواضع العيب والنقص (١).

ثم تأتي (مدرسة التلخيص وشروحه) التي تبتدئ بمؤلف (التلخيص) سراج الدين أبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) وتمتد إلى الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) وإلى بقية الشراح من بعده الذين صار همهم تعديد أبواب البلاغة ، وتحديد ها ، وسوق الأمثلة عليها ، فأخذت الأمثلة تتكرر ، والتعريفات تتناقل ، يقول أحمد موسى يصف لنا حال فن من فنون البلاغة في تلك الفترة : « فلما كانت أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، أخذ البديع - كزميليه - ينحدر رويداً رويداً إلى هاوية الإسفاف والانحطاط ، ويفقد صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الإشراق والإعجاب ، ويتعثر في قيود ضيقة قدها له المنطق والفلسفة ، حتى صار هم العلماء تعديد ألوانه والاكتفاء بتحديد ها كما تحدد الكلمات اللغوية ، وسوق الأمثلة التقليدية التي يتوارثونها لكابر عن كابر ، حتى أصبحت الكتب الكثيرة التي ألُفَت فيه بعد السكاكي كأنها كتاب واحد ، فمن وقف على أحدها غنى به عما عداه . . . وقد زاده تعثراً على مر الزمن وقوعه فريسة للشراح والمقررين الذين يرون أن الحذق والتمهر إنما يظهران في العناية بالجدل الذي لا يفيد » (٢).

لذلك فإن جل ذلك الجهد في هذه الشروح إنما هو جمع وتكرار وشروح وتقارير ، ومع هذا فلا بد من تقدير ذلك الجهد الذي قاموا به خدمة منهم للبيان العربي ، ونحاول الاستفادة من جهودهم ، لكننا نرفض أن نحمد عندها .

(١) أسرار البلاغة ٣٤ ، ٣٥ ، هـ . ريتز .

(٢) انظر الصبغ البديعي في اللغة العربية ، د. أحمد موسى ٢٤٣ .

ويأتي بعد السكاكي ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) الذي يعد كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) نموذجاً للتأليف القديمة التي مزجت بين البلاغة والنقد والأدب ، ومن أهم ما تناوله مما يتعلق بموضوعنا أسلوب (الإبهام) الذي يسميه (الموجه) ، يجعله أحد أقسام تأويل المعنى ، فتأويل المعنى عنده ثلاثة أقسام : إما أن يفهم منه شيء واحد لا يحتمل غيره ، وإما أن يفهم منه شيء وغيره ، وتلك الغيرية إما أن تكون ضدّاً ، أو لا تكون ضدّاً ، ثم يحشد لهذا الأسلوب الأمثلة من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، والشعر العربي (١) .

ويأتي بعده ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) وكتابه (تحرير التحبير) الذي يخطوبه البديع خطوات واسعة ويطفر طفرة بعيدة ، حيث وصلت فنون البديع على يديه إلى التسعين ، وأضاف إليها من مستخرجاته ثلاثين ، سلم له منها عشرون (٢) تناول منها مما يتصل بموضوعنا (الاستطراد) يعرفه ، ويرى أن غالب وقوعه في الهجاء ، ويمثل له من القرآن الكريم والشعر (٣) .

ويتناول (الهجاء في معرض المدح) فيعرفه ، ويقسمه إلى غمطين ويسوق الأمثلة لكل قسم ، ثم يفرق بينه وبين التهكم الاصطلاحي (٤) .

ويتناول ابن أبي الإصبع « الإبهام » فيعرفه ، ويسميه بهذا الاسم ، فكان أول من تخير هذه التسمية (٥) ثم يسوق له الأمثلة (٦) ، كما يتناول أسلوب

(١) المثل السائر ، ١/ ٦٤ - ٦٦ .

(٢) الصبغ البديعي ٢٧٧ .

(٣) تحرير التحبير ١٣٠ .

(٤) المرجع السابق ٥٥٠ - ٥٥٢ .

(٥) انظر شرح عقود الجمان ، ابن مرشد ، ٢/ ١٣٢ .

(٦) تحرير التحبير ٥٩٦ - ٥٩٨ .

(الهزل الذي يراد به الجد) فيعرفه ويجمع له الأمثلة (١) ، ويعقد (لتجاهل العارف) باباً ، فيعرفه ، ويقول : « وقد سماه من بعد ابن المعتز بالإعنائات » (٢) والإعنائات شيء آخر عند ابن المعتز وغيره ، وابن المعتز يسمي هذا النوع (تجاهل العارف) (٣) ثم يقسم ابن أبي الإصبع التجاهل إلى قسمين يسوق الأمثلة القرآنية والشعرية عليهما (٤) .

كما يعقد (للتهكم) باباً ، يعرفه في اللغة والاصطلاح ، ويسوق له الأمثلة من القرآن الكريم والشعر ، ويفرق بينه وبين الهزل الذي يراد به الجد (٥) .

ثم يأتي ابن الأثير الحلبي (ت ٧٣٧ هـ) صاحب كتاب (جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة) ، فيعقد باباً (للهجاء) يعرفه فيه ثم يذكر بعض المستحبات في الهجاء ، ويرى أن أشد الهجاء ماعف لفظه ، وصدق معناه ، ومن وضعه ماخرج مخرج التهكم والاستهزاء وتجاهل العارف ، ويجمع في هذا الباب أمثلة كثيرة ساخرة (٦) .

ويتناول ابن الأثير الحلبي كذلك أسلوب (الهجاء في معرض المدح) (٧)

(١) تحرير التحبير ١٣٨ .

(٢) المرجع السابق ١٣٥ .

(٣) البديع ٦٢ .

(٤) تحرير التحبير ١٣٥ - ١٣٧ .

(٥) المرجع السابق ٥٦٨ - ٥٧٠ .

(٦) جوهر الكنز ٣٠٩ .

(٧) المرجع السابق ٣٠٥ .

و(الهزل الذي يراد به الجذ)(١) و(تجاهل العارف)(٢) و (التضمين) (٣) فيعقد لكل واحد منها باباً ، ويعرف كل أسلوب ويقتصد في إيراد الأمثلة .

وأما يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩ هـ) فقد جمع في كتابه (الطراز) كثيراً من الأساليب البلاغية مما يتعلق بأسلوب التهكم والسخرية ، من ذلك حديثه عن (وضع المظهر في موضع المضمهر) حيث يفطن إلى أن ذلك قد يرد على جهة الإنكار وشدة الغضب والتهكم (٤) ، ومن ذلك أيضاً أنه قسم البديع المعنوي إلى أصناف ، فجعل للإبهام صنفاً سماه (التوجيه) فيعرفه ، ولكنه يدخل فيه تأكيد المدح بما يشبه الذم والإدماج (٥) ، ومن أصناف البديع اللفظي عنده (الهزل الذي يراد به الجذ) حيث يلحقه بتجاهل العارف ، ويرى أن بينهما تماثلاً وإن كان بينهما تفرقة ظاهرة (٦) ويعد (التهكم) في أصناف البديع المعنوي ، ويرى أنه يرد على أوجه خمسة ، وليس له ضابط يضبطه ، وإنما الجامع لشتات معانيه هو إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر (٧) .

وفي أواخر المائة الثامنة ، وأوائل التاسعة عاش علم من أعلام البديعيات واستحوذت بديعته من بينها على مكانة ممتازة في قلوب الناس ، ذلك هو ابن حجة

(١) جوهر الكثر ٢١١ .

(٢) المرجع السابق ٢٠٨ .

(٣) المرجع السابق ٢٦٢ .

(٤) الطراز ١٤٨/٢ ، ١٤٩ .

(٥) المرجع السابق ، ١٣٦/٣ - ١٣٨ .

(٦) المرجع السابق ، ٨٢/٣ .

(٧) المرجع السابق ، ١٦١/٣ - ١٦٤ .

الحموي (ت ٨٣٧ هـ) وأشهر آثاره بديعته التي سماها (تقديم أبي بكر) وشرحها الذي دعاه (خزانة الأدب وغاية الأرب) وهو مجموع أدب جيد سوى أنه وقع فيما وقع فيه غيره من رجال البديع من الخلط بين مسائل البيان ومسائل البديع (١) ويعقد ابن حجة لجل الأساليب البديعية التي تأتي منها السخرية أبواباً .

ويشيع الحديث عن السخرية والتهكم ويكثر عند المفسرين ، فنجدهم يعللون كثيراً من الأساليب بأنها ساخرة متهكمة ، أو أن المقصود منها الاستخفاف والهزء ، نجد ذلك خصوصاً عند الزمشخري (ت ٥٣٨ هـ) صاحب (تفسير الكشاف) الذي يكثر عنده التعليل بالسخرية ، فيعلل مثلاً تسمية « أبي لهب » بهذه الكنية بأنه من قبيل التهكم به (٢) ، ويعلل الإضافة في قوله تعالى : ﴿ أين شركائي ﴾ (٣) بأنه من قبيل التهكم به (٤) ، والاستفهام في قوله تعالى ﴿ قالوا يشعيب أصولك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء... ﴾ (٥) بأنه استفهام تهكم وهزء و طنز (٦) ، والأمر في قوله تعالى : ﴿ فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٧) في أمر

(١) انظر الصبغ البديعي ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ .

(٢) تفسير الكشاف ، ٢٤٠ / ٤ .

(٣) بعض الآية (٢٧) من سورة النحل .

(٤) تفسير الكشاف ، ٣٢٦ / ٢ .

(٥) الآية (٨٧) من سورة هود .

(٦) تفسير الكشاف ، ٢٢٩ / ٢ .

(٧) بعض الآية (٢٣) من سورة البقرة .

المشركين أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن المعجز بفصاحته غاية التهكم بهم (١) .

والزمخشري من أوائل من أشار إلى أسلوب (الاستعارة التهكمية) ولكنه يسميه (العكس في الكلام) يقول : « وأما ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء » (٢) ، ويقول : « والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع ، وقد جاء في كتاب الله . . » (٣) .

ونجد مثل ذلك أيضاً عند أبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت ٩٥١هـ) في تفسيره المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) من ذلك مثلاً قوله في قوله تعالى : ﴿ وقالوا يأبها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (٤) خاطبوا به رسول الله (ﷺ) لا تسليماً لذلك واعتقاداً له بل استهزاءً (٥) .

ومن المفسرين العلامة أبو الفضل السيد محمود الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) صاحب التفسير المسمى (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) فنجد أنه يعرف السخرية (٦) ، وكثيراً ما نجد عنده التعليل بالسخرية والتهكم ،

(١) تفسير الكشاف ، ٤٩/١ .

(٢) المرجع السابق ، ٥١/١ .

(٣) المرجع السابق ، ٣١٠/٢ .

(٤) الآية (٦) من سورة الحجر .

(٥) تفسير أبو السعود ، ٦٦/٥ .

(٦) تفسير روح المعاني ، ١٥٢/٢٦ .

فيقول مثلاً في قوله تعالى : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا .. ﴾ (١) ومعنى الأمر كما قيل الاستهانة (٢) ، ويشير إلى الاستعارة التهكمية في قوله تعالى : ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ (٣) يقول : « وصفوه عليه السلام بهذين الوصفين الجليلين على طريقة الاستعارة التهكمية » (٤) ، وفي قوله تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (٥) ، يقول : « أي ويقال قولوا له ذلك استهزاءً وتقريعاً على ما كان يزعمه » (٦) .

وبعد هذه الجولة القصيرة في رياض وكتب الأقدمين يتضح جلياً ما للسخرية من شيوخ وذيوع وانتشار وعناية ، وأنها أسلوب أصيل ، وإن كانت لم تفرد بكتاب إلا أنها تكاد تكون ظاهرة واسعة مبثوثة في كثير من كتب الأدب والنقد والتفسير وشروح الدواوين ، وفي معظم أبواب البلاغة بمختلف فنونها ، وهذا ما سيتضح في الفصول التالية التي نتبع فيها أسلوب السخرية وأمثله في جل أبواب البلاغة .

(١) بعض الآية (٥٠) من سورة الإسراء .

(٢) تفسير روح المعاني ، ٩١ / ١٥ .

(٣) بعض الآية (٨٧) من سورة هود .

(٤) تفسير روح المعاني ، ١١٨ / ١٢ .

(٥) بعض الآية (٤٩) من سورة الدخان .

(٦) تفسير روح المعاني ، ١٣٤ / ٢٥ .

الفصل الأول

السخرية في أساليب علم المعاني

ويشمل

- السخرية باستعمال الكلمات غير الفصيحة .
- التعريف الساخر .
- السخرية في وضع المظهر موضع المضمحل .
- الاستفهام الساخر .
- الأمر الساخر .
- النهي الساخر .
- النداء الساخر .
- التكرار الساخر .

السخرية باستعمال الكلمات غير الفصيحة

يقرر البلاغيون أن من شروط فصاحة الكلمة ، خلوصها من تنافر الحروف والغرابة .

فالتنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان ، وعسرة عند النطق بها ، كما روي أن أعرابياً سئل عن ناقتة ، فقال : تركتها ترعى الهعخع (١)

والغرابة أن تكون الكلمة وحشية غير مأنوسة عند العرب الخالص ، فلا يظهر معناها ويحتاج في معرفته إلى أن ينفر عنه في كتب اللغة المبسوبة ، كما روى عن عيسى ابن عمر النحوي أنه سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس ، فقال : مالكم تكأكم على تكأكم على ذي جنة افرقعوا عني (٢) .

(١) بغية الإيضاح ١٢/١ .

(٢) بغية الإيضاح ١٣/١ ، ١٤ .

وقيل إن من شروط الفصاحة أيضا ، خلوص الكلمة من الكراهة في السمع ، بأن تمج الكلمة ، وينفر من سماعها ، كما ينفر من سماع الأصوات المنكرة ، فإن اللفظ من قبيح الأصوات ، والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعه ، ومنها ما تكره سماعه (١) .

ويعد البلاغيون من فصاحة الكلام خلوه من تتابع الإضافات ، يقول عبدالقاهر الجرجاني عن تتابع الإضافات : « ومن شأن هذا الضرب أن يدخله الاستكراه » (٢) ، ثم ينسب عبدالقاهر قولاً إلى الصاحب ينهى فيه عن الإضافات المتداخلة ؛ لأنها لا تحسن ، وأشار إلى أنها تستعمل في الهجاء ، يقول : « قال الصاحب : إياك والإضافات المتداخلة ، فإن ذلك لا يحسن ، وذكر أنه يستعمل في الهجاء ، كقول القائل :

يا علي بن حمزة بن عمارة أنت والله ثلجة في خياره

ثم يعلق بقوله : ولا شبهة في ثقل ذلك في الأكثر ، ولكنه إذا سلم من الاستكراه لطف وملح » (٣) .

إن هذه المواضع التي ذكرناها وغيرها مما لم نذكر قد عدها البلاغيون والنقاد عيوباً تخل بالفصاحة ، وجعلوا خلو الكلام منها شرطاً لفصاحته ، ولكن هذه العيوب قد ترد في سياق ما تكتنفها أحوال وقرائن ذات دلالة معينة ، تجعلها ترقى إلى درجة البلاغة .

إن غرابة الكلمة ، وتنافر حروفها ، وثقلها على اللسان ، يولد عند النطق بها أصواتاً تنفر منها الأسماع ، وتكرهها الطباع ، والنفس البشرية مجبولة على حب

(١) بغية الإيضاح ١٦/١ .

(٢) دلائل الإعجاز ١٠٤ .

(٣) المرجع السابق ١٠٤ .

الأصوات الجميلة المتناسقة المتلائمة والكلمات المأنوسة المعروفة ، فإذا ما سمعت صوتا منكرا ، أو معنى غريبا انكمشت له قسما ت وجهك ، وانزعجت نفسك ، ونفرت عنه .

وقد يستغل الشاعر والأديب الموهوب هذه الانفعالات والمثيرات ، فيوظفها في نصوصه للوصول إلى أغراض ودلالات معينة ، ومن هذه الدلالات والأغراض ، أن يقصد الأديب من استعماله لكلمات غريبة وحشية غير مأنوسة أو ذات حروف متنافرة مستكرهة ، - أن يقصد - السخرية والتهكم بالمخاطب .

فيكون كلامه مضحكا ساخرا ؛ بسبب الألفاظ ذاتها ، إذ هي تبعث على الهزء والسخرية لغرابتها ، وتنافر حروفها ، وزينها المزعج (١) .

فبعض الشعراء لديه عبقرية في الحس اللفظي تلتئم فيها الألفاظ - من حيث هي حروف وأصوات - بالصور والمعاني الثثاما عجيبا تغري السامع بمجرد سماعه لها وقبل أن يتبين معناها بالضحك (٢) .

وفي معجمنا اللغوي كلمات استعمالها العرب للدلالة على معان معينة ، فيها معنى الذم والتقبيح ، من ذلك ما جاء في « الصاحبي » لابن فارس ، حيث عقد بابا في زيادات الأسماء ، يقول فيه : « ومن سنن العرب ، الزيادة في حروف الاسم ، ويكون ذلك إما للمبالغة ، وإما للتشويه والتقبيح [ثم يقول] سمعت من أثق به قال : تفعل العرب ذلك للتشويه ، يقولون للبعيد ما بين الطرفين المفرط الطول « طرماح » فشوه الاسم لما شوهت الصورة ، ويجيء في قياس ذلك قولهم « رعشن » للذي يرتعش ، و « خلبن » فامرأة خلبن ، وهي الخرقاء ، و « زرقم » للشديد الزرق ، و « صلدم » للناقة الصلبة ،

(١) انظر السخرية في الأدب العربي ٤٢ .

(٢) انظر الهجاء والهجاءون في العصر الجاهلي ٣٦ .

و«شدم» للواسع الشدق ، ويكون من الباب ، قولهم للكثيرة التسمع والتنظر «سمعنة» ونظرنة» (١).

فالتشويه والتقييح بهذه الزيادات يجعل هذه الأسماء مؤهلة لأن تستعمل استعمالاً ساخراً.

ويورد الثعالبي أيضاً في كتابه « فقه اللغة » أسماء لبعض العيوب الجسمية وصفات النقص الخلقية ، فيعقد فصلاً عن « السمن » مثلاً (٢) ، والسمن مثار السخرية في كثير من الأحيان ، والرجل السمين أو المرأة المكتنزة تغري بالسخرية والتهكم ، يقول الثعالبي مرتباً درجات السمن :

« رجل سَمِينٌ ، ثم لَحِيمٌ ، ثم شَحِيمٌ ، ثم بَلَنْدَحٌ ، وَعَكَّوكٌ ، وامرأة سَمِينَةٌ ، ثم رَضْرَاضَةٌ ، ثم خَدَجَةٌ ، ثم عَرَكْرَكَةٌ ، وَعَضْنَكَةٌ » .

فوصف رجل بأنه بلندح ، أو عكوك ، أو وصف امرأة بأنها رَضْرَاضَةٌ أو عضنكة ، هذه الأوصاف والألفاظ بما فيها من غرابة وكراهة في السمع ، تثير في نفوس سامعيها الضحك والسخرية .

وعقد الثعالبي أيضاً باباً في « ترتيب الطول والقصر » ، وهما من الصفات الجسمية التي إن أفرطت أثارت حولها الضحكات ، واستجلبت لصاحبها السخریات ، يقول الثعالبي :

« رجل طَوِيلٌ ، ثم طَوَالٌ ، فإذا زاد فهو شَوَذَبٌ ، وشَوَقَبٌ ، فإذا دخل في حد ما

(١) الصاحبى ١٢٢ .

(٢) فقه اللغة ، للثعالبي ٤٨ .

يذم من الطول ، فهو عَشَنَطْ وَعَشَنَقْ ، فإذا أفرط طوله وبلغ النهاية فهو شَعَلَعْ ، وَعَتَنَطْ ، وَسَقَعَطَرَى « (١) » .

أما ترتيب القصر « فرجل قصير ، ودَحْدَاخْ ، ثم حَنْبَلْ ، وَحَزَنْبَلْ ، ثم حَنْزَابْ ، وَكَهْمَشْ ، ثم بُحْخَرْ ، وَحَبْتَرْ ، فإذا كان مفرط القصر يكاد الجلوس يوازيه ، فهو حَنْشَارْ ، وَحَنْدَلْ ، فإذا كان كأن القيام لا يزيد في قده ، فهو حَنْزَقَرَة » (٢) .

معظم هذه الألفاظ في أوصاف الطول والقصر حين يكون مفرطاً ومذموماً ، السمة الغالبة والظاهرة فيها تنافر حروفها ، وكراحتها في السمع ، ثم إنها غريبة وحشية غير مأنوسة أو جارية على الألسن ، فإذا أطلق أحد هذه الألفاظ على شخص جعله عرضة للسخرية والضحك .

وقد تنبه كثير من الشعراء ذوي الحس اللغوي اليقظ والروح الساخرة الفكهة إلى ذلك ، فوظفوا هذه الألفاظ للنيل من خصومهم ومهجوئهم والسخرية منهم والعبث بهم .

فهذه الكلمات برنينها وأصواتها المتنافرة وغرابتها إذا أطلقت على شخص ، أو سمي بها أحد ، أثارت السخرية وأشاعت الضحك حوله .

ويتناول أبو هلال العسكري في « الصناعتين » قضية تتعلق باستعمال الغريب والعسر المتكلف من اللغة ، ويرى أن للكلام طبقات ومنازل ينبغي أن تقسم على طبقات الناس ومنازلهم ، فإذا اختل ذلك كان مدعاة للتهكم والسخرية ، جاء في الصناعتين : « وإذا كان موضوع الكلام يقصد به الإفهام ، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس ، فيخاطب السوقي بكلام السوق ، والبدوي بكلام البدو . . . ولا يكلم

(١) فقه اللغة ، للثعالبي ٦٣ .

(٢) المرجع السابق ٦٤ .

سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقه ؛ لأن ذلك جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام ، وأحسن الذي قال (لكل مقام مقال) . . . فلا ينبغي للإنسان أن يتكلم بفاخر الكلام ونادره ورصينه ومحكمه إلا عند من يفهمه عنه ويقبله منه ؛ لأن العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك ، وزرى عليك كما روي عن بعضهم أنه قال لبعض العامة : بم كنتم تنتقلون البارحة ؟ - يعني على النبذ فقال : بالحمالين . . ولو قال له : أي شيء كان نقلكم ؟ لسلم من سخريته . . فينبغي أن يخاطب كل فريق بما يعرفون ويتجنب ما يجهلون » (١) .

ويذكر الجاحظ مثل هذا ، فيقول : « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا ، وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا ، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى ، وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات فمن الكلام ، الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسمج والخفيف والثقيل ، وكله عربي ، وبكل قد تكلموا » (٢) .

ثم يعقد الجاحظ فصلا يجمع فيه كثيرا من كلام النوكى ، والموسوسين ، والجفافة ، والأغبياء ، وما ضارح ذلك وشاكله (٣) .

ويورد أبو هلال العسكري أمثلة كثيرة لبعض من غلب عليهم سوء الرأي ، وقلة العقل ، فيخاطبون السوقى والملوك والأعجمي ، بألفاظ أهل نجد ، ومعاني أهل السراة . من ذلك ما يرويه عن أبي علقمة ، إذ قال لحجام له : « اشدد قصب الملازم ، وأرهف ظبابة المشارط ، وأمر المسح ، واستنجل الرشع ، وخفف الوطاء ، وعجل

(١) انظر الصناعتين ٣٩ ، ٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٤ .

(٣) المرجع السابق ١/٤ .

الترع ، ولا تكرهن أييا ، ولا تمنعن أتيا . . [فأجابه الحجام ساخرًا] : ليس لي علم بالحروب « (١) .

ومن ذلك أيضا ما يرويه العسكري عن بعض الرواة ، قال : كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم إلا بالغريب ، فخرج إلى ضيعة له على حجر (أنثى الخيل) معها مهر ، فأفلتت فذهبت ومعها مهرها ، فخرج يسأل عنها . . فمر بخياط فقال : يا ذا النصاح ، وذات السم الطاعن بها في غير وغي لغير عدى ، هل رأيت الخيفانة القباء يتبعها الحاسن المسرهف ، كأن غرته القمر الأزهر ينير في خضرة كالخلب الأجرد . . فقال الخياط : اطلبها في تزلخ ! فقال : ويلك وما تقول قبحك الله فما أعلم رطانتك . . فقال : لعن الله أبغضنا لفظا وأخطأنا منطقا (٢) .

إجابة الخياط هنا على هذا المتكلف غاية في التهكم والسخرية ، فقد أورد عليه كلمة غريبة من تأليفه ليعجزه ، ويتهم به .

ومن ذلك ما يروى عن أبي علقمة أيضا ، أن رجلا نظر إليه وتحت بهغل مصري حسن المنظر ، فقال : إن كان مخبر هذا البغل كمنظره فقد كمل ، فقال أبو علقمة : والله لقد خرجت عليه من مصر فتكبت الطريق مخافة السراق وجور السلطان ، فبينما أنا أسير في ليلة ظلماء ، قتماء طخياء ، مدلهمة ، حندس ، داجية ، في صحصح أملس ، إذ أحس بنبأة من صوت نغر ، أو طيران ضوع ، ونغض سبد ، فحاص عن الطريق متنكبا لعزة نفسه وفضل قوته ، فبعثته باللجام فعسل ، وحركته بالركاب فنسل ، وانتعل الطريق يغتاله معتزما ، والتحف الليل لا يهابه مظلما ، فوالله ما شبهته إلا بظبية نافرة تحفزها فتخاء شاغية .

(١) الصناعتين ٣٧

(٢) المرجع السابق ٣٧ ، ٣٨ .

قال الرجل : ادع الله وسله أن يحشر هذا البغل معك يوم القيامة ، قال : ولم ؟ قال : ليحيزك الصراط بطفرة ! (١) .

ما أتعس أبو علقمة بهؤلاء الساخرين ، يبدءونه بالسؤال ، حتى إذا أخرج ما عنده ، سخروا منه ، وضحكوا من كلامه ، ولكن ما عليه إذا خاطبهم بما يفهمون ، وأنزل الناس على قدر منازلهم فيتنجنب الغريب والوحشي حتى يجنب السخرية والتهكم .

ومما يروى عن أبي علقمة أيضا ، أنه قال لطبيب : أجد رسيسا في أسنخي ، وأرى وجعا ما بين الواصلة إلى الأطرة من دابات العنق . . . فقال الطبيب : هي هي هذا وجع القرشي ، قال : وما يبعدنا عنهم ياعدو نفسه ، نحن من أرومة واحدة ، ونجل واحد ، قال الطبيب : كذبت ، وكلما خرج هذا الكلام من جوفك كان أهون لك ، قال : بل لك الهوان والحقارة والسباب ، اخرج عنى قبحك الله (٢) .

ويبدو أن هذا الطبيب عارف بأبي علقمة وتكلفاته ، فأراد أن يسخر منه ويتهكم به ، وإلا فما وجع القرشي ! ، وقد فطن أبو علقمة - على غفلة - لسخرية الطبيب ، ويبدو أنه لكثرة تهكم الناس به وسخريتهم من تكلفاته ، أصبح يتوجس منهم مثل تلك الإجابات الساخرة .

ويروى أنه كان له جارية ، وكان يهواها ، فقال لها : يا خريدة ، قد كنت أخالك عروبا ، فإذا أنت نوار ، مالي أمقك وتشتيني ، قالت : يارقيع ، مارأيت أحدا يحب أحداً فيشتمه (٣) .

(١) الصناعتين ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) المرجع السابق ٣٩ .

هكذا عرّض أبو علقمة نفسه لسخرية هذه الجارية بهذا التكلف ، فلو خاطبها بما تعرف لسلم من سماع ما يزيد في نكده .

ومما جاء في ذلك مما يتمثل به كثير من البلاغيين ، ما يروى عن أبي علقمة النحوي ، أنه سقط عن حماره ، فاجتمع عليه الناس ، فقال : مالكم تكأكنتم على تكأكنكم على ذي جنة ! افرنقوا عني (١) .

فالاستفهام منه إنكاري توبيخي ساخر متهم ، لقد أعاظوه بتجمهرهم حوله ، فأراد أن يسخر منهم بعد أن ضاق وضجر من هذا التجمع والتجمهر ، ومن الطبيعي أن أي شخص يكون سائرا في سوق أو طريق ، فيعثر أو يسقط أمام الناس أن يشعر بالخرج والخلج ، ويكره تجمع السفهاء والشامتين حوله ، وهذا حال صاحبنا ، فكأنني أراه منطرحا في وسط الطريق ، يحاول أن يحرك جسمه ، وقد اجتمعت حوله الرءوس ، وتعالّت من فوقه الضحكات ، فقام متحاملا على نفسه مستعينا بحماره ، يقبحها ويشتمها ؛ لأنها خذلته ، وينفض ماعلق بأطرافه من التراب ، ويصلح مااختل من هندامه ، ويصرخ في وجه الشامتين المتجمهرين حوله ، متهمكما وساخرا من سخافة عقولهم .

ويؤكد هذا الفهم الساخر المضحك ويقويه رواية الجاحظ للقصة ، حيث يقول : مر أبو علقمة النحوي ببعض طرق البصرة ، وهاجت به مرة ، فوثب عليه قوم منهم ، فأقبلوا يعضون إبهامه ، ويؤذنون في أذنه ، فأفلت منهم ، فقال : مالكم تتكأكنون علي كما تكأكنون على ذي جنة ، افرنقوا عني ، قال : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية (٢) . فالقيام كما نرى مقام سخرية وهزاء وضحك وتهكم .

(١) انظر الصناعتين ٣٧ ، وسر الفصاحة ٦٧ ، وبغية الإيضاح ١٤ / ١ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

ومن الإشارات التي تدل على أن استعمال الغريب والمتنافر ربما كان لقصد السخرية تعليق بعض البلاغيين على قول بعض الأعراب حينما سئل عن ناقتة ، فقال : تركتها ترعى الهعخع !

يعلق صاحب البغية على هذه الحادثة ، فيرى أن هذا الجواب من الأعرابي قد يكون معاياة لا أصل لها (١) ، والمعاياة هي ، أن تأتي بكلام لا يهتدى له (٢) .

ولا شك أن « الهعخع » كلمة غريبة ، وحشية متنافرة الحروف ، عسيرة على اللسان ، تكرهها الأسماع . وقد روي أن الخليل بن أحمد ، قال : سمعنا كلمة شنعاء ، وهي « الهعخع » ، وأنكرنا تأليفها ، وسئل عنها أيضا الثقات من علماء اللغة فأنكروها ، وما عرفوها (٣) .

إذن فالأغلب أنه لا أصل لها ، فلماذا أجاب بها ذلك الأعرابي على سؤال القوم ؟ لم يقصد الأعرابي إلا أن يسخر بأولئك الذين جاءوا يهرعون إليه ، يسألونه عن ناقتة ، ولأمر ما أجابهم بتلك الإجابة الساخرة ، فجعلهم في حيرة واضطراب يقلبون رءوسهم بحثا عن معنى لهذه الكلمة ، بينما هو ينام ملء جفونه .

ومن الشعراء الهجائيين من برع في استعمال هذه الكلمات الغريبة ، المتنافرة الحروف فوظفها في شعره للنيل من خصومه والسخرية بهم ، وليس كل الشعراء يتأتى له ذلك ، فيفطن إلى استعمال هذا الأسلوب ، ولكن بعضهم يرزق إلى جانب معرفته بأساليب الهجاء عبقرية في الحس اللفظي تلتئم فيها الألفاظ - من حيث هي حروف تتوالى - بالصورة التثاما عجيبا .

(١) انظر بغية الإيضاح ١٢/١ .

(٢) القاموس المحيط (عَيَّ) .

(٣) سر الفصاحة ٥٧ .

ومن أكثر الشعراء براعة في هذا المضمار جرير بن عطية ، فهجاؤه « يستفز القارئ للضحك قبل أن يروي في معناه ويحقق » (١) .

وكثيرا ما كان جرير يستعمل الألفاظ التي تدل على الهزء والسخرية ، لغرابتها وموسيقاها ، فكثرت في هجائه الكلمات الغريبة المتنافرة الحروف ، مثل : «جوخى» و«خجخج» ، و«النخوار» ، و«الجيثلوط» ، و«خضاف» و«خيضف» ، و«قذام» ، و«رقبان» و«صوطر» ، و«رغوان» ، و«الجلوبق» .

ونلاحظ ما تشيعه هذه الألفاظ بموسيقاها ورنينها وغرابتها من إحساس بالهزء والتهمك (٢) .

فمن شعره الذي يهجو به الفرزدق ، قوله : (٣)

عُدُّوْ خَضَافٍ ، إِذَا الْفَحُولُ تُنْجَبَتْ وَالْجَيْثُلُوطُ ، وَنَخْبَةً خَوَّارَا
وَإِذَا فَخَرَتْ بِأَمْهَاتٍ مُجَاشِعٍ فَافْخَرْ بِقَبْقَبٍ ، وَاذْكُرِ النَّخَوَّارَا

معظم ألفاظ هذه الأبيات تبعث على السخرية بمجرد سماعها وقبل تبين معناها ، وتستعجل السامع بالضحك وإن لم يفهم ماتضمنت ، كلمات غريبة متنافرة الحروف كرية في السمع ، فإذا ذهب المرء يفتش عن معناها وجد مايزيد في ضحكه وعجبه : خضاف ، الجيثلوط ، قبقب ، النخوار .

وانظر إلى قوله : (٤)

بئس الفوارس يا نَوَّار ، مُجَاشِعُ نَخُورٍ إِذَا أَكَلُوا خَزِيرًا ، ضَفَدَعُورَا

(١) الهجاء والهجاءون في العصر الجاهلي ٣٦ .

(٢) انظر السخرية في الأدب العربي ٩٢ .

(٣) ديوان جرير ، بتحقيق د. نعمان طه ٥١٨/١ ، ٥١٩ .

(٤) المرجع السابق ٩١٧/٢ .

وتأمل كلمة « ضفدعوا » واملاً فمك بالضحك .

ويقول أيضاً : (١)

فإن مجاشعا فتعرفوهم بنو جوخي ، وخجج ، والقدام

ما جوخي ، وخجج ، والقدام ! إنه حشد لهذا الغريب المجهول ينسب إليه أبوة مجاشع هزءا وسخرية بهم .

وجرير يختار للأخطل لقباً عجيباً يدل على ما يملكه هذا الشاعر من حس موسيقي في اختيار ما يضحك ، فهو يلقب الأخطل بـ (دابل) ، وذلك لأنه كان نصرانيا يأكل الخنزير ، ثم يجعل ذلك اسماً له يناديه به ، ويكرره في أبياته هازئاً وساخرًا منه ، يقول : (٢)

بكي دابل لا يرقئ الله دمعته ألا إنما يكي من الذل دابل

ومن ذلك قول ابن الرومي (٣) :

أَصْلَحُ يُكْنَى بِأَبِي الْجَلَّحَتِ
حَبَلٌ كَالْمَاعِزِ الْكَلَوْنَتِ
ذُو هَامَةٍ مِثْلِ الصَّفَاةِ الْمَرْتِ
تَنْصَبُ فِي مَهْوَى جَبِينِ صَلَتِ
تَبْرُقُ بِاللَّيْلِ بَرِيقَ الطُّسْتِ
صَبَّحَهَا اللَّهُ بِقَفْدِ سَخَتِ
تَعْرِفُهُ الْأَبْطَاطُ بِالْبَذْنَقَتِ

(١) ديوان جرير ، بتحقيق د. نعمان طه ٢٠٦/١ .

(٢) المرجع السابق ١٤١/١ .

(٣) ديوان ابن الرومي ، شرح وتحقيق عبدالأمير مهنا ٤٤٢/١ .

وفارس الأحرار بالبدنخت
 معبّس الوجه طويل السكت
 كأنما عضّ على جلفت
 أثقل من طلعة يوم السبت
 على ابن كُتاب بليد هبت
 مذبذب بين الجهات الست
 ابن كبت ، وأخ كاخت

افتن ابن الرومي في حشد هذا الكم من الكلمات الغريبة العجيبة ، فلا يكاد يخلو بيت من كلمة غريبة أو كلمتين ، جمع فيها بين العربي والمعرّب ، في إيقاع خفيف سريع ، راقص ساخر ، على مافي تلك الألفاظ من تنافر في الحروف ، وصعوبة في النطق ، لكنها حينما تلامس الأسماع تبعث على العجب والضحك ، كلمات توحى بالهزء والاستخفاف بأصواتها المتنافرة ، من قبل أن تفتش عن معانيها : الجلحت ، حبلق ، الكلوخت ،

ومما سبق يتضح أن الغرابة وتنافر حروف الكلمات ، وإن كان البلاغيون قد عدوها من عيوب الكلام إلا أنها يمكن أن تكون أحد الأساليب العالية ، وذلك إذا وردت في سياق التهكم والسخرية .

التعريف الساخر

يأتي المسند إليه نكرة ويأتي معرفه ولكل منهما مقام يستدعيه وسياق يقتضيه ، وكل منهما له مقامات لا تليق بالآخر (١) « والمعرفة ما دلت على شيء بعينه » (٢) ، وهي ست : المضمرة والأعلام ، وأسماء الإشارة ، والاسم الموصول ، ثم المعرف باللام ، ثم المضاف إلى واحد من هذه . « وهذه المعارف يتعلق بكل واحد منها معان دقيقة متعلقة بأسرار البلاغة » (٣) .

والمسند إليه محكوم عليه ، والأصل فيه أن يكون معينا ، إذ الحكم على المجهول لا يفيد إفادة تامة ، وكما لا تعيينه بالتعريف ، كما أن وراء هذا التعريف أغراض بلاغية تؤكد المعنى وتقويه فإذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه فأتي به معرفا كانت الفائدة أتم . يقول محمد علي الجرجاني ، مجملا فائدة تعريف المسند إليه : « إن المعرفة أخص من النكرة وكلما كانت أخص كلما كانت أتم دلالة على المراد ، لكونه أقل احتمالا لغير المراد من النكرة » (٤) .

فهذا هو الغرض العام من تعريف المسند إليه وهو إفادة المتكلم المخاطب الحكم إفادة تامة ثم إن لكل من أنواع التعريف أغراضا وأسارا .

ومن هذه الأغراض والنكات البلاغية - التي تعد ظاهرة قوية في التعريف - قصد المتكلم من تعريف المسند إليه إيقاع التهكم والسخرية بالشخص المعين ، إما بإهانتة

(١) البرهان في علوم القرآن ٨٧/٤ .

(٢) الطراز ١١/٢ .

(٣) انظر المرجع السابق ١٢/٢ .

(٤) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق د. عبد القادر حسين

وتحقيره ، أو رميه بالبلادة ، والغفلة ، والغباوة ، والخساسة ، وضعة المنزلة ، أو أنه ذلك البعيد أو القريب المحتقر المهان فيجعل البعد ذريعة للإهانة ، والقرب كذلك .

فإذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بأحد أنواع المعارف كالعلمية ، أو الموصولية ، أو الإشارة ، أو الإضافة ، فإنه ربما يقصد بهذا التعريف السخرية والتهكم ، وحيث إن التعريف تخصيص وتعيين وتقوية للمعنى فإن السخرية هنا تكون واضحة قوية جليلة .

أولاً : التعريف بالعلمية .

إذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بالعلمية ، فإنه يعرف لأغراض ومعان عديدة ، ومن هذه الأغراض قصد الإهانة ، وذلك إذا كان العلم صالحاً لمذمة أو إهانة ، سواء كان اسماً أو كنية أو لقباً .

وذلك إذا كان العلم اسماً قبيحاً مذموماً ، أو منقولاً عن معنى خسيس ، ككلب ، وخنزير ونحوهما ، أو أن مسماه اشتهر بصفة مذمومة ، كبعض الأسماء التي اشتهرت بصفات مذمومة كمدار ، اسم شخص ، وتيم وباهلة اسمي قبيلتين ، أو كان كنية أو لقباً مشعراً بالذم ، كما في قوله تعالى : «تبت يدا أبي لهب وتب» (١) ، وهو ليس من باب المسند إليه ؛ لأن المسند إليه في الآية «يدا» يقول أحمد بدوي : «وفي اختيار هذه الكنية من الذم ما ليس في الاسم ، وهذا هو السر في اختيارها» (٢) ونحن نعلم أن اسم أبي لهب هو عبد العزى ، ولكن العدول عن ذكر هذا الاسم إلى ذكر الكنية فيه كما يرى الزمخشري وغيره ثلاثة أوجه ، كلها مشعرة بالذم والإهانة «ذلك أن هذه الكنية وافقت حاله ، إذ أن ماله إلى نار ذات لهب ، كما يقال للشير «أبو الشر» أو أنه أريد

(١) الآية (١) من سورة المسد .

(٢) من بلاغة القرآن ، د. أحمد بدوي ١٣٤ .

تشهيره بدعوة السوء ، وأن تبقى سمة له ، وقيل كني بذلك لتلهب وجنتيه وتوقدهما» (١) فيجوز أن يذكر بذلك تهكما به وبافتخاره بذلك « وقد يكون المقصود بإيراد المسند إليه علما إهانة غير المسند إليه كقولهم : أبو الجهل رفيقك ، فإن في إيراده علما إهانة للمخاطب المضاف للمسند لصلته به وارتباطه معه (٢) .

وإذا كان العلم لقباً فربما كان صالحاً للذم أو الإهانة والمناداة بالألقاب من أقدم أساليب السخرية ، ولما كان لها وقع على النفوس وقوة في التأثير ، فقد خصها الله بالذكر والتعيين بعد أن نهى عن السخرية عموماً ، يقول عز وجل مخاطباً عباده المؤمنين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : « ولا تنابزوا بالألقاب » أي لا يدع بعضكم بعضاً باللقب ، ويقال نبزه لقبه ، وخص عرفاً بما يكرهه الشخص من الألقاب (٤) . وجاء في القاموس «التنابز : التعاير ، والتداعي بالألقاب» (٥) .

واللقب في حقيقته اسم لقب به شخص لقصد مدحه أو ذمه ، فإذا كان هذا اللقب مشعراً بالإهانة والذم فإن مناداة الشخص به يعد من قبيل التهكم به والسخرية منه .

ومن ذلك سخرية الكفار وهزئهم من أبي بكر رضي الله عنه زمن الردة حيث كانوا يلقبونه (بأبي الفصيل) ، وربما استعملت بعض أسماء حيوانات ذات أشكال أو

(١) انظر تفسير الكشاف ٤/ ٢٤٠ ، ٢٤١ ، وشرح المطول ، للسيالكوتي ١٤٠ تصحيح الطرنوي .

(٢) انظر حاشية الدسوقي على شرح السعد ١/ ٢٩٨ . ط ضمن شروح التلخيص .

(٣) الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٤) انظر روح المعاني ٢٦/ ١٥٤ .

(٥) القاموس المحيط (النَّبَز) .

صفات معينة ، ألقاباً تطلق على من شاركوا أو شابهوا هذه الحيوانات في أوصاف معينة ، كالشكل ونحوه ، كقولهم للسمين « يادرفيل » ، فيصبح هذا اللقب إذا أطلق عرف به ذلك الشخص ، وكذلك استعمال الصفات المعكوسة ، وهي عكس ما يتصف به الشخص حقيقة ، كتلقب السمين المكنة بالغرزال الرشيق ونحوه ، وكذلك استعمال أسماء الرذائل ، وإضافتها إلى من يدعون التمسك بأهداب الفضيلة (١) .

ومن أكثر من الشعراء الساخرين من استعمال هذا الأسلوب ، الشاعر الأموي جرير بن عطية ، حيث كان يمتلك خيالا خصبا ، وحسا ساخرا جعلاه « من أخطر الساخرين في إطلاق الألقاب على خصومه ، يكررها في شعره ، ويفتن في عرضها حتى تصبح عند الناس حقيقة مؤكدة فهو يلقب الأخطل بـ « دوبل » ؛ لأنه كان نصرانيا يأكل الخنزير » (٢) يقول : (٣)

بكى دَوْبِل ، لا يُرْقَى الله دمعهُ ألا إنما يكي من الذل دَوْبِلُ
ويلقب بني نمير « بالتبوس » : (٤)

فصبراً يا تَبُوسَ بني نميرٍ فإنَّ الحربَ موقدة شهابا
ويسمى الفرزدق « القرد » لقصره ودمامة وجهه : (٥)

إن الرزية لا رزيةً مثلها قردٌ يعال نفسه بالباطل
ويلقبه أحيانا « بالقرد الأصلع » لجمعه الصلع إلى القصر والدمامة : (٦)
ولقد صَكَّكَتْ بني الفَدَوْكَسِ صَكَّةً فَلَقُّوا كما لَقِيَ القُرَيْدُ الأَصْلَعُ

(١) انظر السخرية في الأدب العربي ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) انظر الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ، د. محمد حسين ص ١٩٧ .

(٣) ديوان جرير ١/١٤١

(٤) المرجع السابق ٢/٨٢١ .

(٥) المرجع السابق ٢/٧٨٣ .

(٦) المرجع السابق ٢/٩١٢ .

ثانياً - التعريف بالإشارة

يقول الجاحظ : « ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت » (١) ، فالمتكلم يحتاج إلى أن يشير أحياناً كي يفهم ، فيرفع ويخفض ويبسط ويقبض ، فيبلغ بذلك إلى التعبير عن معان عديدة لم تكن لتتضح لولا هذه الإشارات .

ويقول : « وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من الدل ، والشكل ، والتقتل ، والتثني ، واستدعاء الشهوة ، وغير ذلك من الأمور » (٢) .

ومتى ما اقتضى المقام الإشارة فجاءت في موضعها ، كانت عوناً للفظ في التعبير عن المعاني المرادة .

وتكون الإشارة « باليد وبالرأس ، وبالعين ، وبالحاجب ، والمنكب ، وبالثوب ، وبالسيف ، وقد يتهدد رافعا السيف والسوط ، فيكون ذلك زاجراً ومانعاً رادعاً ، ويكون وعيداً وتحذيراً ، والإشارة واللفظ شريكان » (٣) .

وقد يقصد بهذه الإشارات الحسية السخرية من شخص وإضحاك الناس عليه ، وذلك عن طريق محاكاته في حركاته وإشاراته ، أو محاكاته في مشيته ، أو طريقة أكله ، أو كلامه ويحاول الساخر المقلد أن « ينقل شخصية المقلد برمتها ، ويجعلها رداءً له يلبسه ويتماكن به كيفما يشاء ، فكأنما هو يمسخه بمبالغته في إظهار عيوبه وتكبيرها » (٤) .

وتكون الإشارة هنا أبلغ في دلالتها على السخرية من لو أخذ الساخر يعدد معائب الرجل ويفندها ، يقول الجاحظ في ذلك : « والإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تغني عن الخط » (٥) .

(١) البيان والتبيين ١ / ٧٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ١ / ٧٧ .

(٤) انظر السخرية في الأدب العربي ٣٧ .

(٥) البيان والتبيين ١ / ٧٨ .

ونقل الألويسي في تفسيره عن القرطبي تعريفه للسخرية ، بأنها التنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه ، وأنها قد تكون بالمحاكات بالفعل ، أو القول ، أو الإشارة أو الإيماء ، أو الضحك على كلام المسخور منه إذا تخطت فيه أو غلط ، أو على صنعه ، أو قبح صورته (١) .

ولفرط تأثير الإشارة الساخرة ، ووقعها على النفوس ، نهى الله عنها في كتابه الكريم ونص عليها صراحة حينما نهى المؤمنين عن السخرية ، قال تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ (٢)

أي لا يعيب بعضكم بعضاً بقول ، أو إشارة ، جاء في القاموس : « اللمز : العيب والإشارة بالعين ونحوها ، والهمزة : العيب للناس » (٣) ، واللمز هو التنبيه على المعاييب أو تتبعها ، وهو خاص بما كان من السخرية على وجه الخفية كالإشارة ونحوها (٤) .

هذا عن دلالة الإشارة الحسية على التهكم والسخرية ، أما الإشارة اللفظية فإنها وإن كانت لفظاً إلا أنها أيضاً تتضمن إحضار المشار إليه وتعيينه حساً ، فتكون هذه الإشارة معلومة ومتخيلة وحاضرة في ذهن السامع .

ينبه السكاكي على ذلك بقوله : « وأما الحالة التي تقتضي كون المسند إليه اسم إشارة فهي متى صح إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حساً ، واتصل بذلك داع » (٥) .

(١) روح المعاني ١٥٢/٢٦ .

(٢) بعض الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٣) القاموس المحيط (لمز) .

(٤) روح المعاني ١٥٣/٢٦ .

(٥) مفتاح العلوم ١٨٣ .

ويرد المسند إليه اسم إشارة لأغراض بلاغية عدة ، منها قصد التهكم والسخرية من المشار إليه وإلحاق الهوان والحقارة به ، أو رميه بصفات النقص والبلادة والغباوة .

فمن ذلك قصد المتكلم إلى أن السامع غبي لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس ، فيشير إليه ويعينه ويمثله أمامه محسوسا ، وكأنه يقول له : إنك بلغت من الغباوة درجة لا تفهم معها إلا إذا أحضرت لك صورة الشيء ومثلت أمامك تمثيلا ، فأنت ممن لا يفهم بالتلميح بل لابد معه من التصريح ، ومن ذلك قول الفرزدق يفخر على جرير بأبائه : (١)

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

والتعريض بالغباوة ناشئ من استعمال اسم الإشارة في آبائه وهم غائبون لموتهم (٢) ، وجرير من أعلم الناس بأبائه الفرزدق ، والفرزدق يعلم أن جريرا يعلم ذلك ، إلا أنه لما كان في مقام الفخر بنفسه والاعتداد بأبائه ، وفي مقام الهجاء والسخرية من خصمه أراد أن يظهر خصمه في مظهر الغبي ، ويشعره بذلك متعاليا عليه مدلا برفعة آبائه ، فهو ينظر إليه ويخاطبه من ذلك البرج العالي الذي صنعه له أبأؤه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ (٣) .

بعد أن ذكر الله خلق السموات والأرض والجبال ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الزرع بعد أن ذكر هذه النعم العظيمة الظاهرة توجه بالخطاب إلى المشركين بالإشارة إلى هذه المخلوقات ليحضرها أمامهم ؛ رميا لهم بالغباوة والبلادة والغفلة ، فهم لا يميزون الأشياء إلا بالإشارة ، ولو كانوا غير ذلك لميزوا بين من هذا الخلق العظيم بعض

(١) ديوان الفرزدق ٤١٨/١ .

(٢) بغية الإيضاح ٩١/١ .

(٣) الآية (١١) من سورة لقمان .

صنعه وبين من يدعون من دونه ممن زعموا من الشركاء ، وهذا الخطاب خطاب تبكيت كما يقول الزمخشري (١) .

ومن أغراض مجيء المسند إليه معرفا باسم الإشارة ، بيان حاله في القرب ، أو البعد ، أو التوسط ، كقولك : هذا زيد ، وذلك عمرو ، وذلك بشر .

ثم يذكر البلاغيون أن هذه الأبعاد الحسية المكانية ربما استخدمت للدلالة على معان شعورية ، وذلك لأسرار بلاغية معروفة ، وأغراض بيانية مقصودة ، من ذلك قصد التحقير والسخرية فيعرف المسند إليه بالإشارة للقريب تنزيلا لدنو منزلته وانحطاط مرتبته منزلة قرب المسافة ، وقد يكون مع التحقير السخرية والتهكم ، فالمقام يحتمله بل ويقتضيه في كثير من الأحوال وذلك بحسب دلالة السياق ، وقرائن الأحوال ، ولننظر في هذه الأمثلة :

يقول الله سبحانه وتعالى ، يحكى مقالة الكافرين وهزمهم بالنبي ﷺ : ﴿ وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذي يذكركم ﴾ (٢) .

وفي موضع آخر : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا ﴾ (٣) .

وكان في اسم الإشارة للقريب في الموضعين ما يشير إلى أن هذا الشخص القريب منا والذي نعلم من أموره وخفاياه ما نعلم ، ليس أهلا بأن ينال هذه المنزلة ، فلو أن الله حقا أراد أن يبعث رسولا لما كان هذا أحق بها ، فلو أنزل هذا القرآن على رجل من

(١) انظر تفسير الكشاف ٢١١/٣ .

(٢) الآية (٣٦) من سورة الأنبياء .

(٣) الآية (٤١) من سورة الفرقان .

القريتين عظيم ، أما هذا فإنه ليس أهلا لها ، وفي الآيتين تصريح واضح أن المقالة هنا مقالة هازئ ساخر ، واشترك في الدلالة على هذه السخرية ذلك الاستفهام التهكمي ، وتلك الإشارة الساخرة ، ولا ريب أن عناصر وأطراف كثيرة تشترك في الدلالة على معاني السياق .

ومن التعريف باسم الإشارة الذي وضع للقريب لقصد التحقير والتهكم ، وهو من غير باب المسند إليه ، من ذلك قول الهذلول بن كعب العنبري على لسان زوجته حينما رآته يطحن بالرحى لأضيافه ، والطحن من عمل النساء والإماء ، فأنكرت عليه وسخرت من حاله ، فضربت صدرها وقالت : أبعلي هذا ! « وفي الإشارة بالقريب إليه معنى الاستخفاف » (١) ، يقول الهذلول(*) : (٢)

تَقُولُ وَدَقَّتْ صَدْرَهَا يَمِينَهَا : أَبْعَلِي هَذَا ، بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ

فرد عليها بقوله : (٣)

فَقُلْتُ لَهَا لَا تَعْجَلِي وَتَيَّنِي فَعَالِي إِذَا تَفَتَّ عَلَيَّ الْفَوَارِسُ

لَعَمْرُ أَيْكَ الْخَيْرِ ، إِنِّي لَخَادِمٌ لَضِيفِي ، وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لِفَارِسُ

ومما يزيد المعنى وضوحا تصويره لحركتها ودهشتها حين رآته على تلك الحالة ، فدقت نحرها يمينها ، ثم ذلك الاستفهام الذي فيه معنى التوبيخ والاستبعاد ، وأخيرا تصويرها للحالة المضحكة التي رأت زوجها عليها ، فهو مشمر اليدين ، مجموع الثياب ، منكبا على الرحا ؛ بحيث برز صدره إلى الأمام ، وتأخرت أردافه إلى الخلف ، وهو

(١) خصائص التراكيب أبو موسى ١٥٥ .

(*) الهذلول بن كعب العنبري شاعر من أعيان العرب في الجاهلية . شرح ديوان الحماسة للتبريزي

١١٦/٢ ، الأعلام ٧٩/٨ .

(٢) الحماسة ٣٥٣/١ .

(٣) المرجع السابق .

غارق في عمله ، « والقعس ضد الحذب ، وهو خروج الصدر ودخول الظهر » (١) وهذه الصورة الوضيعة لا تصلح للرجال .

وكما جعل القرب المكاني ذريعة للتحقير والسخرية ، فإن البعد يمكن أن يكون ذريعة لذلك أيضا ، كما يقال : « ذلك اللعين فعل كذا » تنزيلاً لبعده عن ساحة الحضور والخطاب وسفالة محله ، منزلة بعد المسافة ، فيعرف بالإشارة التي وضعت للبعد للدلالة على معنى التحقير ، بقصد التهكم والسخرية (٢) .

ومن أغراض تعريف المسند إليه باسم الإشارة ، قصد التهكم والسخرية ، كقول من يهزأ بأعمى : هذا الهلال في السماء ! (٣) .

مع أنه يعلم أن المخاطب أعمى لا يبصر ، فخطابه بالإشارة التي تفيد إحضار المشار إليه ماثلاً للعيان ليس سوى خطاب سخرية واستهزاء .

ثالثاً - التعريف بالإضافة ،

الإضافة هي أخصر طريق إلى إحضار المسند إليه في ذهن السامع ، وذلك متى لم يكن للمتكلم سبيل إلى إحضار المسند إليه في ذهن السامع سوى الإضافة (٤) .

(١) القاموس المحيط « قَعَس » .

(٢) انظر حاشية السيد على المطول ، السيد الشريف الجرجاني ٤٥ .

(٣) علوم البلاغة ١٠٧ .

(٤) مفتاح العلوم ١٨٦ .

ولتعريف المسند إليه بالإضافة معان أخرى ، وأغراض شتى تفهم من السياق ، فمن هذه المعاني أن تتضمن بالإضافة الاستهزاء والتهكم ، نحو قوله تعالى على لسان فرعون يجادل موسى عليه السلام ، ويسخر منه ويتهم به ، ويرميه بالجنون ، يقول عز وجل : ﴿ قال فرعون وما رب العلمين ، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون ، قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم مجنون ﴾ (١) .

فبعد هذه المجادلة ، وبعد ذلك التصعيد والانفعال من جانب فرعون ، وبعد أن أفحم لجأ كعادة المفحمين إلى إغلاق باب الحوار والتحول إلى السخرية ، والتهكم ، والتهجم ، والرمي بالتهم ، وادعاء الرفعة ، فسمى موسى رسولا بطريق الاستهزاء والسخرية ، وأضافه إلى مخاطبيه ترفعا وتعظيما لنفسه ، وتحقيرا لخصمه من أن يكون مرسلا إليه ، وأكد ذلك بالوصف ، وفيه إثارة لغضب المخاطبين وتهيجا لهم ، واستدعاء لإنكارهم رسالته ، كيلا يتأثروا بصدق موسى ، ويرفعوا بأنفسهم عن أن يكونوا أهلا لأن يرسل إليهم مجنون (٢) .

والإضافة قد تفيد التحقير والاستهزاء بالمضاف ، كقولك : أبو الخائن حضر ، إذا قصدت التشهير به على الملأ والسخرية منه ، وقد يقصد بها التحقير والاستهزاء بالمضاف إليه كقولك : أخو إبراهيم لص ، وقول الشاعر يسخر من مهجوه : (٣)

(١) الآيات (٢٣ - ٢٧) من سورة الشعراء .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢٣٩/٦ ، وروح المعاني ٧٢/١٩ ، وتفسير التحرير والتنوير ١١٩/١٩ ، ١٢٠ .

(٣) شرح ديوان جميل ٥٥ قدم له إبراهيم جزيني .

أبوك حباب سارق الضيف برده وجدي يا حجاج فارس شمرا

فالإضافة في (سارق الضيف) أفادت التحقير والتهكم بأبي المخاطب الذي هو (حباب) .
وقد يقصد التحقير والاستهزاء بغير المضاف والمضاف إليه كقولك : (ولد اللص صاحب زيد) ففي الإضافة إهانة لزيد لأن ابن اللص من أصحابه .

وقد تفيد الإضافة توبيخ المخاطب والاستهزاء به (١) كما في قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ، قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ثم يوم القيمة يخزيهم ويقول أين شركاءي الذين كنتم تشلقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾ (٢) .

يضحك المشركون من النبي ﷺ ويسخرون من الوحي ، فيقول بعضهم لبعض ، ساخرين ومتهكمين « ماذا أنزل ربكم ! » ويجيبون أنفسهم ساخرين « أساطير الأولين » كما قال فرعون من قبل : « إن رسولكم » بالإضافة ، فيرد الحق سبحانه وتعالى على سخريتهم هذه بذكر ستنه في المستكبرين الساخرين ، فإنه يحصى أوزارهم ، بل ويزيد عليها من أوزار أولئك الأتباع الذين كانوا سببا في ضلالهم ، وأن ذلك المكر الذي يكرونه ، وتلك الأقاويل التي يفترونها ويتفكهاون بها ، سيكون كل ذلك وبالا عليهم في الدنيا ، وسيرد عليهم في الآخرة عذابا وخزيا وسخرية فيقول لهم الحق متهمكما وموبخا وفاضحا : « أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم » ويردد على مسامعهم مقولتهم الآفكة ، ويضيف لفظ الشركاء إليه تعالى حكاية لما كانوا يقولونه في الدنيا ، توبيخا لهم ، واستهزاء بهم ، ولا يخفى ما في هذه الإضافة من زيادة في توبيخهم والتهكم بهم ليست

(١) انظر تفسير الكشاف ٣٢٧ / ٢ .

(٢) الآيات (٢٤ - ٢٧) من سورة النحل .

في أين أصنامكم مثلاً لو قيل ، وفي ذلك خزي وإهانة بالقول ، وسبقه الخزي الفعلي بالتعذيب بالنار ، فجمع لهم بين الخزين القولي والفعلي ، فعذاب الفعل يكون للبدن ، وعذاب القول يكون للنفس (١) .

ومثله قوله تعالى : «ويوم يقول نادوا شركاءى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا» (٢) .

رابعا - التعريف بالوصولية :

يقول عبدالقاهر في بيان أهمية الصلة وما فيها من أسرار : « اعلم أن لك في (الذي) علما كثيرا ، وأسرارا جمة ، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس وتثلج الصدر ، بما يفضي بك إليه من يقين ، ويؤديه إليك من حسن التبيين» (٣) .

وصلة الموصول ينبغي أن تكون معلومة عند السامع ؛ لأنها معرفة ولا يعرف بالمجهول فإنك إذا أردت أن تصل (الذي) بجملة من الكلام لا تصله إلا بجملة قد سبق للسامع علم بها وأمر قد عرفه ، نحو أن تجد عنده رجلاً ينشده شعراً فتقول له من غد : ما فعل الرجل الذي كان عندك بالأمس ينشدك الشعر ؟

ولكن (الذي) قد يأتي خبراً فتكون الجملة التي بعده غير معلومة للسامع علماً تاماً بل قد يكون علمه بها على الجملة كأن تقول : « هذا الذي قدم رسولاً البارحة » .

والحالة التي تقتضي كون المسند إليه موصولاً « هي متى صح إحضاره في ذهن السامع بواسطة ذكر جملة معلومة الانتساب إلى مشار إليه واتصل بإحضاره بهذا الوجه

(١) انظر تفسير الكشاف ٢/٣٢٦ ، ٣٢٧ ، وأبي السعود ٥/١٠٧ ، ١٠٨ ، وروح المعاني ١٢٢/١٤ - ١٢٧ .

(٢) الآية (٥٢) من سورة الكهف .

(٣) دلائل الإعجاز ١٩٩ .

غرض « (١) ، والأغراض التي تتصل بإحضار المسند إليه على ذلك الوجه كثيرة يدل عليها السياق .

ومن هذه الأغراض قصد التهكم والسخرية كما في قوله تعالى : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » (٢) .

نادوه بهذا الوصف تشهيرا به ، فهم لم يسلموا أو يعتقدوا ذلك بل استهزاء به عليه السلام ، وإشعارا بعلّة حكم الباطل ، وتقديماً وتبريراً للتهمة التي سيرمونه بها ، واختيار الموصولية لما في الصلة من المعنى الذي جعلوه سبب التهكم وهو قولهم بنزول الوحي عليه ، وقرينة التهكم قولهم « إنك لمجنون » ولقد أرادوا الاستهزاء بوصفه ، فأنطقهم الله بالحق فيه صرفاً لألسنتهم عن الشتم ، وصيانة لعرض نبيه عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا إسناد الصلة إلى الموصول بحسب ما يدعيه صاحب اسم الموصول لا بحسب اعتقاد المتكلم على طريقة التهكم (٣) .

ومن الأغراض التي تتصل بتعريف المسند إليه بالموصول ، قصد الإيحاء إلى وجه بناء الخبر ، أي طريق بنائه ، كما تقول ، عملت هذا العمل على وجه عملك وعلى جهته ، أي على طرزه ، وعلى طريقته ، يعنى أن تأتي بالموصول والصلة للإشارة إلى أن بناء الخبر عليه من أي وجه وأي طريق من الثواب ، والعقاب ، والمدح ، والذم ، وغير ذلك من المعاني التي تفهم من السياق ، فالتكلم قد يقصد إلى أن يقدم للسامع ما يشعره بنوع الخبر قبل مجيئه ، فيعمد إلى تعريف المسند إليه بالموصولية ، لتحصل له تلك الإشارة إلى نوع الخبر ومضمونه ، وذلك لما يكون في الصلة مما يشعر بذلك . ثم إن هذا الإيحاء ربما جعل ذريعة ووسيلة إلى الإهانة لشأن الخبر ، نحو قولك تعريضا بإهانة شخص وسخرية من تصديه لما لا يحسن تقول : إن الذي لا يحسن الحديث

(١) مفتاح العلوم ١٨١ .

(٢) الآية (٦) من سورة الحجر .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٦٦/٥ ، ٦٧ ، والتحرير والتنوير ١٦/١٤ .

ألقى خطبة والذي لا يتذوق الجمال ألف في البلاغة ، والذي لا يعرف الفقه قد صنف فيه (١) .

فإن قولك : إن الذي لا يحسن الحديث ، يشد السامع إليك ، ويومئ إليه بالخبر الذي سيأتي ، ولكنك لم تقصد مجرد الإيماء فقط ، بل قصدت إلى أن تثير اهتمام السامع ، وتشد انتباهه إلى أن من اتصف بصفة النقص هذه تصدى لما لا يحسن ، فأعرضت عن تسمية الشخص باسمه بل وصفته بصفة ذم ونقص ، فهو عندك الذي لا يحسن فقط ، فليس له اسم أو صفة أخرى إن الإيماء والإشارة هنا جعلت وسيلة إلى الإهانة والسخرية بمن اتصف بهذه الصفة ، والسياقات وقرائن الأحوال هي التي تظهر هذه المعاني وتحددها .

(١) انظر المطول ٧٥ - ٧٧ .

السفرية في وضع المظهر موضع المضم

إن ظاهرة وضع الاسم الظاهر موضع الضمير وإن كانت تبدو مسألة نحوية إلا أن وراءها أسراراً بلاغية جمّة ، وللمسألة جانبان أحدهما يتعلق بالإعراب ، والآخر يتعلق بالمعاني .

وقد نبه إلى ذلك العلوي حينما تناول المسائل التي تتعلق بالإضمار ، فقال : «المسألة الخامسة وهي الإظهار في موضع الإضمار : واعلم أن هذا وإن كان معدوداً من علم الإعراب لكن له تعلق بعلم المعاني ، وذلك أن الإفصاح بإظهاره في موضع الإضمار له موقع عظيم ، وفائدة جزلة » (١) فهي من المسائل النحوية ولكن يظهر بها حسن ومزية ، وتتكشف للمتأمل والمتذوق أسرار وأنماط من الحسن لا تدرك إلا بالذوق ، وإحساس النفس .

ومن هذا الباب ، ما أورده عبدالقاهر الجرجاني ، أن الصاحب بن عباد قال : كان الأستاذ أبو الفضل يختار من شعر ابن الرومي وينقط عليه ، قال : فدفع إلي القصيدة التي أولها :

أَتَحْتَ ضُلُوعِي جَمْرَةٌ تَتَوَقَّدُ

وقال : تأملها ، فتأملتها ، فكان قد ترك خير بيت فيها ، وهو :

بِجَهْلِ كَجَهْلِ السِّيفِ وَالسِّيفُ مُنْتَضِيٌّ وَجِلْمٍ كَجِلْمِ السِّيفِ وَالسِّيفُ مُغْمَدٌ

فقلت : لم ترك الأستاذ البيت ؟ فقال : لعل القلم تجاوزه . قال : ثم رأي من بعد ، فاعتذر بعذر كان شراً من تركه ، قال : إنما تركته لأنه أعاد السيف أربع مرات ، قال صاحب : لو لم يعده أربع مرات فقال : (بجهل كجهل السيف وهو منتضى وحلم كحلم السيف وهو مغمد) لفسد البيت (١) .

ثم يعلق عبدالقاهر على ذلك بقوله : « والأمر كما قال صاحب ، والسبب في ذلك أنك إذا حدثت عن اسم مضاف ، ثم أردت أن تذكر المضاف إليه ، فإن البلاغة تقتضي أن تذكره باسمه الظاهر ولا تضمه » (٢) ثم يفسر قوله هذا ويمثل له ، فيرى أن الذي هو الحسن الجميل أن تقول : (جاءني غلام زيد وزيد) ويقبح أن تقول : (جاءني غلام زيد وهو) ويمثل بقول دعبل الخزاعي :

أضياف عمران في خصب وفي سعة وفي حباء وخير غير ممنوع
وضيف عمرو وعمرو يسهران معاً عمرو لبطته والضيف للجوع

[ويعلق عليه بقوله] ليس بخفي على من له ذوق أنه لو أتى موضع الظاهر في ذلك بالضمير فقليل : (وضيف عمرو وهو يسهران معاً) لعدم حسن ومزية لاختفاء بأمرهما (٣) .

وواضح أن دعبلاً يهجو عمراً ويسخر منه من خلال مقارنة بخله بجود عمران ، ولا شك أن هذه السخرية مبنية على الإيجاع والإيلام النفسي ، لأن إظهار اسم عمرو وتكراره يعمق الإحساس بالمذمة ، ولذلك عد هذا من أعظم التهكم (٤) .

(١) انظر دلائل الإعجاز ٥٥٤ ، ٥٥٥ .

(٢) المرجع السابق ٥٥٥

(٣) المرجع السابق .

(٤) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٤٥ .

والكلام كما عند البلاغيين قد يكون خارجاً على مقتضى الظاهر ، وقد يكون خارجاً على خلاف مقتضى الظاهر ، ولذلك أغراض بلاغية ، ومعان أسلوبية مقصودة .
ومن الصور التي يخرج فيها الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، إذا وضع الاسم الظاهر موضع الضمير ، فقد يكون ما يعود عليه الضمير موجوداً ظاهراً لا لبس فيه ، ولكن الأديب يؤثر أن يأتي بالاسم الظاهر ، مخرجاً الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وقاصداً إلى أغراض وأسرار بلاغية يؤديها هذا التصريح ولا يقوم بها أو يؤديها ذلك الإضمار .

يقول الزملكاني(*) : « لن يبلغ الضمير العائد مبلغ المظهر ، وإن اعتراك شك في ذلك فعليك بقوله تعالى : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) فإن فيه من النبل ما لا يخفى على بصير » (١) .

وهذا الظاهر إما أن يكون اسم إشارة أو لا يكون ، فإن كان اسم إشارة فإنه يوضع موضع الضمير لعدة أغراض ، منها قصد التهكم بالسامع والسخرية منه « كما إذا كان فاقد البصر ، أو لم يكن ثم مشار إليه أصلاً ، كأن يقول لك أعمى : أتشهد أن زيدا ضربني ؟ فتقول له : نعم ذلك الذي في جانبك - سواء كان بجانبه أم لا - » . (٢) .

وقد يكون القصد من وضع المظهر موضع المضمير التنبيه على كمال بلاغة السامع بأنه لا يدرك غير المحس ، فيكون هذا التنبيه سخرية منه ، وتهكما به ، وتعرضاً بغفلته ونقص عقله من ذلك قول الفرزدق يهجو جريراً : (٣)

(*) كمال الدين عبدالواحد بن خلف بن نبهان ، تولى قضاء صرخد وبرع في النحو والبلاغة وله شعر عادي ، توفي سنة ٦٥١ هـ . شذرات الذهب ٥ / ٢٥٠ .

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، للزملكاني ، تحقيق الحديثي ومطلوب ٢٤٨ .

(٢) بغية الإيضاح ١ / ١٤٩ .

(٣) ديوان الفرزدق ١ / ٤١٨ .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جرير النجاء

أخذ الفرزدق يذكر أجداده ويعدد مآثرهم ، ويقول منا فلان ، ومنا فلان ، في سبعة أبيات قبل هذا البيت ، ثم يلتفت بالخطاب إلى جرير ، فكان مقتضى الظاهر أن يقول (هم) لكنه عدل عن ذلك إلى اسم الإشارة « أولئك » ؛ لأنه في موقف الافتخار على خصمه ، فكان مناسباً أن يعرض بغباوة هذا الخصم وكمال بلادته ، فيسخر منه ويستهزئ به ، واسم الإشارة هنا يفيد التهكم « لأن الإشارة إلى شيء موجود أو غير موجود بما يشار به إلى المحس المرئي مما يدل على قصد السخرية والتهكم ، فجرير في نظر الفرزدق لا يدرك إلا الأمور المحسوسة » (١) .

وإذا كان المظهر الذي وضع مكان المضمرة غير اسم الإشارة ؛ فإنه قد يرد على جهة السخرية والتهكم ، كالتهم بحال الكافرين ، والتعجب من عنادهم وجحدهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ص والقراءان ذي الذكر ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق ، كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ، وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكفرون هذا سحر كذاب ﴾ (٢) .

ذكر الله الكافرين في قوله « بل الذين كفروا » ثم قال بعد ذلك : « وقال الكفرون » وهذا إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، إذ مقتضى الظاهر أن يقال « هم قالو » ولكن عدل إلى ذلك لغرض بلاغي وهو إفراط النكير عليهم ، والتهكم بهم

(١) انظر من سمات التراكيب ، د. عبدالستارز موط ٢٢١ .

(٢) الآيات (١ - ٤) من سورة ص .

وبعنادهم وعدم اعتبارهم ، وفيه تعريض بأنهم الكفرة حقاً أهل التمرد الذي لاشك فيه ،
والمرء الذي لا مدفع له (١) .

ومما جاء إهانة وتحقيراً وتهكماً بالشيطان الرجيم وكيده ، قوله تعالى : ﴿ وقل
لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنس
عدواً مبيناً ﴾ (٢) .

ففي تكرار لفظة (الشيطان) مع إمكان الاستغناء عنها بالضمير معنى زائد مقصود
وهو الإهانة والتحقير إذ اللفظ قبيح ، فتكراره إهانة للشيطان وتنفيراً لعباد الله المؤمنين من
نزغه وكيده .

(١) انظر الطراز ٢ / ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) الآية (٥٣) من سورة الإسراء .

الاستفهام الساخر

جاء في اللسان : الفهم : معرفتك الشيء بالقلب . فَهَمَهُ فَهَمًا وَفَهَمًا وَفَهَامَةً : عَلَّمَهُ . . .

واستفهمه : سأله أن يفهمه ، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً (١) .

والاستفهام هو طلب الفهم وهو بمعنى الاستخبار (٢) .

والاستخبار - طلب خبر ما ليس عند المستخبر وهو الاستفهام ، وقيل إن بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق ، ذلك أنك تستخبر فإن أجبت ولم تفهم وسألت ثانية فأنت مستفهم (٣) .

والتعريف المشتهر للاستفهام عند المتأخرين : « أنه طلب حصول صورة الشيء في الذهن » (٤) .

والألفاظ الموضوعة له : الهمزة ، وهل ، وما ، ومن ، وأي ، وكم ، وكيف ، وأين ، وأننى ، ومتى ، وأيان (٥) ، ومن أدوات الاستفهام : مهما ، وكأين ، وكذلك يستفهم بلعل عند الكوفيين (٦) .

(١) لسان العرب (فهم) .

(٢) الإتيقان في علوم القرآن ٢/ ٨٨٣ .

(٣) الصاحبي ٢٩٢ .

(٤) التعريفات ١٨ ، والمصباح في المعاني والبيان والبديع ، لبدر الدين ابن مالك ٨٣ - ٨٥ ،

حققه حسني يوسف ، شرح عقود الجمان ١/ ١٧٤ ، ومختصر السعد ٢/ ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٥) الإيضاح ، للقرظيني ٢/ ٢٤٧ . ضمن شروح التلخيص .

(٦) شرح عقود الجمان ١/ ١٧٤ ، وعروس الأفراح ٢/ ٢٤٦ .

وهذه الأدوات كثيراً ما تستعمل في غير الاستفهام مما يناسب المقام بحسب معونة القرائن (١) فهي لا تقتصر في دلالتها على الاستفهام الذي هو طلب فهم المستفهم فحسب ، وإنما تتعدى ذلك إلى معان كثيرة « لأنها إذا تجردت عنه تولد عنها بمعونة القرائن ما يناسب المقام » (٢) .

« ولا بدع في صدور الاستفهام ممن يعلم المستفهم عنه ؛ لأن طلب الفهم : إما طلب فهم المستفهم ، أو وقوع فهم لمن لم يفهم كائنًا من كان » (٣) ، فالاستفهام البلاغي لا يقف عند حد الطلب ، بل يتجاوز ذلك إلى التعبير عما في النفس من معان . وهذه المعاني لا يكشف عنها ويدل عليها نوع أداة الاستفهام فحسب ولا نوع ألفاظ الجملة وطريقة تركيبها فقط ، ولا رؤية المستفهم وحدها ، بل كل ذلك وغيره يشارك في الكشف عن دلالة هذه الجملة .

ووجه دلالة الاستفهام على هذه المعاني تعددت فيه آراء العلماء : فقليل إنه من قبيل المجاز المرسل ، وقليل إنه كناية ، وقليل إنه استفاد من مستبعات التراكيب (٤) ولا يخفى أن الحمل على أحد هذه الآراء الثلاثة جائز في كل هذه المعاني (٥) وإن كان أولها اعتباراً أنها من مستبعات التراكيب مع أن القول به لا يسلم من اعتراض عليه (٦) .

(١) مختصر السعد على تلخيص المفتاح ، لسعد الدين التفتازاني ٢/ ٢٩٠ ، ضمن شروح التلخيص .

(٢) زهر الربيع في المعاني والبيان والبدیع ، أحمد المحلاوي ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٨٩٠ .

(٤) حاشية الدسوقي ٢/ ٢٩٣ ، وبغية الإيضاح ٢/ ٤٣ .

(٥) بغية الإيضاح ٢/ ٤٤ .

(٦) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، د. محمد أبو موسى

وقد ناقش كثير من البلاغيين وجه دلالة الاستفهام على هذه المعاني ، فمنهم من قال إن خروج الاستفهام إلى هذه المعاني عن طريق المجاز ، وأخذ يتكلف ويتعسف ويجهد نفسه في بيان العلاقات بين هذه المعاني والاستفهام . يقول السيد الشريف : «إنكار الشيء بمعنى كراهته والنفرة عن وقوعه في أحد الأزمنة وادعاء أنه مما لا ينبغي أن يقع فيه يستلزم عدم توجه الذهن إليه ، المستدعى للجهل به المفضي إلى الاستفهام عنه ، أو نقول ، الاستفهام عنه يستلزم الجهل به المستلزم لعدم توجه الذهن إليه المناسب لكراهته والنفرة عنه وادعاء أنه مما لا ينبغي أن يكون واقعا ، وقس على هذا حال الإنكار بمعنى التكذيب » (١) .

وغير خاف هذا التكلف في تصحيح هذه العلائق ، وهذا التكلف يعترف به السيد الشريف نفسه حينما يعلق على قول التفتازاني بصعوبة تحديد نوع المجاز هنا ، يقول : «وذلك لصعوبة بيان علاقة المجاز وكيفية المناسبة المجوزة له » (٢) ثم يذكر بأنه سوف يقتصر على المواضع التي سيتضح وجه المجاز فيها ويستعين به في فيما عداها من المواضع التي لم تتضح يقول : « ونحن نذكر في هذه المواضع ما يتضح به وجه المجاز فيها وتستعين به فيما عداها » (٣) .

وهناك نوع آخر من الصعوبة يواجه من يتصدى لتحقيق وجه الدلالة في هذه الأدوات ، إذ إن الاستفهام قد يفيد معاني متعددة في نص واحد ، فإذا قلنا إن الأداة مجاز في إحدى هذه المعاني فما موقفنا من غيرها (٤) ونحن نعلم أن استعمال أدوات الاستفهام في معان مجازية متعددة في نص واحد أمر لا يقبله المحققون من العلماء ، يقول الشهاب

(١) حاشية السيد على المطول ١٣٩ .

(٢) المرجع السابق ١٣٨ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٦٤ .

معلقاً على فهم البيضاوي لدلالة الاستفهام على عدة معاني مجازية هي التقرير والإنكار والاستبعاد في قوله تعالى «أيُنْكِمْ لِتَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةٌ أُخْرَى» (١) يقول : «وفيه جمع بين معاني الاستفهام وهي معان مجازية لا يجمع بينها ، وإن في ذلك التجوز خفاء . . . إلا أن يقال إنه يستعمل في أحد هذه المعاني وغيره مأخوذ من السياق» (٢) .

ومن البلاغيين من يرى أن دلالة الاستفهام على هذه المعاني من قبيل الكناية أو هو مفاد من مستتبعات التراكيب ، فالدسوقي نقل في حاشيته على شرح السعد قولاً عن السيد مفاده ، أن وجه دلالة الاستفهام على هذه المعاني من قبيل المجاز ، ونقل قولاً آخر عن عبدالحكيم فيه أن وجه استعمال الاستفهام هنا من قبيل الكناية أو هو من مستتبعات التراكيب ، يقول الدسوقي : «قال السيد فاستعمال صيغة الاستفهام في التنبيه المذكور من استعمال الملزوم في اللازم ، قال عبدالحكيم : ولك أن تجعل اللفظ مستعملاً في الاستفهام ليتوصل به إلى التنبيه على طريق الكناية ، أو يجعل اللفظ مستعملاً في الاستفهام مع التنبيه على أنه من مستتبعات الكلام» (٣) .

ثم أخذ الدسوقي يحلل كل الأمثلة التي خرج فيها الاستفهام إلى معان أخرى ، ويأتي بكل هذه الوجوه الثلاثة ويقلب الأمر بينها على أنها جائزة ، وأنه يمكن الدلالة على المعنى عن طريق أي منها (٤) .

والأظهر أن هذه المعاني تستفاد من مستتبعات التراكيب فالسياق هو الذي يحدد المعنى ، ويتضح ذلك جلياً في هذا المثال الذي يقف فيه إبراهيم عليه السلام موقفين

(١) الآية (١٩) من سورة الأنعام .

(٢) انظر حاشية الشهاب ٣٧/٤ .

(٣) حاشية الدسوقي ٢٩٣/٢ .

(٤) انظر المرجع السابق .

مختلفين ، يحدد السياق وقرائن الحال فيهما المعنى تحديداً واضحاً ، فهو عندما دخل على الأصنام كما في آية الصافات خاطبها هازئاً ومتهكماً بقوله ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ .. ﴾ (١) يهزأ بها ويانحطاطها عن حال عبدتها وعندما دخل - كما في الموقف الآخر في آية الذاريات - على ضيفه ولم يكن يعلم أنهم من الملائكة فقرب إليهم العجل قال لهم ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢) إنكاراً أو حثاً لما رأى أيديهم لا تصل إليه ، فالذي حدد المعنى هنا وهناك هو السياق وقرائن الأحوال في كل (٣) .

والمعاني التي تفيدها أدوات الاستفهام كثيرة لا يمكن الإحاطة بها وإنما يذكر العلماء منها ما يرشد إلى طريقة تفهمها والوعي بها (٤) . والمدار في معرفة هذه المعاني على تتبع التراكيب وسلامة الذوق (٥) . وقد أشار العلامة السعد إلى ذلك عقب الانتهاء من الحديث عن المعاني التي يخرج فيها الاستفهام ، وذلك في قوله «والحاصل أن كلمة الاستفهام إذا امتنع حملها على حقيقتها تولد منه بمعونة القرائن ما يناسب المقام» (٦) .

وقد عد منها القزويني : الاستبطاء ، والتعجب ، والتنبيه على الضلال ، والوعيد ، والأمر ، والتقدير ، والإنكار ، والتهكم ، والتحقير ، والتوبيخ والتعجيب جميعاً (٧) .

إلا أن التوبيخ والتعجيب ليسا معنى واحداً ، فالتوبيخ يكون مع الإنكار ، والتعجب ناشئ من التعجب .

ولا شك أن الإنكار والتهكم والتحقير معان تأتي منها السخرية فإذا خرج إليها الاستفهام أكسبها قوة وتأثيراً ، لأن الاستفهام البلاغي فيه قوة وانفعال ، فإذا كان ساخراً

(١) الآية (٩١) .

(٢) الآية (٢٧) .

(٣) انظر تفسير الكشاف ٣٠ / ٤ ، وروح المعاني ١٢٣ / ٢٣ .

(٤) انظر دلالات التراكيب ، أبو موسى ٢١٦ .

(٥) زهر الربيع ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٦) انظر المطول ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٧) الإيضاح ٢ / ٢٩٠ - ٣٠٦ .

جاء في أغلب الأحيان عنيفاً ، فهو إما إهانة أو تقريع أو تهكم أو تحقير ينزل بالمسخور منه قوياً كالصاعقة فيزلزله ويبلغ أثره فيه مدأ بعيداً .

ولذلك نجد هذا الأسلوب يتكرر كثيراً في القرآن الكريم يدمغ الله به المشركين ، ويفضح المنافقين ، ويرد به على سخرية الساخرين وهزاء المستهزئين (١) .

ومن المعاني الاستفهامية التي تأتي منها السخرية الإنكار ، « وهو استفهامك أمراً تنكره » (٢) .

ويقال أنكر عليه إذا نهاه (٣) وهو كراهة الشيء والنفرة من وقوعه في أحد الأزمنة .

والتفسير البلاغي للإنكار فصله عبدالقاهر - بعد تحليله لأمثلة عدة في الإنكار - بقوله : « واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإن الذي هو محض المعنى : أنه لتنبية السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه فإذا ثبت على دعواه قيل له : فافعل ، فيفضحه ذلك ، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه وقيل له : فأرنا في موضع وفي حال وأقم شاهداً على أنه كان في وقت » (٤) .

« والمعنى في الإنكار على النفي وما بعده منفي » (٥) وهو نفي بلاغي إنشائي .

(١) أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ، فودة ٢٤١ .

(٢) القاموس (نكر) .

(٣) حاشية الدسوقي ٣٠٠/٢ .

(٤) دلائل الإعجاز ١١٩ ، ١٢٠ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٢/٨٨٤ ، ٨٨٥ .

ويتميز النفي البلاغي عن النفي الخبري ؛ ذلك أنه أكثر بلاغة وأقوى دلالة منه ، فالنفي الاستفهامي أقوى في دلالاته النفسية يظهر انفعال المتكلم وتفاعله مع ما أنكره ، فهو إما مكذب ، أو موبخ ساخر ، أو متهمك ، أما النفي الخبري فإنه لا يظهر ذلك التفاعل بتلك الدرجة ، كأن تقول مثلاً « فلان لا يصلي ولا يصوم » ليس هنا انفعال ظاهر فحسبك أن تقرر واقعاً . « أما الاستنكار أو النفي الاستفهامي فهو وطيد الصلة بمشاعر المتحدث لا يصدر منه استنكار إلا بعد أن يكون قد بلغ به التفاعل ذروته » (١) وذلك كقول لوط عليه السلام موبخاً قومه على أفعالهم الشنيعة :

« أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون » (٢) فهو يحمل الذهن على التفكير والمشاعر على أن تتجاوب معه ليتأمل القوم في منكراتهم الشنعاء التي يفعلونها ، وهي تناهض الفطرة وتتمرد على ما شرعه الله تعالى .

والنفي الاستفهامي الإنكاري يكون في الغالب مزيجاً من عدة معان : فالتكذيب والتوبيخ والتعجب والتهكم والسخرية والتحقير والتمني وغيرها قد يصحب أحدها أو عدد منها النفي الاستفهامي ، أما في الخبر فالنفي نفي ليس غير (٣) .

ومن أسرار أسلوب النفي عن طريق الاستفهام والعدول عن أسلوب النفي المباشر « أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موضعه ، ولما كان المستول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي ، كان في توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي ، وهو أفضل من النفي ابتداءً » (٤) .

(١) انظر أساليب النفي في القرآن الكريم ، البكري ٢٩٨ .

(٢) الآيتان (١٦٥ ، ١٦٦) من سورة الشعراء .

(٣) انظر أساليب النفي في القرآن الكريم ٣٠٠ .

(٤) من بلاغة القرآن ١٦٣ .

وإذا كان الاستفهام يكسب الإنكار قوة في دلالة النفسية ، فيظهر انفعال المتكلم وتفاعله مع ما أنكره ، فإن هذا الإنكار إذا صاحبه السخرية كان أقوى في دلالة النفسية ، إذ إن وراء السخرية دوافع قوية ترفع درجة الانفعال ، وتقوي التأثير ، فتتضافر دلالات السياق وهذه الانفعالات في إخراج أسلوب قوي مؤثر ينبض بالحياة ، تتحرك في ثناياه أحاسيس ومشاعر ودلالات كثيرة ، يكون لها أبلغ الأثر في نفسية المخاطب ، إذ إن هذا الأسلوب يمتلك والقدرة على تحريك المشاعر والاستئثار بالانتباه وحمل الأذهان على التفكير والمشاعر على التجاوب معه .

تناول بعض علماء البلاغة أسلوب الاستفهام تحت باب التقديم والتأخير ، وذلك لأنهم أدركوا ما للتقديم والتأخير من تأثير على معاني الجملة ، وما فيه من دقائق وأسرار ، فترتيب عناصر الجملة له دور كبير في تحديد المعنى .

وفي الاستفهام الإنكاري بالهمزة ، إذا بدئ بالفعل كما في قوله تعالى : **﴿أصطفى البنات على البنين﴾** (١) كان الإنكار في نفس الفعل ، وأما إذا قدم الاسم ففيه يتوجه الإنكار إلى الفاعل كقولك : أنت قلت هذا الشعر ؟ كذبت ، لست تحسن شعرا مثله . فأنكرت أن يكون القائل هو ولم تنكر الشعر . وإذا كان الفعل المنكر مضارعاً فإنه يحتمل وجهين :

الأول : إنكار وجود الفعل ، كقوله تعالى : **﴿أفلزمكموها وأنتم لها كرهون﴾** (٢) فالمعنى إنكار أصل الفعل .

(١) الآية (١٥٣) من سورة الصافات .

(٢) الآية (٢٨) من سورة هود .

والثاني : الاستقباح : فإن بدأت بالفعل كان المراد توجيه الإنكار إلى وجود الفعل نحو : أخرج في هذا الوقت ؟ ، أتذهب في غير الطريق ؟ أما إذا بدأت بالاسم فإن الإنكار يتوجه إلى الفاعل ، إما للمبالغة في الاستحقار كقولك لمن تستحقه : أنت تمنعني ؟ أنت تضربني ؟ أو للمبالغة في التعظيم كقوله : أهو يسأل الناس ؟ أهو يمنعهم حقوقهم ؟ أو للمبالغة في بيان الخساسة كقوله : أهو يسمح بمثل هذا ؟ أهو يرتاح للجميل ؟ (١) .

والمبالغة في الاستحقار غالباً ما تؤدي معنى السخرية والتهكم فقولك لشخص ادعى بأنه قادر على منعك - أنت تمنعني ؟ فيه تصغير لشأنه وتهكم وسخرية من دعواه ، ذلك لأنه وضع نفسه في غير موضعه فصرت - كما يرى عبدالقاهر - كأنك قلت له إن غيرك الذي يستطيع منعي والأخذ على يدي ولست بذاك ، ولقد وضعت نفسك في غير موضعك وذلك لعجزه وحقارته وصغر قدره وقصر همته فكان كل ذلك مسوغاً لأن يسخر منه ومن دعواه (٢) .

والإنكار المستفاد من الاستفهام إما للتوبيخ أو للتكذيب ، وكل واحد منهما إما في الماضي أو في المستقبل ، فالأقسام أربعة : (٣)

فالتوبيخ يكون على أمر وقع في الماضي أو هو بصدد الوقوع في الحال ، ولا يوبخ على أمر سيحدث في المستقبل إلا إذا كان المخاطب ماضياً إليه مصمماً عليه بدلالة القرائن ، ويقع كذلك على ترك فعل كان ينبغي أن يقع .

ومعنى التوبيخ هو التعيير والتقريع على أمر قد وقع في الماضي ، أو على أمر خيف وقوعه في المستقبل ، والغرض منه الندم على ماضٍ والارتداع عن مستقبل والنفي

(١) انظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ٢١٤ . تحقيق د. أحمد حجازي السقا .

(٢) انظر دلائل الإعجاز ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) شرح عقود الجمان ١/ ١٨٧ .

فيه متوجه إلى الانبغاء ومدخول الهمزة واقع أو كالواقع ، وإذا كان التوبيخ على أمر مضى فإنه يكون بمعنى ماكان ينبغي أن يكون ، ويقصد به التعبير والتقريع على أمر قد وقع ، ولذلك يقال إنه يتضمن التقرير أي الثبوت والتحقيق ؛ لأن العرف يقتضي أنك إنما تقول ماكان ينبغي لك هذا يافلان إذا صدر منه ذلك ، أما التوبيخ على أمر يقع في الحال أو الاستقبال فإنه يكون بمعنى لا ينبغي أن يكون ، والتوبيخ هنا لا يقتضي وقوع الموبخ عليه بالفعل كما هو ظاهر ، وإنما يقتضي كون المخاطب بصدد الفعل لذلك يصح أن يقال ذلك لمن هم به ولم يقع منه ، وضابط هذا القسم أن يكون مايلي الهمزة فيه واقعاً لكنه مستقبـح (١) والاستفهام التوبيخي « يثير في النفس التفكير ويدفعها إلى تدبر الأمور حتى تقتنع بتفكيرها الخاص بأنه ماكان ينبغي أن يقع ماوقع أو كان الصواب أن يقع ما لم يقع » (٢).

وأما الإنكار التكذيبي فإنه يسمى بالإنكار الإبطالي أيضا ، وضابطه أن يكون مايلي الهمزة يدعى أنه واقع وقصد تكذيبهم فيه ، ويكون على أمر مضى بمعنى لم يكن ، ذلك أن المخاطب إن ادعى وقوع شيء فيما مضى ، أو نزل منزلة المدعي ، أتى بالاستفهام الإنكاري تكذيباً له في مدعاه ، وكذلك يكون على أمر يدعى وقوعه في المستقبل أو في الحال ، وهو بمعنى لا يكون وذلك أن المخاطب إذا ادعى أو نزل منزلة من ادعى أن أمراً من الأمور يقع في المستقبل أو في الحال ، أتى بالاستفهام الإنكاري تكذيباً له فيما ادعى وقوعه في الحال أو الاستقبال (٣).

(١) انظر حاشية الدسوقي ٢/٣٠٠، ٣٠١.

(٢) من بلاغة القرآن ١٦٤.

(٣) انظر مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، لابن يعقوب المغربي ٢/٣٠١. ضمن شروح التلخيص.

وهناك نوع من الإنكار يتوصل فيه إلى إنكار الفعل أصلاً بإنكار وقوعه على متعلقاته التي ليس له معمولات سواها ، لأن تعلقه منحصر فيها ، وذلك مع التهكم والتوبيخ وذلك كقوله تعالى : ﴿ قل ءأذكركم حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ (١) ، فالمراد إنكار التحريم أصلاً مع التهكم بذلك المدعي وكان ذلك بإنكار وقوعه على جميع متعلقاته التي ارتبط بها على طريق القصر (٢) .

ويندرج تحت الإنكار أغراض ومعان أخرى عديدة تناسب المخاطب وحاله الخاصة ويدل عليها السياق وقرائن الأحوال « فيكون مع الإنكار التقييح ، أو التوبيخ أو التكذيب ، أو التعجيب ، أو التشنيع ، أو التبشيع ، أو التهكم اللاذع أو الخفيف الراحم ، أو التهديد الراعد ، أو التحقير النافذ ، أو التجهيل ، أو التهويل إلى غير ذلك ، وقد عني العلماء بتقسيم الإنكار إلى توبيخ وتكذيب طلباً للتوضيح والإبانة دون تحييد للمعاني أو تحديد لكنهم عند التحليل يذكرون من المعاني الفرعية ضرباً مما قدمناه » (٣) ، « والغالب على الإنكار أن يكون مزيجاً من عدة معان » (٤) فالتكذيب والتوبيخ والتهكم والسخرية والتحقير غالباً ما تترج به وتصاحبه .

وقد جرى هذا الأسلوب في القرآن كثيراً ، فالاستفهام الإنكاري أكثر أساليب الاستفهام شيوعاً وأوسعها تصرفاً في القرآن « فجملة أساليبه ثمان مائة وسبعة ، وكثر في المكّي إذ بلغت أساليبه ستمائة وثلاثين ، أما باقي الأساليب وهي مائة وسبعة وسبعون فمدنية » (٥) .

(١) الآية (١٤٣) من سورة الأنعام .

(٢) انظر عروس الأفراح ٢/٢٩٨ - ٣٠٠ ، وأساليب الاستفهام في القرآن الكريم ٢٠٦ .

(٣) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ١٣٠ ، ١٣١ .

(٤) أساليب النفي في القرآن الكريم ٣٠٠ .

(٥) أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ٢٠٧ .

وقد تناول القرآن الكريم في طياته قضايا كثيرة ، واستعمل في تناوله لها أساليب لها وقع ونفاذ في النفس البشرية ، فאלله الذي أنزل الكتاب هو أعلم بخبايا تلك النفس وأسرارها ، ما يصلح لها ويؤثر فيها ، فلذلك تعددت الأساليب القرآنية وتنوعت ، ومن تلك الأساليب الكثيرة في القرآن الكريم أسلوب الإنكار ، إذ ينكر القرآن على المشركين شركهم وعلى المنافقين شكهم وشبههم ، وعلى اليهود زيغهم وضلالهم وطريقة تفكيرهم ، ويوبخ كل هؤلاء على مواقفهم المعادية للحق وأهله ، وكذلك كان القرآن ينقل ردود أفعالهم تجاه آيات الله ورسله « فيصور انفعالاتهم المتلونة العجيبة حين سفه القرآن أقدس ما عندهم ، وفضح خططهم ومؤامراتهم ، فقابلوا الإنكار بالإنكار ، ثم زادوا بما يناسب جهلهم المتنوع المتدني ، فكان الإنكار صارخاً لا بأساً كثيراً من المعاني التي تصحب الإنكار عادة ، كالتهمك ، والسخرية ، والتحقير وغيرها » (١) .

وانظر إلى هذا الأسلوب التوبيخي التهكمي الذي يسخر من عقول المشركين وزعمهم يقول عز وجل في سورة النجم : « أفراء يتم اللك والعزى . ومنوة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأثنى تلك إذا قسمة ضيزى » (٢) .

لما قدم سبحانه وتعالى بذكر الآيات الكبرى ، من إسرائ بالنبى الكريم ، ومعراج به إلى السماء ، وبلوغه سدره المنتهى ، ورؤيته لآيات عظيمة ، وشؤون جلييلة ، وذكر جبريل وشرفه ، وصحبته ومنتزله ، إذ وصف بصفات الكمال ومنازل العزة ، كان ذلك مما يشير موازنة هذه الأحوال الرفيعة بحال أعظم آلهتهم الثلاثة في زعمهم ، والتي هي أحجار مقررها الأرض ، لا تملك تصرفاً ولا يعرج بها إلى رفعه ، والفاء في « أفراء يتم » لتفريع الاستفهام ، و « رأى » بصرية واقعة على الأصنام المشاهدة ، والإحالة على الأمور

(١) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن ١٣٠ .

(٢) الآيات من (١٩ - ٢٢) من سورة النجم .

المشاهدة الواضحة الفساد دليل على شدة الإنكار ، والمعنى أي ، كيف ترون اللات والعزى ومناة بالنسبة لما وصف من عظمة الله تعالى وشرف ملائكته وشرف رسوله ﷺ ، وهذا تهكم بهم وإبطال لإلهية تلك الأصنام بطريق الفحوى ، ودليله العيان .

وتتابع الاستفهامات في قوله « ألكم الذكر وله الأنثى » فيه ارتقاء في الإبطال والتهكم والتسفيه ، وهي مجارة لاعتقادهم أن تلك الأصنام الثلاثة بنات الله وأن الملائكة بنات الله ، أي أجعلتم لله البنات خاصة وأنتم تعلمون أن لكم أولاداً ذكوراً وإناثاً وأنكم تفضلون الذكور وتكرهون الإناث وقد خصصتم الله بالإناث دون الذكور ، والله أولى بالفضل والكمال لو كنتم تعلمون ، فكان في هذا زيادة تشنيع لكفرهم إذ كان كفراً وسخافة عقل ، فالاستفهام مفسحٌ عن شدة الإنكار والسخرية وإيقاع الأسلوب معين على ذلك ، وهذا يمهّد لهذه الحقيقة الساخرة الثابتة : « تلك إذن قسمة ضيزي » والقسمة متخيلة ؛ لأنها تكون في الحسيات بلوغاً بالسخرية مدى كبيراً ، والكلمة « ضيزي » غريبة الوزن ، غريبة الهيئة ، غريبة الجرس والدلالة ، تناسباً مع غرابة الزعم والقسمة الجائرة (١) .

وادعاء الولد لله سبحانه وتعالى ونسبة الإناث إليه من قضايا الإنكار الكبرى في القرآن الكريم ، فالقرآن ينكر على أولئك المفترين قولهم ، فينفي نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى ، ثم يكر بالتشنيع والتسفيه والسخرية من عقول المشركين الذين جعلوا لله ما يكرهون ، فيأتي الاستفهام تكديماً وتقريعاً وسخرية من أصحاب هذا القول الباطل وتلك القسمة الجائرة .

(١) انظر البحر المحيط ١٦١/٨ ، ٦٢ ، والتحرير والتنوير ١٠٢/٢٧ - ١٠٦ ، والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ١٣٣ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، وأساليب النفي في القرآن ٣٠١ .

ومواقف الإنكار هذه في القرآن عديدة ، ومنها تلك الآيات الينيات التي يتفجر سياقها بالإنكار والتكذيب والسخرية من دعاوى المشركين الباطلة ، يقول تعالى - أمرا نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بتبكييت قريش والتهكم بهم بطريق الاستفتاء رداً على إفكهم :

﴿ فاستفتهم ، ألبك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إنشأ وهم شهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لهم سلطان ميين ، فأتوا بكتبكم إن كنتم صدقين ﴾ (١) .

إنها استفهامات متوالية قوية لعظم الجرم وشناعة القول ، بدأ باستفتاء القوم على سبيل التهكم بهم والسخرية من عقولهم ، إذ كيف سوغت لهم هذه العقول الضالة أن ينسبوا إلى الله الولد ، بل ويقسموا له أوضاع الجنسين في ظنهم ويجعلون لأنفسهم أرفعهما ، فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل وقوله تعالى : ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شهدون ﴾ ، إضراب وانتقال من التبكييت بالاستفتاء السابق إلى التبكييت بهذا ، ومعناه أي أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق ، وأبعدهم من صفات الأجسام وذرائل الطباع إناثاً ، والأنوثة عندهم من أخس صفات الحيوان ، توبيخاً لهم وسخرية من ضلالهم ، وتجهيلاً لعقولهم ، ثم عقب على الاستفهام بقوله : « وهم شهدون » يقصد الاستهزاء بهم وتجهيلهم والسخرية من تمسكهم بهذه الدعوى ، حيث أن نسبتهم الإناث لله تعالى وقولهم هذا يتطلب وجودهم وشهودهم لهذه الولادة ، وحيث أن ذلك مستحيل ولا سبيل لمعرفة بالعقل وانتفاء النقل مما لا ريب

(١) الآيات (١٤٩ - ١٥٧) من سورة الصافات .

فيه ، فإن قولهم هذا من الإفك الواضح والافتراء على الله بغير علم ، « ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكذبون » ثم تتابع الاستفهامات المشحونة بكل معاني التكذيب والتوبيخ والسخرية والتجهيل (١) .

وهذه الآيات - كما يقول الزمخشري - : « صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع ، واستبعاد لأقاويلهم شديد ، وما الأساليب التي وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش ، وتجهيل نفوسها ، واستركاك عقولها ، مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بال ، ويحدث به نفساً ، فضلاً أن يجعله معتقداً ، ويتظاهر به مذهباً » (٢) .

ومن الأساليب التي كثر فيها إنكار القرآن على الكافرين والمعاندين بالتكذيب والتوبيخ وبالتهكم والسخرية من مواقفهم المتصلبة ، تلك الاستفهامات العديدة التي تنصب على الكافرين وهم يعانون آلام العذاب في جهنم ، فينادون ويستغيثون يطلبون المساعدة ، فيأتيهم الرد قاسياً مذكراً إياهم بمواقفهم من رسلهم واستكبارهم عليهم وأنفتهم من قبول الحق ، معيداً على أسماعهم تلك العبارات وتلك الشائعات التي طالما رموا بها دعوة الرسل ، ساخراً ومتهمكماً وموبخاً لهم على تلك المواقف وهذا مما يزيد في عذابهم ويقطع رجاءهم في الخلاص فتتزل عليهم تلك الاستفهامات نزول الصواعق ، ومن ذلك هذه الصورة التي يصورها القرآن لحال الكافرين المكذبين بعذاب الآخرة والذين كانوا يسخرون حينما يخوفون في الدنيا من ذلك العذاب الأخروي . يقول الحق عز وجل :

(١) انظر تفسير الكشاف ٣/ ٣١٢ ، وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٠٦ - ٢٠٨ ، وتفسير التحرير

والتنوير ٢٣/ ١٨٠ - ١٨٥ .

(٢) تفسير الكشاف ٣/ ٣١٢ .

﴿إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع ، يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا ، فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم في خوض يلعبون ، يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ (١) .

يقسم الحق جل وعلا أن العذاب نازل حتماً لا راد له ، والمقصود هو عذاب الآخرة ، ثم يصور طرفاً من تلك الأهوال التي تحدث في ذلك اليوم ، فالسمااء تمور أي تدور وتضطرب والجبال تسير وتزول ، فإذا وقع ذلك فويل للذين كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهذا اليوم وكانوا كلما دعوا إلى التصديق بذلك اليوم اندفعوا يكذبون ويلعبون ويستهزئون بذلك القرآن وما فيه من وعد في هذا اليوم ووعد بذلك العذاب ، فكان جزاء هذا التكذيب وذلك الاستهزاء والاستكبار هذا العذاب الذي يدفعون إليه دفعاً عنيفاً ويجرون إليه جراً غير لطيف ، وذلك بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار إهانة لهم وغلظة عليهم ، والذي يصنع بهم ذلك هم الملائكة الغلاظ الشداد ، ثم بعد أن يلقوا بهم في النار فيصلون لهيبها ويتجرعون ويلها يخاطبهم الملائكة موبخين لهم ومتهكمين بهم : إن هذا الذي أنتم فيه هو ذلك الوعيد الذي جاءكم في القرآن فكنتم تخوضون وتلعبون مكذبين مستهزئين به وتقولون إنه سحر ، أفهذا العذاب الذي تعانون غصصه سحر أيضاً ! أم أنكم لا تبصرونه كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ! وهذا قمة في التقريع والتهكم كما يعبر عن ذلك الزمخشري (٢) .

ومن المعاني التي يخرج إليها الاستفهام التهكم : وهو السخرية والاستهزاء (٣) ،

(١) الآيات (٧-١٦) من سورة الطور .

(٢) انظر تفسير الكشاف ٣٤/٤ ، وأبي السعود ٤٦/٨ ، ١٤٧ ، والتحرير والتنوير ٤٤-٣٦/٢٧ .

(٣) حاشية الدسوقي ٣٠٣/٢ .

والتهكم فيه قوة وشدة ومعان زائدة على مجرد السخرية والاستهزاء لأن فيه معنى التهدم والافتحام ، وهو ناتج عن شدة الغضب (١) .

وأما العلاقة بين الاستفهام والتهكم فيرى ابن يعقوب أنها من المجاز المرسل لعلاقة اللزوم ويذكر ذلك في معرض تعليقه على تهكم قوم شعيب - عليه السلام - به فيقول : « والعلاقة أن الاستفهام عن كون الصلاة أمة يناسب اعتقاد المخاطب أنها أمة ، واعتقاد ذلك يقتضي الاستهزاء بالمعتقد ، إذ ليست مما يأمر أو ينهي ، فهو من المجاز المرسل لعلاقة اللزوم في الجملة » (٢) .

أما الدسوقي فيرى أن الاستفهام عن الشيء يقتضي الجهل به ، والجهل به يقتضي الجهل بفائدته ، والجهل بفائدته يقتضي الاستخفاف به ، وهو ينشأ عنه الهزاء ، فهو مجاز مرسل ، ولكنه لا يرى هذا الرأي ، لذلك قال « كذا قيل » ثم يستحسن أن يكون استعمال أداة الاستفهام في التهكم من باب الكناية ، أو يجعله من مستتبعات التراكيب (٣) .

والأظهر أن الاستفهام التهكمي الساخر إنما يفهم من السياق والتركيب وقرائن الأحوال .

(١) أساس البلاغة (هكم)

(٢) مواهب الفتاح ٣٠٣/٢ .

(٣) انظر عروس الأفراح ٣٠٤/٢ .

ومن المعاني التي يخرج إليها أيضاً التحقير ، وهو استصغار الشيء وعده حقيراً (١) فالسائل إذا كان عارفاً بالمستول عنه وقال في مقام السخرية : من هذا ؟ أو نحو ذلك ، فإنه قد استخف وتجاهل ما كان به عارفاً ، أو لم يرض عن حاله ، فالسؤال هنا يعد استخفافاً وتحقيراً (٢) ومناسبة التحقير للاستفهام هي أن الاستفهام عن الشيء يستلزم الجهل به المناسب لحقارته من وجه ، لأن الحقير لا يلتفت إليه فلا يعلم (٣) ، والسائل هنا يقصد من سؤاله تحقير المستول عنه والسخرية منه مع معرفته به ، ومن ذلك قول هشام بن عبد الملك - الذي حكاه الفرزدق - عندما رأى زين العابدين بن الحسين بن علي في الحرم وهو يشق الصفوف فيوسع له الناس ويستقبلونه ببشاشة وبشر ، فخشي عبد الملك من أن يفتتن أهل الشام به ، فقال لمن معه : من هذا ؟ مع معرفته به ، فهو ابن مكة ، ولكنه قصد أن ينكره ، ويستصغره ، ويحقر من شأنه ، فأجابه الفرزدق بقوله :

وليس قولك : من هذا ؟ بضائره العُربُ تعرف من أنكرت والعجمُ (٤) .

ومن الاستفهامات الساخرة التي جاءت على لسان الكافرين يهزون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما حكاه عنهم رب العزة والجلال في قوله : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن ءالهمنا لولا أن صبرنا عليها . وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ (٥) .

(١) معجم مقاييس اللغة (حقر) .

(٢) انظر حاشية الدسوقي ٣٠٤ / ٢ .

(٣) حاشية السيد على المطول ١٣٩ .

(٤) الأغاني ٣٧٦ / ٢١ .

(٥) الآية (٤١) من سورة الفرقان .

ساق الله سبحانه وتعالى قصصا وعبرا قبل هذه الآية ، حيث أورد أخبار قوم موسى ونوح ، وعاد ، وئمود ، وأصحاب الرس ، وغيرهم ، ولكن المشركين لم ينتفعوا ، واستمروا في مزيد السخرية والاستهزاء برسولهم ﷺ ، وفي هذه الآيات يعرض القرآن نوعاً من هذا الاستهزاء ، وهو الاستهزاء به عند رؤيته ، والباعث عندهم على هذا النوع من الأذى رؤيتهم له في غير زي الكبراء والمترفين ، لا يجبر المطارف ، ولا يركب النجائب ، ولا يمشي مرحاً ، ولا ينظر خيلاء ، ويجالس الصالحين ، ويعرض عن المشركين ، ويرفق بالضعفاء والفقراء ، لذا لم يخل حاله عندهم من الاستهزاء به إذ رأوا حاله ليست حال من يختاره الله لرسالته دونهم ، ولا هو أهل لقيادتهم وسياستهم ، لذا عبر عن موقفهم القرآن : « **إِنْ يَتَخَذُونِكَ إِلَّا حَزْواً** » حيث قصر معاملتهم معه ﷺ على اتخاذهم إياه حزواً ، وحين يورد القرآن نموذجاً من هذا الاستهزاء أورد العبارة التي لفظوها : « **أَهْلًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا** » ، فالإشارة للتحقير ، وإبراز بعث الله رسولا في معرض التسليم والإقرار وهم في غاية الجحود والنكران سخريه واستهزاء ، وإلا لقالوا : أبعث الله هذا رسولا .

ويزيدون في الاستهزاء حيث يقررون ثباتهم على مبدئهم ، وأن هذا المدعي للرسالة ضال ، فقد صبروا على تلك الآلهة حتى نجو من مكروه ، فيأتي الرد عليهم : عندما يأتي العذاب يعرف الضال من المهتدي (١) .

ومثله في التحقير والهزاء برسول الله ﷺ ما حكاه الله من قولهم حين رؤية النبي ﷺ :

(١) تفسير البكشاف ٩٨/٣ ، والبحر المحيط ٥٠٠/٦ ، وأبي السعود ٢٢٠/٦ ، والتحريير والتنوير ٣٢/١٩ .

﴿وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكرون﴾ (١) .
وهم يذكرون الرحمن هم كفرون ﴿١﴾ .

هذه الآية أيضاً على نسق سابققتها في بيان نوع من سخريتهم ، وبالتحديد سخريتهم منه صلى الله عليه وسلم عند رؤيته ، وقد انحصر اتخاذهم إياه عند رؤيته في الاستهزاء به دون أن يخلطوا ذلك بحديث آخر ، والاستفهام (أهذا) مستعمل في التعجب ، واسم الإشارة يفيد التحقير بقرينة الاستهزاء وهم يقولون « يذكرون الهتكم » ويقصدون الذكر السيء الذي يسوءهم في الهتكم ، فإن الذكر يكون بخير وبشر ومعلوم أنهم يقصدون الذكر السيء ، ولذا هم غاضبون ويعبرون عن هذا الغضب بهذا الاستهزاء ، حيث يرون آلهتهم أكبر من أن تصل إليها سخرية ساخر ولذا عرضوا به ولم يذكروا أنه رسول البتة وإنما أشاروا إليه إشارة ساخرة ، والذكر الثاني « وهم يذكرون الرحمن » مستعمل في الثناء والتمجيد ، وهم غافلون عن هذا الذكر ولذلك هم يستهزئون برسول الله ﷺ (٢) .

ومن الأساليب الساخرة التي يمارسها المشركون في الصد عن دعوة النبي ﷺ ، ما حكاها الله من قولهم عن نبيه ﷺ :

﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل يبئكم إذا مزقكم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد . أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلل البعيد . أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾ (٣) .

(١) الآية (٣٦) من سورة الأنبياء .

(٢) انظر تفسير الكشاف ١١/٣ ، وأبي السعود ٦٦/٦ ، والتحرير والتنوير ١٧/٦٥ ، ٦٦ .

(٣) الآيات (٧-٩) من سورة سبأ .

ما فتى المشركون من قريش يصدون الناس عن نور دعوة محمد ﷺ ويسلكون لذلك شتى السبل ، فعندما يواجهون بالعقل والحوار المنطقي ويجدون الحجج الدامغة والحوار المقنع ، يغلقون هذا الباب متجهين إلى السخرية والتهكم .

لقد وقف هؤلاء المشركون موقفا عنيدا من « البعث والنشور » والحجة عندهم في ذلك أن عقولهم لم تسلم بهذا ، وحواسهم لم تدرك مثل هذا ، ويعبر عن هذا الموقف هذه الآيات التي تحكي لنا أحد أساليبهم بعد أن أعيتهم الحيلة والحجة ، ولم تستطع عقولهم إدراك هذه الحقيقة ، فإله خلقهم أول مرة ، وهذا يجعل العقل يستنتج أنه قادر على بعثهم مرة أخرى ، ولكن المشركين يلجئون إلى السخرية والتهكم ، فيستخدمون هذه المرة أسلوبا جديدا وهو أسلوب الأحاجي والألغاز ، يقف أحدهم أمام الناس قائلا : هل تعلمون أي رجل يقول إننا إذا متنا وأصبحنا رمما وعظاما بالية سنبعث من جديد ! ، فيجيب أحدهم : من ؟ فيقول آخر : أعرف هذا الرجل ، إنه محمد ، فيعلوا الصراخ والضحك والصخب .

هذا أسلوب العاجز الذي انتهجوه ليجروا الناس إلى حماة الجاهلية ، استخدموا فيه التشويق « الاستفهام » وتنكير المستول عنه « أي رجل » وفيه تناسى لشخصية النبي ﷺ واستهتار به ، هذا مع علمهم به وشهرته بينهم ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم ومع ذلك نكروه ، وعرضوا الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول ، وإنما كانوا يقصدون الطنز والسخرية فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي .

ثم بدأ بعضهم يوحى إلى بعض أن هذا الأمر كذب بين وأن القائل (قد كذب على الله) وفي هذا مزيد سخرية ، بل يتعداها إلى أنه إنكار شامل لرسالته لا لموضوع البعث .

ولا يكتفي المشركون بذلك ، بل يعرضون عن حديثهم هذا ويضربون عنه إلى ما هو أبلغ منه ترقيا من الأهون إلى الأغلظ حيث نسبوه إلى الجنون ، وحاشاه ﷺ ،

فكانهم قالوا دعوا حديث الافتراء فإن هاهنا ماهو أهم منه ، لأن العاقل كيف يحدث بإنشاء خلق جديد بعد الرفات والتراب (١) .

ومن هذه الأساليب قول أصحاب الأيكة في معرض ردهم على نبي الله شعيب عليه السلام : « قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن تترك ما يعبد ءاباؤنا أو أن نفعل في أمولنا ما نشلؤا » (٢) .

وهذا رد واضح التهكم بين السخرية في كل مقطع من مقاطعه ، فهم لم يكتفوا بتكذيب الوحي وما أمرهم به بل قالوا متهمين وساخرين : إنه لا أمر له بذلك إلا هذه الصلاة التي هي بزعمهم ضرب من الجنون والوسوسة ، لأنهم لا يدركون أن الصلاة مقتضيات العقيدة ومن صور العبودية فهي لا تقوم بغير توحيد الله ، وتنفيذ شرائعه في التجارة وغيرها لذلك استهزءوا بها وتهكموا به ، وساقوا الكلام مساق الطنز وجعلوا الصلاة أمرة على سبيل التهكم (٣) .

والاستفهام عن كون صلاته أمرة له بذلك يناسب ادعاء أن المخاطب معتقد له ، وادعاء اعتقاده إياه يناسب الاستهزاء والتهكم ، وبالجملبة استعلام هذه الحال منه يناسب التهكم به (٤) .

والتهكم سلاح قوي يستعمله أولياء الله ضد أعداء الله ، حينما تعيا الخيل وتسد السبل أو حينما يقف الداعية أمام منظر كهذا الذي وقفه إبراهيم الخليل عليه السلام :
 « وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أيفكا ءالهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العلمين . فنظر نظرة في

(١) انظر الكشف ٢٥٢/٣ ، وأبوالسعود ١٢٢/٧ ، وروح المعاني ١٠٩/٢٢ .

(٢) الآية (٨٧) من سورة هود .

(٣) انظر تفسير الكشف ٢٢٩/٢ ، وأبوالسعود ٢٣٢/٤ ، وفي ظلال القرآن ١٩١٩/٤ .

(٤) حاشية السيد على المطول ١٣٩ .

النجوم . فقال إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى ءالهم فقال ألا تأكلون .
مالككم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴿١﴾ .

هذه الآيات تحكي قصة إبراهيم مع قومه ومع أبيه أزر حيث رأهم يعبدون أصناماً ينحتونها بأيديهم ، فهو يستفهم منهم استفهام إنكار وسخرية من سفاهة عقولهم أن صنعوا أصناماً بأيديهم ثم عبدوها ، وهذا غاية في السخف ، ولذا لم يجد إبراهيم عليه السلام بعد إفحامهم وقطع حججهم إلا أن يضعهم وجها لوجه أمام ضعف هذه الأصنام التي يرجون منها دفع الضر ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها ، ويدعونها للنفع ولا تملكه لنفسها ، ولذا ذهب خلصة إليها وأجرى معها حواراً سريعاً برزت فيه روح السخرية بهذا المعتقد الفاسد ، فهو عندما وقف أمامها غاظه شأنها فقال (ألا تأكلون) وفي هذا سخرية واضحة من وجوه - حيث أراد أن يضع ويقرر أنها لا تنفع نفسها فهي لا تأكل . وهو عندما يعرض عليها الأكل يخاطبها مخاطبة العقلاء منزلاً لها منزلة عابديها فهم يأكلون ، وهو وإن كان يرفعها في الحقيقة إلى منزلة العقلاء وهي لا تعقل فإنه قد حط من قدرها ومنزلتها بهذه الطريقة .

وهو في طلبه منها الأكل يسخر منها حيث أن في عابديها قدرة نفع أنفسهم أكثر منها أما هي فلا ، وعابدوها ينطقون أما هي فلا تجيب ، ولذا يسألها حينما لم يجد جواباً : (مالكم لا تنطقون) سخرية واستهزاء بها إذ لم تجبه ، فكان بعد هذا الحوار الساخر المشحون بالغضب والتهكم أن انهال إبراهيم على هذه الآلهة العاجزة ضرباً باليمين (٢) .

(١) الآيات (٨٣ - ٩٣) من سورة الصافات .

(٢) انظر تفسير الكشاف ٣/ ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، وأبي السعود ٧/ ١٩٨ ، وروح المعاني ٢٣/ ١٢٣ .

ولما لهذا الأسلوب من شيوع وقوة تأثير ، كما رأينا في أثناء حديثنا عن الأمثلة القرآنية ، فقد أكثر الشعراء من استعماله في هجائهم ، فمن الاستفهام التهكمي الساخر قول عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي يسخر من امرئ القيس وقومه : (١)

يَا ذَا الْخَوْفِ نَا بَقْلٌ تَلِ أَيْهِ إِذْ لَأَ وَحِينَا
أَزَعَمْتَ أَنْكَ قَدْ قَتَلْتَ سُرَاتَنَا كَذِباً وَمِينَا
هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كَنْدَ عَ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ .. أَيْنَا !

يهزأ عبيد من امرئ القيس ويستخف به ، فلا يناديه باسمه وكأنه نكرة مجهول ليس له اسم قد طبق الآفاق ، بل يشير إليه إشارة تهكم ، ويصفه ساخراً « بالمخوفنا » وكأن هذا التخويف بذاته أصبح مصدر سخرية ، ثم يستفهم منه منكراً عليه ، ومكذباً له في ما ادعاه من قتل سادتهم ، ويوجهه إلى أنه بدل أن يتفرغ لإطلاق الشائعات الكاذبة ، أولى له أن يسأل قومه الذين فروا من المعركة حين شعروا بالهزيمة النكراء ، وحينما ألهبتهم الضربات ، فانهزموا لا يلوون على شيء ، ويكرر الشاعر هذا الاستفهام الساخر « أين أين » تهكماً وسخرية من هذا الفرار الجماعي .

ومن سخریات المتنبي الشهيرة من كافور الأخشيدي قوله : (٢)

مَنْ أَيْةِ الطُّرُقِ يَأْتِي نَحْوَكَ الْكِرْمُ أَيْنَ الْمَحَاجِمُ يَا كَافُورُ وَالْجَلْمُ

يستفهم المتنبي ساخراً ، فيوجه استفهامه إلى كافور الذي تبدى للمتنبي تمثالاً من المخازي لا طريق للكرم إليه ، فأية طريق للكرم نحو من هذه صفاته ، ثم يستفهم ثانية يسأل كافور عن محاجمه وأدواته التي لا يصلح أمره إلا بها ، أما الكرم فمما لا يصلح له ، بل ولا يهتدي لطريقه .

(١) الصناعتين ٢١٣ ، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، البغداد ٢١٣ / ٢ .

(٢) ديوان المتنبي ، بشرح العكبري ١٥٠ / ٤ .

ومنها أيضا قوله في كافور : (١)

من علم الأسود المخصي مكرمة	أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه في يد النخاس دامية	أم قدره وهو بالفلسين مردود
أولى اللثام كويفير بمعدرة	في كل لؤم وبعض العذر تفنيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة	عن الجميل فكيف الخصية السود

يهزأ المتنبي بكافور ويعبث ، فيتساءل : من علم هذا العبد الآبق المخصي ارتقاء المكارم عمن ورثها ، أمن قومه البيض ! أم آبائه السادة الكرام ! أم من النخاس تدمى أذنه في يده حين يعرضه للبيع بأزهد الأثمان ، فلسين فقط ، ولكن مع هذا الكساد لا يجد له مشترياً ، فكثير فيه هذا الثمن ؛ لأن من عرف قدره استكثر فيه الفلسين ، ثم يعتذر المتنبي لهذا الكويفير ، فيرى أنه أحق اللثام بالعذر ، إذن الكرام السادة النجباء لتعجز عن هذا الجميل ، فكيف بهذا المخصي الآبق .

ومن هذه الاستفهامات التي تدل على التجاهل والتحقير ، بقصد السخرية والتجهيل والخط من القدر ، ما قاله محمد بن يزيد الحصني في الرد على عبدالله بن طاهر لما افتخر بقومه الفرس وبآبائه وأجداده الذين يمن بفضلهم على بني العباس ، يقول محمد بن يزيد : (٢)

لا يرعك القال والقيـل	كل ما بلغت تهـويل
أيها البادي بنسبـه	ما لما قد قلت تحصيل
يا بن بنت النار موقدها	ما لحاذيه سراويل
من حسين ! أو أبوك ! ومن	مصعب ! غالتهم غول

(١) ديوان المتنبي ، بشرح العكبري ٤٦/٢ .

(٢) الفرج بعد الشدة ، للتنوخي ٢٣٤ .

وزريق إذ تخلفه نسب عمرك مجهول
تلك دعوى لاناقتها وأبوات مراذيل
أسرة ليست مباركة غيرها الشم البهاليل

يردد ابن يزيد هذه الاستفهامات الساخرة محقرا ومستخفا بشأن هؤلاء الآباء
التكرات المجاهيل ، فليس بمثلهم فخر ، لأن الفخر بغيرهم من السادة الأعزة البهاليل .
ومن السخریات الشهيرة قول ابن أبي عيينة يسخر من ذاك الذي تهدده وتوعده ،
وهو علي بن محمد العلوي ، وكان قد دعاه إلى نصرته فلم يجبه الشاعر ، فتوعده ، فقال
له هذا الشعر : (١)

أعلي ، إنك جاهل مغرور لا ظلمة لك لا ، ولا لك نور
فدع الوعيد فما وعيدك ضائري أطين أجنحة الذباب يضير !

ينادي الشاعر مهجوه نداء استخفاف فهو إنسان مغرور جاهل بقدر نفسه ، سمج
لا يستطيع نفعا ولا ضرا ، ثم يأمر ابن أبي عيينة خصمه بأن يترك عنه التهديد والوعيد ،
وهو أمر احتقار واستخفاف ، ذلك لأن هذا الوعيد لا قيمة له ، ومعنى ذلك أن صاحبه
الذي صدر عنه أيضا لا قيمة له ، فهو أشبه بطنين الذباب إذا ما حرك جناحيه ، وهل هذا
الطنين مما يضر ، إن ذاك الوعيد كهذا الطنين . سخرية كان قوامها ذلك الأمر بالترك
والتشبيه الساخر للوعيد بطنين أجنحة الذباب والاستفهام التهكمي .

ومن ذلك أن زياد الأعجم (*) الشاعر كان قائماً يخطب في مسجد البصرة يوماً

(١) دلائل الإعجاز ١٢١ .

(*) زياد بن سلمى ، قيل له الأعجم للكنة فيه ، كان خطيباً وكاتباً داهية وشاعراً أكثر شعره
الهجاء ، توفي في حدود المائة . معجم الأدباء ١١ / ١٦٨ .

فدخل عليه أبو قلابة الجرمي (*) ، فقال : من هذا العليج ؟ فقال زياد : من هذا ؟ قالوا :
أبو قلابة الجرمي ، فقام على رأسه فقال : (١)

قُمْ صَاغِراً ، يَا شَيْخَ جَرَمٍ ، فَإِنَّمَا
فَمَنْ أَنْتُمْ ؟ إِنَّا نَسِينَا مَنْ أَنْتُمْ
أَأَنْتُمْ أَوْلَى جَنْتُمْ مَعَ النَّمْلِ وَالِدَبِيِّ
قَضَى اللَّهُ خَلْقَ النَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمْ
فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بَيْنَ كَانَ قَبْلَكُمْ
يُقَالُ لَشَيْخِ الصَّدَقِ : قُمْ غَيْرَ صَاغِرٍ
وَرِيحُكُمْ مِنْ أَيْ رِيحِ الْأَعَاصِرِ
فَطَارَ ، وَهَذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرٍ
بَقِيَّةَ خَلْقِ اللَّهِ آخِرَ آخِرٍ
وَلَمْ تُدْرِكُوا إِلَّا مَدَقَّ الْحَوَافِرِ

التهكم غضب وتقحم ، وتعرض للناس بالشر (٢) وقد أبلغ زياد في التهكم بهذا
الشيخ الجرمي ، إذ يأمره أن يقوم صاغراً لأنه شيخ سوء ، ويرد عليه إهانتة وهزئه بأبلغ
منه ، فيجهله هو وقومه ويتناساهم ، بل ويهزل ويتماجن باستخفاف حينما يسأله أنتم
الذين جئتم مع النمل والدبى مع هذه الطيور الحقيرة التي تظهر فجأة وتختفي فجأة ، فلا
أصل لكم ولا فصل . فأنتم آخر الخلق وفي هذا التكرار « آخر ، آخر » مبالغة وتأكيد لهذا
التأخر المزعوم ، فهؤلاء القوم ليسوا سوى بقية وحثالة ليس لهم في الفضل والمكرمات
قدم سبق لأنه قد ذهب بها من كان قبلهم من أهلها أما هم فقد أبطأ بهم أصلهم الوضع
فلم يدركوا إلا آثار من سبق بالفضل فعجزوا عن اللحاق بهم .

كما يحكى عن المستنصر الفاطمي حاكم مصر ، أنه لما كتب كتاباً إلى الخليفة

(*) عبد الله بن زيد البصري ، تابعي ثقة عالم بالحديث والقضاء توفي بالشام سنة ١٠٤ هـ .

تهذيب التهذيب ١٩٧/٥ .

(١) انظر العمدة ٢/٨٥٠ ، ٨٥١ .

(٢) معجم مقاييس اللغة (هكم) .

ببغداد المسمى بالقائم بأمر الله ، وكتب عنوانه « من ابن عمه » ووصل كتابه إلى القائم بأمر الله ، ورأى العنوان فكتب إلى جانبه سطرًا يقول فيه : (١)

ومن أنتم إنا جهلنا من أنتم وريحكم من أي ريح الأعاصير

يستشهد بييت زياد الأعجم السابق تحقيراً لذلك الفاطمي المدعي وخطاً من قدره ، وتهكماً بدعواه تلك .

من خلال الأمثلة السابقة يتضح أن المعاني الاستفهامية يمكن أن تتعدد في نص واحد ، وهذا أمر طبعي في كثير من الأساليب البلاغية ، فكثيراً ما تتعدد المعاني البلاغية في الأسلوب الواحد ، ويندر أن يكون المعنى واحداً ، لذلك نلجأ عند تحليلنا لأسلوب استفهامي إلى ذكر جملة من المعاني ، فنقول مثلاً ، إنه إنكار ، وتوبيخ ، وعتاب ، وتعجب ، وذلك « لأن المعاني التي يفيدها الاستفهام كثيراً ما تكون خفية وسانحة ومتفلته » (٢) .

والدلالة كما قيل بنت السياق ، والسياق إنما هو تركيب له خصائص وعناصر وعلاقات ، والتعرف على تلك الخصائص والعناصر والعلاقات يساعد على معرفة دلالة السياق والكشف عن تلك المعاني .

وهذه المعاني البلاغية للاستفهام كثيرة لا يمكن حصرها ؛ لأن « كل جملة استفهامية تمثل نموذجاً مستقلاً له خصوصيته من حيث كونها استفهامية ، ومن حيث كونها تنسيقاً جديداً للألفاظ ولذا فإن حصر المعاني الاستفهامية في معان محددة يجعلها قاصرة عن استيعاب أطراف الدلالة وأبعادها » (٣) .

(١) جوهر الكنز ٣١٣ .

(٢) دلالات التراكيب ٢١٨ .

(٣) انظر أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي ١٦ ، ١٧ .

وقد قسم بعض الباحثين هذه المعاني إلى معانٍ أصلية وأخرى فرعية (١) والأقرب إلى الصواب أن المعاني كلها سواء يمكن أن يدل على أحدها أي سياق استفهامي ، نعم هناك معانٍ في السياق تكون أكثر وضوحاً من غيرها ، ولكن ليس معنى ذلك أن هذا الوضوح مقتصر على معانٍ أصلية دون غيرها فالتعجب - وقد عد في المعاني الفرعية - يمكن أن يكون أوضح من غيره من المعاني في سياق ما ، كما في قوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحيكم ﴾ (٢) .

وفي السياق البلاغي يغلب أن يكون هناك « معنى أو إحساس مسيطر أكثر ظهوراً من غيره ولا ينفي معاني أخرى متولدة ممتدة متصلة به ، ذلك لأن المعاني البلاغية للاستفهام معاني شعورية انفعالية تموج بها النفس البشرية ، متداخلة متعاقبة أو متقاربة » (٣) .

وقد عد القزويني للاستفهام البلاغي عشرة معانٍ يخرج إليها ، ثلاثة منها معانٍ يغلب عليها الدلالة على التهكم والسخرية ، وهي الإنكار ، والتهكم ، والتحقير ، ولكن الدلالة على السخرية ليست مقصورة في هذه المعاني الثلاثة ، بل قد يكون الغرض من تقرير شخص تبكيته والتهكم به والسخرية منه . « وحقيقة استفهام التقرير أنه إنكار » (٤) .

وعبد القاهر الجرجاني عندما علق على مقولة إبراهيم عليه السلام مع قومه قال : « واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان ، وإنكار له لم كان ، وتوبيخ لفاعله عليه » (٥) والآيات هي قوله تعالى : ﴿ قالوا ءأنت فعلت هذا بالهتأ يا إبراهيم ، قال

(١) أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ٢٤٧ .

(٢) بعض الآية (٢٨) من سورة البقرة .

(٣) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ١٢٥ .

(٤) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، د. فتحي عامر ٣٦٧ .

(٥) دلائل الإعجاز ١١٤ .

بل فعله كبيرهم هذا فسلوهم إن كانوا ينطقون ﴿ (١) ، ويعلق عليها الزمخشري بقوله : « هذا من معارض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني ، والقول فيه إن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلا أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك - وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط - : أنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أُمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة ، فقلت له : بل كتبت أنت ! كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأُمي أو المخرمش ؛ لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر » (٢) .

وفي الآيات التالية يتعانق التقرير مع السخرية ، ويعقبها الإنكار الموبخ الساخر ، في نسق قوي مسكت ، وسياق يفضي إلى تقرير يتولد معه التهكم بأولئك الذين اتخذوا من دون الله أولياء عاجزين ، فهم لضلالهم لا يدركون الفرق بين الأعمى والبصير ولا بين الظلمات والنور والآيات هي :

﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشبه الخلق عليهم قل الله خلق كل شيء وهو الواحد القاهر ﴾ (٣)

(١) الآيات (٦٢ - ٦٣) من سورة الأنبياء .

(٢) تفسير الكشاف ١٥ / ٣ .

(٣) الآية (١٦) من سورة الرعد .

وقل مثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ﴾ (١) . فهذا تقرير معه تهكم وتوبيخ .

وقد يصحب الاستفهام الساخر أو يكون مع التنبيه على الضلال ، فيكون تنبيهاً لذلك الضال وسخرية من تماديه وسيره في طريق الضلال ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون . ولقد رءاه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ﴾ (٢) .

تبين الآيات أن القرآن من عند الله نزل به جبريل الذي هذا وصفه على محمد الذي هذا وصفه ، فأين تذهبون حين تقولون إنه إفك وأساطير الأولين ؟ والاستفهام هنا ليس تنبيهاً على ضلال فحسب ، وإنما هو بجانب ذلك إنكار ونفي واستجهاً وتشهير بغفلتهم وتضييق عليهم (٣) .

وقد يصحب الاستفهام الساخر أو يكون مع الاستبعاد فكلمة « أيان » التي يقول البلاغيون إنها تستعمل في « المواضع التي يعظم المتكلم فيها الشيء الواقع في الزمان » (٤) يستعملها الكفار في السؤال عن يوم القيامة استهزاء وسخرية واستبعاداً لذلك اليوم ، « وكان المشركون يسألونه عليه السلام استعجالاً واستهزاء ويسأله اليهود امتحاناً لما أن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وسائر الكتب » (٥) ويحكى الله سبحانه وتعالى ذلك على

(١) الآية (٥٠) من سورة النور .

(٢) الآيات (١٩ - ٢٦) من سورة التكوين .

(٣) انظر دلالات التراكيب ٢٢١ .

(٤) شرح عقود الجمان ١/ ١٨٤ .

(٥) انظر تفسير أبو السعود ٧/ ١١٦ .

لسان الكافر : ﴿ بل يريد الإنسلن ليفجر أمامه يسئل أيان يوم القيامة ﴾ (١) ،
 وقوله : ﴿ يسئلون أيان يوم الدين ﴾ (٢) وهو أيضا سؤال استهزاء واستبعاد . وإنكار
 الوقت في « أيان » يعني « إنكار الحدث الواقع فيه وهو البعث وهذه الأسئلة تمثل غاية
 الاستبعاد والسخرية الهازئة والإنكار العنيد والاستعجال الهازل » (٣) .

وإفادة « أيان » - في الموضعين - للتفخيم لا تناقض كون هذا الاستفهام صادر من
 منكر ومكذب للبعث إذ أن التفخيم هنا وارد باعتبار أن هذا القائل يقول هذا السؤال بناء
 على اعتقاد المخاطب استهزاء به وإنكارا عليه ، فالنبي ﷺ كان يتلو عليهم آيات الله ونذر
 القرآن التي تصور يوم القيامة وهوله ، كل ذلك في أساليب جليلة مهولة ، فجاء رد الكافر
 محاكيا هذا الأسلوب ، وذلك الاهتمام مستفهما « بأيان » إمعاناً في السخرية والاستبعاد
 والتكذيب (٤) .

ومن الأساليب التي يخرج إليها الاستفهام الأمر وقد يكون معه السخرية والتوبيخ
 لأن المخاطب قد ترك أمرا ما كان ينبغي أن يتركه فاستحق أن يوبخ على هذا الترك ، ويفيد
 أيضا هذا الأسلوب طلب ذلك الفعل المتروك ، ومن ذلك أساليب : ألا تتقون ، وأفلا
 تعقلون ، أفلا تبصرون .

فالمراد بالاستفهام هنا الإنكار على من لم يتق ولم يعقل ويبصر وتوبيخه على هذا
 الترك وطلب الالتقاء والعقل والبصر .

(١) الأيتان (٥ ، ٦) من سورة القيامة .

(٢) الآية (١٢) من سورة الذاريات .

(٣) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ١٧٣ .

(٤) انظر شروح التلخيص ٢/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

ومن أساليب الاستفهام التي خرجت إلى الأمر وقصد بها السخرية قول إبراهيم للأصنام عندما دخل عليها « ألا تأكلون » (١) أي كلوا ، يطلب منها الأكل مع علمه بأنها لا تأكل سخرية بها وبعابديها (٢) .

وبعد فإن دراسة الاستفهام بعيداً عن التطبيق والتحليل تعد دراسة قاصرة مالم تشفع بالنظرة التحليلية ؛ لأن ذلك لا يتفق وطبيعة أسلوب الاستفهام « ذلك الأسلوب الذي تتعدد فيه دلالات الجملة الواحدة ، فنرى أن بعضها يرتبط بإطار عام ثم يتفرع بحيث تتداخل المعاني وتتراكب وتتسع » (٣) ، لذلك أكثر في هذا المبحث من الأمثلة والتحليل ، ونوعت الأمثلة ، فأمثلة قرآنية وأخرى شعرية ، واعتمدت في ذلك بعد النظر في أصح الأقوال على الاستقصاء في التحليل والتعليل .

(١) بعض الآية (٩١) من سورة الصافات .

(٢) انظر أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ٥٣ - ٥٦ .

(٣) أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي ١٠ .

الأمر الساخر

من أساليب الإنشاء الطلبي التي تأتي منها السخرية الأمر ، ويعرفه البلاغيون بأنه : « طلب فعل - غير كف - على جهة الاستعلاء » (١) .

والاستعلاء المقصود هو « عد الأمر نفسه عالياً ، سواء كان عالياً في نفسه حقيقة أم لا ؛ لتبادر الفهم عند سماع صيغته إلى ذلك ، والتبادر علامة الحقيقة ، هذا هو الأصح عند علماء الفن » (٢) .

وصيغته ، كل فعل أو اسم دل على طلب فعل - غير كف - استعلاءً . وهي أربع صيغ فالفعل نحو : « أكرم » ، والمضارع المقرون بلام الأمر نحو : « ليضرب » ، والاسم نحو : « رويداً » اسم فعل أمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر نحو : « ضرباً » (٣) .

وهذه الصيغ قد تستعمل في غير طلب الفعل على جهة الاستعلاء ، فتفيد معاني كثيرة تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، أوصلها بعض الشراح إلى خمسة وعشرين معنى (٤) ، ويمكن أن يدخل بعض هذه المعاني في بعض ، فتختصر كما فعل الخطيب القزويني ، فذكر منها :

الإباحة ، والتهديد ، والتعجيز ، والتسخير ، والإهانة ، والتسوية ، والتمني ، والدعاء ، والالتماس ، والاحتقار (٥) .

(١) مختصر السعد على التلخيص ٣٠٨/٢ ، ٣٠٩ .

(٢) انظر شرح عقود الجمان ١٩٠/١ .

(٣) مواهب الفتاح ٣١١/٢ ، وشرح عقود الجمان ١٩٠ .

(٤) عروس الأفراح ٣١٢/٢ - ٣٢٢ .

(٥) الإيضاح ٣١٢/٢ - ٣١٤ ، ٣١٧ - ٣٢٠ .

ومعلوم أن تعيين معنى بلاغي واحد والنص عليه في أي سياق لا يعني أن السياق لا يحتمل معاني أخرى ، بل إن هذا المعنى أكثر ظهوراً ووضوحاً من غيره ، فالسياق يمكن أن يفيد عدداً من المعاني المتقاربة المتداخلة ، ذلك أن هذه المعاني شعورية انفعالية تتوارد على النفس ويزدحم بها الوجدان .

وخروج الأمر إلى هذه المعاني تعددت فيه آراء العلماء ، فبعضهم يجعله من قبيل الكناية ، وبعضهم يجعله من قبيل المجاز فيحاول أن يؤلف العلاقات بين هذه المعاني ودلالة الأمر عليها وبعضهم يجعله من قبيل مستتبعات التراكيب ذلك أن هذه المعاني سياقية تفهم بقرائن الأحوال ودلالة التراكيب (١) . والأقرب إلى الصواب أنها معاني سياقية تفهم وتستفاد من مستتبعات التراكيب .

وقد يخرج الأمر عن معناه الأصلي لغرض السخرية والتهكم ، وغالباً ما تصاحب السخرية كذلك أغراضاً مثل : التسخير ، والإهانة والتحقير ، مع أننا لا ننفي أنها قد تصحب أغراضاً أخرى مثل ، التهديد ، والتعجيز ، والتكذيب ، ذلك لأن هذه المعاني سياقية تكون في موضع أكثر وضوحاً منها في موضع آخر ، ثم إنها يمكن أن تصنف في مجموعة المعاني الانفعالية الغاضبة التي تهدف إلى التقويم أو التوضيح عن طريق السخرية .

ومن المعاني التي يخرج إليها الأمر الإهانة ، أي الإذلال ، وهي إظهار ما فيه تصغير المهان وقلة المبالاة به . وحاصله أن صيغة الأمر ترد للإهانة إذا استعملت في مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور على أي وجه كان ، والعلاقة بين الأمر والإهانة واضحة ؛ لأن

(١) انظر شروح التلخيص ٣١٣/٢ وما بعدها .

طلب الشيء من غير قصد حصوله لعدم القدرة عليه مع كونه من الأحوال الخسيسة يستلزم الإهانة (١) .

« والإهانة يلزمها غالباً التهكم والسخرية بالمهان » (٢) ذلك لأنه بلغ من المهانة بحيث يؤمر ولكن ليس لقصد أن يمثّل للأمر ، بل ليشعر باستعلاء الأمر عليه وتهكمه به ، وبحقارة نفسه وهوانها ، فالأمر لا يقصد إلا إنزال الهوان والسخرية بالمأمور ، والمأمور به هنا يكون خسيساً أولاً ، وغير مقدور عليه في الغالب (٣) .

والفرق بين الإهانة والتسخير ، أن التسخير « يحصل فيه الفعل حال إيجاد الصيغة ، والإهانة لا يحصل فيها الفعل أصلاً ؛ لأن المقصود فيها تحقير المخاطبين وقلة المبالاة بهم لا حصول الفعل » (٤) .

وكم تكون هذه الإهانة قاسية ومتهكمة هازئة ، وذلك حينما يؤمر المهان فلا يجيب ، ومعلوم أن الأمر حقه الفور كما قال السكاكي (٥) . ذلك أنك إن قلت لغلامك : افعل ، ولم يفعل ، فأمرته بأمر فلم يطعك فهو عاص ، لذلك عرفه ابن فارس بقوله : « ما إذا لم يفعله المأمور به سمي المأمور به عاصياً » (٦) ، لكن المأمور هنا حينما يراد من الأمر الإهانة يقف صامتاً يتلقى تلك الأوامر التي تنزل به أقسى الإهانات ، فتجعله في موقف مضحك مزرٍ ، إذ يطلب منه أن يفعل ولكنه لا يتحرك ؛ لأنه يدرك

(١) انظر حاشية الدسوقي ٣١٧/٢ ، وشرح عقود الجمان ١٩١/١ .

(٢) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ٤٦ .

(٣) البلاغة الاصطلاحية : د. عبده قلقيلة ١٥٨ .

(٤) انظر حاشية الدسوقي ٣١٨/٢ .

(٥) انظر مفتاح العلوم ٣١٨ .

(٦) الصاحبي ٢٩٨ ، ٣٠٢ .

بأن قصد الأمر بأمره ليس هو حصول المأمور به ، بل إنزال الهوان بالمأمور ، والتهكم به ، والسخرية من حاله في أغلب الأحيان .

ومن المعاني التي يخرج إليها الأمر التسخير ، وهو « السياقة إلى الغرض المختص قهراً » (١) والتبديل من حالة إلى أخرى فيها مذلة ومهانة . والفرق بينه وبين التكوين أن التسخير تبديل من حالة إلى أخرى أخس منها ، والتكوين إنشاء من عدم لوجود (٢) .

والتسخير قد يكون إخباراً بالحقارة والمذلة وانحطاط القدر ، وسخرية بالمسخرين الذين بلغوا من الخساسة والمذلة بأن يقال فيهم إنهم أذلاء محتقرون ممسوخون (٣) .

والتسخير أخص من الإهانة إذ فيه يحدث المأمور به ، كتحويل بعض اليهود قردة وجمهور المفسرين على أن المسخ حقيقي ، ويضاف إلى التسخير سرعة التكوين ، أو كما قالوا سرعة الكون على هذا الوصف نكالا لهم وموعظة للمتقين (٤) .

والتسخير تبديل من حالة إلى حالة أخرى أخس ، ففي هذا التبديل إهانة وإذلال واحتقار للمسخر ، وهذه المعاني كثيراً ما يصاحبها التهكم ، كما في قوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل الذين قيل لهم لا تعدوا في السبت ، فعمدوا إلى حيلة سخيفة ، حيث كانوا يلقون شباكهم يوم الجمعة ويستخرجونها يوم الأحد ، وهذا من فرط استخفافهم وعدم مبالاةهم بأوامر الله عز وجل ، فغضب الله تعالى من صنيعهم ، فأحالهم إلى قردة وخنازير وإذلالاً وإهانة لهم ، وسخرية من حيلهم التي لا تجوز على الله سبحانه وتعالى (٥) .

(١) مفردات الراغب ٢٢٧ .

(٢) انظر مواهب الفتاح ٣١٧/٢ .

(٣) انظر عروس الأفراح ٣١٧/٢ .

(٤) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ٤٨ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ١٠٥/١ .

وأساليب الإهانة الساخرة المتهكمة كثيرة ومتنوعة في القرآن الكريم ، وقد تكون لوناً من ألوان التعذيب يوم القيامة ، فمن أساليبها عند الإمام القزويني قوله تعالى على لسان المكذبين بالبعث والنشور وهم يسخرون من ذلك (١) ، قوله جل وعلا :

﴿ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَلْنَا ءَءَنَّا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝ (٢) .

هذا لون من ألوان السخرية والاستهزاء يمارسه المشركون ضد النبي ﷺ وعلى الأخص ضد حقيقة (البعث والنشور) فهم يتساءلون جهاراً وسراً ، والوجه الذي يكون سخرية واضحة منهما هو الجهر حيث يكون فيه إيلاام واستهزاء ، والدليل الأمر بالقول رداً على القول المسموع وهو سؤالهم ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَلْنَا ءَءَنَّا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ ﴾ .

فيأتي الجواب مجانسا ومشاكلا لسؤالهم بقوله (كونوا) لأنهم قالوا (أءذا كنا) فجاء الرد أمراً لهم بقوله (كونوا) وفيه استهانة مشابهة لقول الله تعالى في آية أخرى (ألقوا ما أنتم ملقون) وهو أمر إهانة وتهكم .

ويراد من هذا الأمر المتهكم أن يدحض حجة هؤلاء ، فإن كانوا يظنون أن العظام والرفات لا تعاد فليكونوا حجارة أو حديداً أو أي هيئة يرونها تصلح بعد موتهم أن تعاد ؛ لأنهم استصعبوا ذلك ورأوه محالاً ، توصلاً منهم إلى إنكار بعثهم ، فأمرهم الله أن

(١) الإيضاح ٣١٧/٢ .

(٢) الآيات (٤٩ - ٥١) من سورة الإسراء .

يكونوا حجارة أو حديدا ، وهي ضد ليونة العظام والرفات ، أو يختاروا شيئا أكبر في عقولهم لا يزول بعد الموت ، فالله قادر على إعادتهم لأنه قد بدأهم أول مرة .

فالأمر عند الله سيان ، حديد أو رفات ، الكل مبعوث ، وما قوله في هذه الآية (قل كونوا) إلا سخرية بأحلامهم وعقولهم ، وسر بلاغة التعبير إظهار التهكم بهم حتى يتلفتوا إلى ما هم فيه من المهانة والذلة فيقلعوا عن عنادهم وتكبرهم .

ثم يتبع الحديث حيث يسأل المشركون في سخرية « من يعيدنا » فيأتي الجواب مفحما : « الذي خلقكم أول مرة » ، وإعادة الخلق أهون من بدئه ، وإن كان يستوى الأمران عند الخلاق العليم .

ثم يأتي السؤال الساخر من المشركين عن يوم القيامة حيث يسألون (متى هو) ولم يقولوا (متى الساعة) وإنما أرادوا مزيداً من السخرية ، فجاءهم الرد الذي أقفل كل مجالات الجدل ، وتركهم في ريبهم يترددون (قل عسى أن يكون قريبا) (١) .

ودلالة الأمر على التهكم والسخرية كثيرة في الذكر الحكيم ، يقول الزمخشري في معرض تعليقه على قوله تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صدقين » (٢) .

يقول : « وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن المعجز بفصاحته غاية التهكم بهم » (٣) ، والسخرية هنا منشؤها هذه المفارقة المضحكة ، أن يُطلب منهم الاستعانة بأصنام صماء لمجارات وتحدي كلام معجز ، فكأن هذه السخرية

(١) انظر تفسير أبو السعود ١٧٧/٦ ، ١٧٨ ، وروح المعاني ٩١/١٥ ، ٩٢ ، والتحرير والتنوير

١٢٣-١٣٠ ، ومن بلاغة النظم العربي ، د. عبدالعزيز عرفة ٧٩/٢ .

(٢) الآية (٢٣) من سورة البقرة .

(٣) تفسير الكشاف ٤٩/١ .

تضعهم أمام عقولهم وتهزها هزة عنيفة عليها توقظهم من غفلتهم فيعودوا ليتفكروا في شأن هذه الأصنام العاجزة .

وأمر المشركين بأن يدعوا شركاءهم يوم القيامة ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ، إنما قصد به السخرية والتهكم بهم كما هو واضح من سياق الآيات وأقوال المفسرين فيها ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ (١) .

الخطاب للنبي ﷺ ، قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر « وذلك على سبيل التهكم » (٢) . وكثيراً ما يتكرر هذا الأسلوب في القرآن الكريم فيكون لونا من ألوان التعذيب النفسي يوم القيامة ، إضافة إلى العذاب الجسدي الذي يعانيه الكاذبون والمعاندون .

وقد يكون تهكما وسخرية على ألسنة الرسل والناصحين بمن يرى الحق لا مرية فيه ثم ينكص عنه تكبراً وعلواً . والصور التي تسخر من مآل المشركين يوم القيامة كثيرة أيضاً وهي تصور المشركين في أوضاع تثير كثيراً من مشاعر النفس وانفعالاتها . وهناك صور كثيرة للقادة الذين تزعموا حملة الشرك وحرب الإسلام ، وكانوا أكثر صلفاً وإعراضاً وصدأ من غيرهم ، وكانوا يرون لأنفسهم العزة والقوة والتسلط ، ويعدون بين أتباعهم مثلاً للكبر والجبروت ، ولكن القرآن يصور لهؤلاء المتكبرين المتجبرين حالهم يوم القيامة وما هم فيه من ذلة ومهانة ، فيفضح حقيقتهم أمام أتباعهم في الدنيا بسخريته منهم ويفزع قلوبهم بذكر ذلك الهوان والمصير الذي ينتظرهم .

(١) الآية (٥٦) من سورة الإسراء .

(٢) انظر التفسير الكبير ، للفخر الرازي ٢٥ / ٢٥٤ .

ومن ذلك ، تكرار الفعل « ذق ، وذوقوا » بصيغة الأمر خطاباً للمتكبرين ، والذوق وجود الطعم بالفم ، وهو لا يكون إلا لمطعموم يساغ ، وقد ورد بصيغة الأمر في القرآن ثلاثاً وعشرين مرة ، في أساليب قوية ساخرة متhekمة (١) . نعرض لصورتين منها ، تُظهر أولئك الزعماء المستكبرين وهم يعالجون غصص العذاب ومرارة المذلة والهوان ، ويتلقون التهكم والسخرية التي تزيد في عذابهم .

أول هذه الصور تتحدث عن مصير ذلك المشرك المعاند ، فتصوره وهو يتلقى جزاء عناده وإعراضه وعداوته للحق وأهله ، فتصوره الآيات وهو يتلقى ذلك البلاء والعذاب الذي لا يطاق ، وهو مسلوب الإرادة لا يستطيع أن يفر أو يهرب ، ومن الطبيعي أن الإنسان حينما يحس بقرب خطر أو حدوث ألم يسارع إلى تحريك يده ليتقي بها ذلك الخطر ، ولكن الآيات تصور ذلك المشرك وهو عاجز مستسلم لا يستطيع أن يرد بيديه ؛ لأنهما مغلولتان ، فلا يملك إلا أن يرد ويتقي ذلك العذاب بوجهه ، يدفع به عن نفسه يمينه ويسرة ، ما أقطعها من صورة ! شخص يأتيه العذاب من كل مكان وهو مغلول لا يستطيع أن يدافع عن نفسه إلا بوجهه ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب ﴾ (٢) ، وتأتي السخرية بعد ذلك في التعليق التالي لهذه الصورة لتزيد المعاناة وتزلزل مابقى في النفس من رجاء ﴿ وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ فأمر من هذا حاله بأن يذوق العذاب وهو منغمس فيه سخرية بالغة ، تنزل عليه كالصاعقة فتطفئ ما في نفسه من أمل في الخلاص ، وتزيد في عذابه وتحطم نفسيته (٣) .

(١) انظر مفردات الراغب : (ذق) ، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن : (ذاق) .

(٢) الآية (٢٤) من سورة الزمر .

(٣) انظر في ظلال القرآن ٣٠٤٩/٥ ، وأساليب السخرية في القرآن الكريم ١٠٨ ، ١٠٩ .

والصورة الثانية ، يرسم فيها القرآن الكريم صورة لذلك الزعيم المتغطرس المتكبر الذي يدعي لنفسه العزة والكرامة ، فيظهره في منظر مهين ، حيث نرى هذا الزعيم المتكبر الذي كان لا يرى سلطانا فوق سلطانه ، نراه يقف ذليلاً أمام سلطان الله ﴿ إن شجرت الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سوء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (١) .

تبدأ الآيات بوصف طعام هذا الأثيم ، والذي أعد له خصوصاً ، فهو لا يزال يحظى بنوع من الخصوصية والعناية حيث أضيف الطعام إليه ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ فيجر هذا الأثيم إلى حيث الطعام المعد جراً ، ويسحب سحباً ، ثم يلقي في النار كأي شيء تافه ثم يصب من فوق رأسه العذاب صبا ، وهو مستكين ذليل لا يملك دفعاً عن نفسه ولا صدا ، وتأمل إيجاءات الألفاظ الرهيبة : خذوه ، اعتلوه : أي فقودوه بعنف وغلظة ، والعتل أن يؤخذ بتلابيب الرجل فيجر إلى حبس أو قتل ، ثم يصب عليه العذاب النفسي في صورة سخرية واستهزاء صاعق ، وذلك حين يدعى - وهو النزيل العزيز المكرم - إلى أن يذوق هذا الطعام المهين ، الذي هو كدردي الزيت المغلي أو كذائب الفضة والنحاس ، يغلي في بطنه فيقطع أمعاءه ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ هكذا بأسلوب القصر وضمير الفصل تأكيداً لتلك الخصوصية ، حيث تؤكد له عزته وكرمه بعدة مؤكدات (إن) والضمير (أنت) (والألف واللام) في (العزيز الكريم) هذا مع أنه يرسف في هذا الهوان الشديد . وتبدو روعة الصورة في الموازنة بين منجد هذا الزعيم وجبروته في الدنيا ، وبين حاله الدليلة المهينة عند الله وقد جمع عليه عذابان ، العذاب

(١) الآيات (٤٣ - ٥٠) من سورة الدخان .

الحسي الذي يصب على الجسد ، والعذاب النفسي الذي ينصب على النفس والحس ، فيزيد من معاناتها وعذابها ، وعنصر العذاب المعنوي هو ما تشير إليه تلك الألفاظ : خذوه ، فاعتلوه ، ذق ، من سخرية وتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه فإذا أعيدت على مسامعه كلمات العزة والكرامة والكبرياء طعنت قلبه وزلزلت كيانه (١) .

ومن هذه الصور القرآنية التي تتحدث عن حال الكافرين يوم القيامة وما يجدونه من سخرية وتهكم جزاء سخرياتهم في الدنيا بأنبياء الله ورسله وشرائعه ، قول الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ . وَقَالُوا يُولَيْنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ . هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ . احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقَفُوهمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ . بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

يتحدث القرآن قبل هذه الآيات عن المشركين وهم في إعراضهم وكفرهم بالبعث والنشور ، وفي غمرة هذا الإعراض ينقل القرآن مشهدهم فجأة وقد بدت عليهم الدهشة والفرع ، إذ هم الآن فيما انكروه قبل لحظات ، وعند ذلك فالكلام لغيرهم والقرار ليس بأيديهم . ويؤمر الملائكة حينها بأن يقرنوا كلاً مع آلهته ، أو من يشابهه وينظره في العمل ، ثم يسخر منهم ، حيث يأمر الملائكة بهدايتهم إلى النار ، والهداية لا تكون إلا للمحجوب من الأمور ، التي يستبشر بالدلالة عليها ، أما هؤلاء فهدايتهم إلى أمر مكروه ، والمقصود تعريفهم بطريقها ، وأن يروها ، وكذلك التعبير (بالصراط) تهكم بهم ، إذ هم من قبل قد اتبعوا سبلاً كثيرة ، وتنكبوا عن صراط الحق ، فهاهم اليوم يسلكون (صراطاً)

(١) انظر تفسير الكشاف ٤٣٤/٣ ، ٤٣٥ ، في ظلال القرآن ٣٢١٧/٥ ، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ٤٦ ، أساليب السخرية في القرآن الكريم ١٠٩ ، ١١٠ ، المعاني الثانية ٣٧٨ .

(٢) الآيات (١٩ - ٢٦) من سورة الصافات .

واحداً إلى النار ، ولزيد التهكم بهم يوقفون للسؤال بعد أن عرفوا مصائرهم ومثواهم الأخير ، وهذا الإيقاف يقصد منه الإهانة لهم والسخرية بهم ، ثم يأتي السؤال في هذه اللحظة الحاسمة مقررأ لهم ومتهكماً من ادعائهم التناصر في الدنيا :

﴿ مالكم لا تنصرون ﴾ . أي لا ينصر بعضكم بعضاً ، والخطاب لهم ولآلهتهم أو لهم فقط ، وقد تأخر سؤالهم إلى هذا الوقت ؛ لأنه وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة ، وهي حالة انقطاع الرجاء ، ولذا كان التقريع والتوبيخ والتهكم أشد وقعاً وتأثيراً (١) .

ومن تهكم الذين كفروا من بني اسرائيل برسلهم هذا الحوار الذي يقصه الله تعالى في محكم التنزيل بين موسى وقومه :

﴿ وإذ قال موسى لقومه يقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وءاتكم ما لم يؤت أحداً من العلمين . يقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خسرين . قالوا يلموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داحلون . قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يلموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ (٢) .

دأب قوم موسى (بنو اسرائيل) على التعنت وكثرة الأسئلة والعناد ولي أعناق الأحاديث ثم تكذيب هذه الأحاديث ، وقتل الأنبياء ، وسؤالهم رؤية الله جهرة ، ووقوفهم من موسى عليه السلام موقف التزمت من الأمر بذبح بقرة وتبديلهم قول الله .

(١) انظر تفسير الكشاف ٢٩٨ / ٣ ، وأبوالسعود ١٨٨ / ٧ ، وروح المعاني ٨٠ / ٢٣ .

(٢) الآيات (٢٠ - ٢٤) من سورة المائدة .

وهؤلاء القوم الذين رأوا بأعينهم معجزات لم يرها أحد من خلق الله مثل انشقاق البحر ، ورفع الجبل فوقهم ، وإنزال المن والسلوى طعاماً لهم وغير ذلك ، ومن تلك المواقف التي يقصها القرآن الكريم عن عنادهم ومكابرتهم هذا الموقف الذي يقف فيه موسى عليه السلام خطيباً في بنى إسرائيل مذكراً لهم بنعم الله عليهم حيث جعل فيهم كثيراً من الأنبياء الذين لم يوجدوا في غيرهم من الأمم ، وجعلهم ملوكاً بعد إهلاك فرعون وجنده ، وآتاهم كثيراً مما لم يؤت أحداً من العالمين ، من فلق للبحر ، وإغراق للعدو ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى وغيرها .

ثم يناشدهم ويناديهم أن يدخلوا بيت المقدس الذي قد كتب الله لهم ، وقد قدم لهم البشارة بفتحه وتمليكهم لهم ، ويريد أن ينسيهم ما قيل عن طغيان العماليق فيه فلا ينكصون على أعقابهم ولكن الخوف منهم فرفضوا ، وظهر من بينهم رجالان يحثانهم على الجهاد ، ويشيران عليهم بدخوله ولكن لا مجيب ، وعندما تفتت أفواههم عن الحديث يكون ذلك الحديث سخرية وتهكما من كل أولئك الداعين ، إذ يقولون : ﴿ قالوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ﴾ ، وهم بهذه الطريقة قد أقفلوا الطريق المؤدي إلى القدس ، فاتحين لأنفسهم طريق العودة ، ليس هذا فحسب ، بل شرعوا في السخرية من موسى وربه بقولهم ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ .

قولهم : « فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ » أمر لموسى بالذهاب وهو تهكم وهزاء واضح ، وإضافة الرب إلى موسى فيه تمادي وزيادة في ذلك الهزاء وتلك السخرية ، وقد قصدوا ذهابهما حقيقة لا مجازاً وأرادوا من ذلك السخرية والاستهزاء ، كأن موسى لا يأوي إلى ركن شديد ينصره ويؤيده ، فبدونهم لا ينصر موسى وقولهم ﴿ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾ مزيد من السخرية حيث قرن موسى بالله في منزلة واحدة وفي قتال واحد ، والذي يدل على سخريتهم البغيضة أنهم قالوا بعد ذلك : ﴿ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ إمعاناً في العناد ، فإن

موسى سلك سبيل الغي وهم قد سلكوا سبيل الرشاد . وقولهم (أنت وربك) وحصرهم للقتال فيهما فقط مع تناسي هارون والرجلين اللذين نصحا وبينا . فيه سخرية منهم ، حيث يشيرون ضمنا إلى عدم أهليتهم للقتال ، وأنهم لن يخرجوا معهم أو لم يعبثوا بقتالهم (١) .

ومن تهكم الكافرين وجرءتهم على الله وسخريتهم بنبيه هذا القول الذي يحكيه الله عز وجل على ألسنتهم : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٢) .

هذه الآية تشير إلى ظاهرة دأب المشركون على ترددها عبر العصور وهي طلبهم العذاب من الرسل . والغرض من هذا الطلب تكذيب الرسل فالعذاب إن لم يأت اعتبر هذا حجة على الرسل عند الناس . ومعلوم أن العذاب لا يملكه الرسول ولا يقرره بل الأمر والمدير هو الله تعالى .

وهكذا يكابر هؤلاء عند طلب العذاب فهم في دواخلهم خائفون وجلون ، وعلى هذا النسق هذه الآيات ، حيث يدعون الله في تهكم واستخفاف أن ينزل عليهم العذاب إذا كان ما أنزل من القرآن هو من عنده ، والمراد نفى كونه حقا ، وفيه تهكم بمن يقول بأن القرآن حق من عند الله ولذا هم يسألون الله بفعل الأمر : (فأمطر) والمطر يكون عذاباً وضده الغيث الذي هو نعمة . وهم في سخريتهم هذه يطلبون أشد العذاب إمعانا في تكذيب كون القرآن حقا ، فهم يطلبون حجارة من السماء أي من سجيل ، ثم يتمادون في

(١) انظر الكشف ١ / ٣٣٠ - ٣٣٢ ، وأبو السعود ٣ / ٢٢ - ٢٤ ، وروح المعاني ٦ / ١٠٤ - ١٠٨ .

(٢) الآيتان (٣٢ ، ٣٣) من سورة الأنفال .

هزئهم واستخفافهم فإن لم يكن العذاب حجارة من السماء فأى عذاب أليم ، ولو كانوا يقصدون غير السخرية لقالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له) وهم في صيغة الأمر هذه التي كرروها (أمطر ، أثنا) مع تعليقها بكون الحق من عند الله ، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك : إن كان الباطل حقا فأمطر علينا حجارة ، وهذا تهكم وتكذيب فاضح (١) .

وأسلوب الأمر الساخر كثيرا ما يتكرر في الشعر العربي ، وقد أكثر الشعراء من استخدامه تهكما وسخرية ، يصبونها على مهجويهم ليتجرعوا غصصها ، ويتألمون لتلك الإهانات التي تنالهم بتلك السهام الرائشة .

فهذا أبو نواس المعروف بفسقه ومجونه ، وإسرافه في ذكر الخمر وشربها يتعرض له مرة أحد الفقهاء يلومه على إسرافه في المجون وشرب الخمر خاصة ، ولكن أبا نواس ذا النفسية النرجسية الساخرة يهزأ من هذا الفقيه وورعه ، فيقول له إن كنت حقا من الناصحين الذين يرجون لي الخير فدع لومي واتركه ، وبادرني بكأس تشفيني من هذا اللوم ، وكأنه يلمح إلى قول الأعشى :

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ وأخرى تداويتُ منها بها

ثم يلتفت أبو نواس إلى لائمه وناصحه ، فيناديه هازئا ومحسرا ، بأنك قد عرفت شيئا في هذه الدنيا ، وغابت عنك أشياء هي أسرار الخمر ومتعها وملذاتها .

فأي سخرية ومجون أقبح من هذين اللذين يجعلان صاحبهما المذنب يدعو إلى رذيلته ، بل ويجرؤ متهكما على دعوة من ينصحه ، بأن يغنم من هذه الرذيلة ، فإن فيها أسراراً تخفى على الكثير أمثاله . والأبيات هي قوله : (٢)

(١) انظر الكشف ٣/ ١٢٤ ، التحرير والتنوير ٩/ ٣٣١ - ٣٣٥ .

(٢) ديوان أبي نواس ، أحمد عبدالمجيد الغزالي ٦ .

دع عنك لومي فإن اللومَ إغراءٌ ودَاوِني بالتي كانت هي الداءُ
فقل لمن يدّعي في العلمِ فلسفةً حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

ومن أمثلة الأمر الساخر الشعرية أن زياد الأعجم الشاعر ، كان ينشد بعجمته في مسجد البصرة فدخل أبو قلابة الجرمي ، فقال : من هذا العليج ؟ فقال زياد : من هذا ؟ قالوا : أبو قلابة الجرمي ، فقام زياد على رأسه فقال : (١)

قُم صاغراً ، يا شيخَ جَرْمٍ ، فإنما يُقالُ لشيخِ الصّدقِ : قُم غيرَ صاغِرٍ

وهذا الأمر المصاحب للصغار ، قصد منه الإهانة والاستحقار والاستخفاف كما يرى ابن رشيّق ، فزياد وإن كان يصح أن يقصد قيام هذا الشيخ وخروجه من المسجد إلا أن دلالة النص هنا تقتضي أن يكون ذلك منه إهانة واستخفافاً ، والسياق يشير إلى أن زياد إنما أراد أن ينتقم لنفسه من تلك الإهانة والتهكم الذي سبق من الشيخ الجرمي ، حينما سأل عنه متهمًا .

ومن الشعراء الذين برعوا في استخدام هذا الأسلوب الساخر جرير بن عطية ، الذي كان يصلي في نقائضه خصومه بوابل غزير من سخرياته ، وقد تفنن في السخر فبرع في معظم أساليبه لأنه كان صاحب موهبة صادقة ونفس ساخرة ، ومن سخرياته تلك الأوامر الساخرة التي كان يسلطها على خصميه الفرزدق والأخطل ، ومن ذلك تهكمه بالفرزدق وقومه في قوله : (٢)

(١) العمدة ٢/ ٨٥٠ .

(٢) ديوان جرير ٢/ ٥٥٠ .

خذوا كحلاً ، ومجمره ، وعطراً فليستم يافرزدق بالرجال
وشموا ريح عييتكم ، فليستم بأصحاب العناق ولا التزال

الكحل والمجمره والعطر من شئون النساء ، فعندما يؤمر بأخذها رجل فإن القصد من ذلك إهانتته والتهكم به ، وأنه يعد في جملة النساء . وهذا ما أراده جرير بل وصرح به حين قال (فليستم يافرزدق بالرجال) ويتمادى جرير فيفحش ويبالغ في تحقير قوم الفرزدق وإهانتهم حين يأمرهم بأن يشموا ريحهم ، لأنهم ليسوا أهلاً للمكرمات ، وفي هذين الأمرين اللذين يسلطهما جرير على الفرزدق وقومه لم يقصد جرير الأمر على حقيقته وإن كان يمكن أن يحتمل ذلك ، بل قصد إهانتهم وتحقيرهم والتهكم بهم .

ولجرير أيضاً في هذا الأسلوب أبيات من قصيدته التي دمع بها الراعي النميري وفضحه حتى سمى العرب بالقصيدة « الفاضحة » لأنها فضحت بني ثمير وأخزتهم بما فيها من هجاء وتهكم وسخرية ، حتى إن أحدهم قبلها كان إذا سئل من أين هو ؟ فخم لفظه ، ومد صوته ، وقال : من ثمير كما ترى ، إلى أن صنع جرير فيهم هذه القصيدة التي دمغتهم ، فكان الناس يسخرون منهم ، من ذلك أن امرأة مرت ببعض مجالس بني ثمير ، فأداموا النظر إليها ، فقالت : قبحكم الله يابني ثمير ، ما قبلتم قول الله عز وجل : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ (١) ولا قول الشاعر :

فغض الطرف إنك من ثمير

فكانت هذه القصيدة سبباً في ضعتهم بين الناس ، وقد كانوا من قبل جمرة من جمرات العرب (٢) .

(١) الآية ٣٠ من سورة النور .

(٢) انظر العمدة ١/ ١٢٦ ، ١٢٧ .

ومن الأساليب التي اعتمدها جرير في السخرية من بني نمير في هذه القصيدة أسلوب الأمر الساخر يكرره في ثناياها ، بل إن أشهر بيت فيها كان مشتملاً على الأمر الساخر ، يقول جرير : (١)

ولو وزنت حلوم بني نمير	على الميزان ما وزنت ذباباً
فصبراً ياتيسوس بني نمير	فإن الحرب موقدة شهاباً
ألم ترني صبيت على عيد	وقد فارت أبا جله وشاباً
فغض الطرف إنك من نمير	فلا كعبا بلغت ولا كلاباً
ألم ترني وسمت بني نمير	وزدت على أنوفهم العلاباً
إليك إليك عبد بني نمير	ولما تقتدح مني شهاباً

سفه أحلامهم واستخف بها ، فهي لا تساوي وزن ذبابه ، وهذا كناية عن السفه وانحطاط القدر ، ثم يلقبهم بالتيسوس فيأمرهم متهمكماً أن يصبروا على حربه وسخره ، فإنه سيصيبه عليهم وعلى شاعرهم ، ويسومهم بهذه السخریات حتى تنتفخ أوداجهم وعروقهم غضباً لما أصابهم ، ومع ذلك الواحد منهم لا يملك إلا أن يغض بصره ويمشي منكسراً ذليلاً لا يرفع نظره أو يمده فما هم إلا من نمير ، وهذا تشهير ببني نمير فكأنهم صاروا أحط العرب وأحقرهم .

ويرد الفرزدق على هجاء جرير وسخره فينهج نفس الأسلوب ، ويجعل من الأمر الساخر أسلوباً يتوصل به إلى إهانة خصمه والتهكم به ، يقول الفرزدق : (٢)

(١) ديوان جرير ٢/ ٨١٣ - ٨٢٥ .

(٢) ديوان الفرزدق ١/ ٤١٩ .

كأن أباهَا نهْشَلْ أو مُجَاشِعُ	فيا عجبِي حتَّى كُليْبٌ تُسْتَبِي
وما مِنْ كُليْبٍ نهْشَلْ والرَّبَائِعُ	أَتَفْخِرُ أَنْ دَقْتُ كُليْبٌ بِنَهْشَلٍ
فَأَقْعِ فَقَدْ سَدَّتْ عَلَيْكَ الْمَطَالِعُ	ولَكنْ هُمَا عَمَّايَ مِنْ آلِ مالِكِ
إِذَا عَظُمَتْ عِنْدَ الْأُمُورِ الصَّنَائِعُ	أَلَا تَسْأَلُونَ النَّاسَ عَنَّا وَعَنكُمْ
لصَاحِبِهِ فِي أَوَّلِ الدَّهْرِ تَابِعُ	تَعَالَوْا فَعُدُّوا ، يَعْلَمُ النَّاسُ أَيُّنَا
لنا ، وَالْجِبَالُ الْبَاذِخَاتُ الْفَوَارِغُ	تَنْحَ عَنِ الْبَطْحَاءِ ، إِنَّ قَدِيمَهَا

شجنت هذه القصيدة بالانفعال وبألفاظ الفخر والتهكم ، وفي أول هذه الأبيات يعجب الفرزدق هازئاً ومحقراً لشان كليب ، ثم يلتفت إلى شاعرهم منكراً عليه فخره بما ليس له فيه فخر ، بل الفخر للشاعر نفسه ، ثم يرمي خصمه بهذا الأمر الذي لا يقصد منه حقيقة الفعل ، بل السخرية والتهكم بخصمه وبدعواه تلك ، فيأمره أن يقع ، أي يجلس على مؤخرته كما يقعد الكلب على مؤخرته ، وهذا غاية في الإهانة والتهكم ، ثم يأمره هازئاً أن يتنح عن الأرض فإن قديمها لهم ، وألا يفكر في اللجوء إلى الجبال العالية الفارعة فإنها أيضاً لهم ، وما هذا إلا مبالغة من الشاعر في الفخر على خصمه والتهكم به .

ومن أمثلة الأمر الذي خرج إلى التهكم ، قول جرير يخاطب عمرو بن لجأ التميمي : (١)

نَحَلَّ الطَّرِيقَ لِمَنْ يَنْبِي الْمَنَارَ بِهَا وَابْرُزْ بِرِزَّةٍ حَيْثُ اضْطَرَّكَ الْقَدْرُ

مازلت تحفز أقوالا وتبلغني ذيوخ المريرة حتى استحصد المرر

يأمره ساخرأ بأن يترك طريق الفضل والمكرمات فهو ليس أهلا له ، ويتركه لمن هو أحق منه ، ييني مناره وشرفه ، ثم يأمره ثانية بأن يبرز بأمه « برزة » فيفخر بها ، وقد كان جرير يرميها بالحنأ ، ثم يتهدده فيقول : أنت حين تعرضت لي إنما جنيت على نفسك فكنت كالضبع الذي يخرج رأسه من جحره فيجعل الحبل في عنقه .

وقد ذكر ابن فارس (١) بيت جرير الأول حينما عقد باباً لأسلوب الأمر ، ولكنه جعل هذا الأمر في البيت من قبيل التعجيز ، وليس كذلك بل هو تهكم وسخرية واضحة .

ومثل ابن فارس أيضا بقول عبيد بن الأبرص :

حتى سقيناهم بكأس مَرَّةٍ فيها المثلُ ناقعاً ، فليشربوا

والتهكم هنا أيضا واضح في قوله : « فليشربوا » أي فليشربوا هنيئا هذه الكأس المرة التي كني بها عن الموت ، فيها السم الناقع المهلك ، ولكن ابن فارس جعل هذا الأمر من قبيل التهديد (٢) .

وبعد فإن أسلوب الأمر الساخر من الأساليب البلاغية الشائعة في القرآن والشعر وغيرهما ، ومما سبق من الأمثلة تتضح تلك الأهمية وهذا الشيوع .

(١) انظر الصحابي ٣٠٠ .

(٢) المرجع السابق ٣٩٩ .

النهي الساخر

النهي هو طلب الكف عن الفعل استعلاء ، وله صيغة واحدة هي الفعل المضارع المسبوق بـ (لا) الناهية ، وهو كالأمر في الاستعلاء ، إلا أن الأمر يكون بمعنى (افعل) والنهي بمعنى (لا تفعل) (١) .

والنهي الحقيقي ما كان من الأعلى إلى الأدنى على سبيل الإلزام ، وذلك مثل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَبِ ﴾ (٣) .

ومقتضى صيغة النهي ومدلولها الحقيقي ، هو طلب الكف عن الفعل فوراً ، على وجه الاستعلاء طلباً جازماً (٤) ، وقد تأتي صيغته طلباً للكف لكن لا على جهة الاستعلاء ، ولا الإلزام ، ولا الجزم ، وإنما لأغراض ومعان أخرى ، تلتبس من سياق الكلام ، وقرائن الأحوال ، ويمكن إدراكها في ظل الجو النفسي الذي ورد فيه النهي (٥) .

(١) انظر شروح التلخيص ٢/ ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٢) بعض الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٣) نفس الآية .

(٤) انظر الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية ، د. عبدالعزيز أبوسريع ٣١٣ .

(٥) انظر مستبعات التراكيب بين البلاغة القديمة والنقد الحديث ، د. عبدالغني بركة ٦٦ .

ذلك لأن المعاني والأغراض الثانية التي يدل عليها النهي ، إنما هي معان سياقية ، تستفاد من مستتبعات التراكيب وقرائن الأحوال « لأنها في حقيقتها نقل للمشاعر التي تجيش بها النفس ، فإذا استطعنا أن ندرك جانباً من هذه المشاعر عرفنا المعنى البلاغي الذي يدل عليه هذا الأسلوب أو ذاك » (١) .

ولما كان القرآن الكريم حافلاً بالتشريع فقد كثرت فيه النواهي ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (٢) ، وقد بلغت هذه الصيغ في القرآن أربع مائة وصيغة واحدة ، تناولت كثيراً من قضايا التشريع ، وأمور العقيدة ، والأمور العامة (٣) .

ولأن هذه النواهي محل رعاية الشارع الحكيم واهتمامه ، فقد جاءت صيغ النهي في القرآن كثيراً مسبوقة بالنداء ، فيكون النداء طلباً للمدعو ليصغى لأمر مهم (٤) وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ يأأيها الذين ءامنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ يأأيها الذين ءامنوا لا تحرموا طيبت ما أحل الله لكم ﴾ (٦) .

وتخرج صيغة النهي عن معناها الحقيقي إلى معان أخرى سياقية ، منها قصد التحقير والإهانة ، والسخرية والتهكم بالمخاطب ، والنهي الساخر فيه

(١) انظر بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ، السيد عبدالرحيم عطية ٩٢ .

(٢) الآية (٧) من سورة الحشر .

(٣) انظر بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ٦ .

(٤) المرجع السابق ١٠٠ ، ١٠١ .

(٥) الآية (٢١) من سورة النور .

(٦) الآية (٨٧) من سورة المائدة .

استعلاء وترفع من المتكلم ، لأن الساخر إنما يسخر بمن يرى أنه أدنى منه منزلة ، بل إنه لا يسخر إلا بمن يستخفه ويحتقره ويستذله .

وهذه المعاني البلاغية التي يخرج إليها النهي ، يمكن أن يبقى في بعض صيغها معنى الاستعلاء واضحا جليا ، ويرجع ذلك لاعتبارات كثيرة ، منها منزلة المتكلم ، ومنزلة المخاطب ، ثم السياق وقرائن الأحوال ، ثم الغرض الذي يدل عليه ، فمقام الدعاء مثلا يخلو تماما من أي معنى للاستعلاء ، بل هو تذلل وضراعة وخضوع ، ومقام الإلتماس ليس فيه تذلل ولا خضوع ، وهو أيضا لا يحتمل الاستعلاء ، أما مقام السخرية فإنه مقام هزاء وتهكم وتهجم ، من لوازم هذا الاستعلاء .

وقد يكون النهي الساخر ليس طلبا للكف عن الفعل على وجه الإلزام والجزم ، بل يكون الكلام فيه خارجاً مخرج النصح والتماجن ، كما فعل الخطيئة ، فالخطيئة حينما خاطب الزبرقان بقوله (١) :

دع المكارم ، لا ترحل لبغيها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

يبدو هذا البيت للسامع أنه خال من التهكم والسخرية ، لولا إضاءة من حسان رضي الله عنه حينما سئل عن هذا القول ، أهجي الرجل أم لا ؟ قال : « لم يهجه بل سلح عليه » ، تدفعنا هذه الإضاءة الذكية إلى التأمل والتفكر في هذا البيت ، فالخطيئة ينهى الزبرقان أن يتعب نفسه في طلب المكارم ، فلا يتعب نفسه وراحلته في طلبها فإنه لن يدركها ، لأنه ينبغي أن يكون في القواعد يطعم ويكسى . ومثله قول الآخر :

(١) ديوان الخطيئة ، تحقيق د. نعمان طه ٥٠ .

لا تطلب المجد إن المجد سلمه صعب وعش مستريحا فاعم البال

فهو على نفس نسق البيت السابق ، ينهى الشاعر في سخرية ألبسها ثوب النصيح ذلك الكسول الخامل حتى لا يتعب نفسه في طلب المجد ، لأن للمجد سلماً صعباً ، وثنماً باهضاً ، وتكاليف وتبعات ، لا يقوى على حملها من هذا حاله ، ثم يأمر خصمه بأن لا يكدر صفو حياته ، وأن يعيش في راحة لا يشغل باله بالمعالي ، فإنه لا يصلح لها ؛ لأنه ليس ممن يصبر على حمل تبعاتها ، فهو يشكك في رجولته وقدرته ، ويرميه بالخمول والكسل الذي يحول دونه ودون بلوغ المكرمات .

ومن النهي الساخر ، قول المتنبي في سخريته من كافور ، يهدي نصيحته وخبرته إلى كل من أراد أن يتعامل مع العبيد ، فيقول : (١)

لا تشتتر العبد إلا والعصى معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

يتهم المتنبي ويسخر من كافور الأخشيدي ، مذكراً إياه بأنه عبد مملوك فوصله إلى الحكم لا يلغي هذه الحقيقة المرة ، ولا يعني تغير طبيعته وجبلته ولا انسلاخه عن أصله النكد ، وينظر المتنبي في هذا إلى المثل العربي المشتهر «العبد يقرع بالعصى ، والحر تكفيه الإشارة» (٢) ، وإلى قول بشار : «الحر يلحى ،

(١) ديوان المتنبي ٤٣/٢ .

(٢) مجمع الأمثال ٣٤٥/٢ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

والعصا للعبد» (١)، فينهى في سخرية وتماجن كل مشتر للعبيد أن ينسى العصى ، إذ إن الضرب لازم من لوازم العبيد ، لأنهم وسموا بالنكد وسوء الخلق ، وهذا يستلزم تعزيرهم بالعصى ، فالإقناع والتعقل لا ينفع معهم ، وإنما الضرب والتوبيخ ، فما إن يسير أحدهم حتى يقف ، فيضرب ليمثل . والنهي الساخر هنا في البيت جاء متقدما يفيد التشويق للتعليل الذي يوضحه في الشطر الثاني .

وكل المعاني السابقة للنهي الساخر المتهم ، التي جاءت في الأمثلة إنما تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال وتذكر في ظل الجو النفسي للنص .

النداء الساخر

حقيقة النداء هي طلب إقبال المدعو على الداعي ، بحرف نائب مناب (أدعو).

وحروفه هي : الهمزة ، وأي ، وهما موضوعان لنداء القريب ، ويا ، وأيا ، وهيا ، وآ ، وآي ، ووا ، وهي موضوعة لنداء البعيد (١) .

والنداء من الأساليب الإنشائية الطلبية ، وهو لون من الخطاب ، والغالب أنك لا تنادي أحدا إلا إلى أمر ذي بال ، فيكون النداء إشعارا بأهمية ذلك الأمر ، وتنبيها للأذهان عليه « وحين يعظم هذا الأمر يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قوي ، كالأمر والنهي والاستفهام ، وغالبا ما يتقدم النداء على هذه الأساليب لضمّان اهتمام المخاطب وإصغائه والتفاتة وتتبعه لما يلقي عليه » (٢) .

لذلك كثر خطاب الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في القرآن الكريم بـ (يا أيها) وذلك لأن فيها وجوها من التأكيد ، وأسبابا من المبالغة منها : ما في « يا » من التأكيد والتنبيه ، وما في « ها » من التنبيه ، وما في التدرج من الإبهام في « أي » إلى التوضيح ، ثم إن المقام يناسب المبالغة والتأكيد لأن كل مانادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجه ووعده ووعيده ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية ، وغير ذلك ، ومما أنطق الله به كتابه ، أمور عظام وخطوب جسام ومعان واجب عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون ، فافتضى الحال بأن ينادوا بالأكّد الأبلغ » (٣) .

(١) انظر شرح ابن عقيل ٢٥٥/٣ .

(٢) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ٢٧٦ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٨٩٧/٢ .

وللنداء دلالات نفسية عميقة ، ومعان شعورية عديدة ، وأغراض بلاغية كثيرة ، ولو تتبعناه في القرآن لوجدناه قد استعمل للدلالة على معان وأغراض عجيبة ، منها تلك النداءات اليائسة البائسة من أهل النار ، ينادون أهل الجنة يطلبون الغوث والمساعدة : ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ (١) .

ومنها النداءات الفرحة المسرورة بما ناله أصحابها من عاقبة حسنة ، كما في نداء أهل الجنة لأهل النار : ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم ..﴾ (٢) .

ومنها نداءات المضطرين المحتاجين ، وما فيها من دعاء ورجاء ، وطلب للعون والغوث ، فهذا أيوب عليه السلام حينما بلغ به الأمر منتهاه ، لجأ إلى ربه ومولاه ، يناديه ويضرع إليه ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ (٣) .

وهذا يونس - عليه السلام - حينما ابتلعه الحوت ، واستقر في الظلمات ، لجأ إلى ربه يدعوه ويناديه ﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحنك إني كنت من الظالمين﴾ (٤) .

(١) بعض الآية (٥٠) من سورة الأعراف .

(٢) الآية (٤٤) من سورة الأعراف .

(٣) الآية (٨٣) من سورة الأنبياء .

(٤) الآية (٨٧) من سورة الأنبياء .

وسمى الله تعالى يوم القيامة « يوم التناد » لأن الكافرين في ذلك اليوم ينادي بعضهم بعضا ويتصايحون بالويل والثبور كما يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار (١) .

وأهل الجحيم ينادون الملائكة نداء اليائس البائس ، يتمنون الموت ولا موت
 ﴿ ونادوا يملك ليقض علينا ربك ، قال إنكم مكثون ﴾ (٢) .

ويناديهم رب العزة والجلال يوم القيامة نداء توبيخ وتهكم ، يأمرهم أن يحضروا شركاءه الذين كانوا يدعونهم من دونه في الدنيا ، ويضيف الشركاء إليه حكاية لقولهم في الدنيا ، وذلك على سبيل التهكم بهم : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركاءى الذين كنتم ترعون ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ ويوم يناديهم أين شركاءى ، قالوا اذنك ما منا من شهيد ﴾ (٤) .

بل إنه يطلب منهم أنفسهم أن ينادوا هؤلاء الشركاء الذين كانوا يدعونهم من دونه ، وذلك سخرية منهم وتهكما بهم : ﴿ ويوم يقول نادوا شركاءى الذين زعمتم ﴾ (٥) .

ومن المعاني التي يوحى بها النداء المدح ، كما في نداء الله تعالى لعباده المؤمنين بقوله : (يأيها الذين آمنوا) فإن في ندائهم بأحب صفة لهم وهي الإيمان تمييزا ومدحا لهم .

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢٧٥ / ٧ ، الآية (٣٢) من سورة غافر .

(٢) الآية (٧٧) من سورة الزخرف .

(٣) الآية (٦٢) من سورة القصص و (٧٤) من نفس السورة .

(٤) الآية (٤٧) من سورة فصلت .

(٥) الآية (٥٢) من سورة الكهف .

وقد يكون النداء ذمًا كما في ندائه سبحانه وتعالى للكافرين بقوله : (يا أيها الذين كفروا) فإن نداءهم بأقبح صفاتهم وهي الكفر ذم وإهانة لهم .

ولما كان للنداء من وقع على النفس وأثر بالغ ، خصوصاً المناداة بالألقاب ، فقد وجه الله المؤمنين إلى حسن المناداة مع نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ لأن النداء إذا أسيء استخدامه أصبح مستهجنًا ، مشعرا بالتعدي وسوء الأدب وعدم المبالاة بالمنادى ، لذلك مدح الله المؤمنين الذين يغيضون أصواتهم بنداء النبي ﷺ فينادونه بصوت غضيف ولا ينادونه باسمه كما ينادي بعضهم بعضًا ، بل ينادونه بلقب النبوة والرسالة الذي ارتضاه الله له وناداه به في كتابه العزيز ، وذم الله سبحانه وتعالى الذين يرفعون أصواتهم بنداء نبيه ﷺ ويجهرون له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ونفى عنهم صفة العقل ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغيضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ﴾ (١) .

قيل إن هذه الآيات نزلت في وفد من بني تميم قدموا المدينة فأتوا منزل النبي ﷺ فنادوه من وراء الحجرات ثلاثاً بصوت جاف ، يا محمد ، اخرج إلينا ، يا محمد إن مدحنا زين ، وإن شتمنا شين ، نحن أكرم العرب (٢) .

(١) الآيات (٢ - ٥) من سورة الحجرات .

(٢) انظر روح المعاني ٢٦ / ١٣٤ - ١٤١ .

والمناداة بالألقاب من أقدم صور السخرية وأساليبها لذلك نهى الله عنها ،
وسماها فسوقا ، قال تعالى : ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد
الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ (١) . والتنازب بالألقاب هو
التنادي والتداعي والتعابير بالألقاب المؤذية (٢) .

يروى ابن جبيرة ابن الضحاك قال : فينا نزلت في بنى سلمة « ولا تنازروا
بالألقاب » قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ،
فكان اذا دعا أحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يارسول الله إنه يكرهه ،
فنزلت « ولا تنازروا » (٣) .

ومن تلك المعاني التي تكثر دلالة النداء عليها التوبيخ ، كقول قوم صالح
عليه السلام له : ﴿ .. يصلح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتتهلنا أن نعبد ما
يعبد ءاباؤنا ، وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ (٤) .

كان هذا النداء التوبيخي هو إجابتهم عن دعوته لهم ، وافتتحوا كلامهم
بالنداء لقصد التوبيخ والملام ، كما تقدم قول قوم هود له : ﴿ يهود ما جئنا
ببينة ﴾ (٥) ، ولكن قرينة التوبيخ هنا أظهر ، وهي قولهم (قد كنت فينا مرجوا قبل
هذا) فإنه تعريض بخيبة أملهم ورجائهم فيه ، فهو تعنيف (٦) .

(١) بعض الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٢) روح المعاني ١٥٤/٢٦ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) الآية (٦٢) من سورة هود .

(٥) بعض الآية (٥٣) من سورة هود .

(٦) انظر تفسير التحرير والتنوير ١٠٩/١٢ ، ١١٠ .

وقد يصعد هذا التوبيخ وتحتد لهجة الخطاب فيصبح تهكما وسخرية ، كما في قول فرعون لموسى عليه السلام : « وإني لأظنك ياموسى مسحورا » . فرد عليه موسى عليه السلام مباشرة بعدما علم عناده وأحس استهزاءه « وإني لأظنك يافرعون مشورا » .

والسياق هو : « ولقد ءاتينا موسى تسع ءايت بينت فسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يلموسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يفرعون مشورا » (١) .

هذا دأب فرعون ، ودأب كل طاغية عندما يفحم وتعجزه الحجة يعمد إلى وسائل المكر والكيد والبطش ، فبعد أن رأى الآيات أعرض وتوجه بالخطاب والنداء إلى موسى ، راميا إياه بالسحر وفساد العقل والتخبط في القول ، مخرجا كلامه مخرج الظن والظن قد يدل على اليقين ، مناديا موسى مستخفا به ساخرا من عقله وقوله . وهو كقوله : « إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » ، فيخاطبه موسى خطاب الواثق المؤكد كلامه ، موبخا له على موقفه هذا وعلى مقابله الحجج والآيات بالسخرية والاستهزاء ، ولأن موسى كان قد علم أن فرعون علم الحق ولكنه استكبر وعاند فنراه هنا يصعد لهجته ، ويرد على فرعون بمثل ما قال له ، ويقارع ظنه بظنه ، ويرد عليه سخريته واستهزاءه ، قائلا له : إن كنت تظنني مسحورا فاقد العقل متخبطا فإنني أراك كذلك ناقص العقل هالكا بضلالك .

وشتان ما بين الظنين فإن ظن فرعون إفك مبین ، وظن موسى عليه السلام

هو اليقين (٢) .

(١) الآيتان (١٠١ - ١٠٢) من سورة الاسراء .

(٢) انظر تفسير الكشاف ٣٧٧/٢ ، وأبوالسعود ٩٨/٥ ، ٩٩ ، وروح المعاني ١٨٥/١٥ ،

١٨٦ ، والتحرير والتنوير ٢٢٤/١٥ - ٢٢٨ .

ثم إن البلاغيين يقولون إن استخدام حرف النداء « يا » الذي وضع لنداء البعيد في مثل هذه المجادلة والمخاصمة والمواجهة ، يكون من قبيل تنزيل القريب مكانا منزلة البعيد ، لأغراض منها - كما في هذه الآيات - التهكم بالمنادى والإشارة إلى انحطاط شأنه وهوان قدره ومنزلته (١) وما من شك في أن النداءات هنا في هذا السياق البشري جاءت نداءات انفعالية مشحونة بمشاعر الغضب والتهكم والسخرية .

ومثل ذلك قول قوم نوح - عليه السلام - له ، ينادونه ساخرين : ﴿ يٰ نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا ، فَأَتْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ (٢) .

وقول قوم شعيب - عليه السلام - له في خطاب كله سخرية : ﴿ قَالُوا يٰ شُعَيْبُ أَصْلٰوَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَآءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٣) .

ونداء المشركين حينما خاطبوا النبي محمد ﷺ ، مستهزئين ساخرين منه : ﴿ وَقَالُوا يٰ أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٤) .

وقد يكون استعمال حرف النداء « يا » لمنادى قريب ، خلافا لأصل وضعها تنزيلا للمنادى القريب المخاطب منزلة البعيد ، وذلك سخرية به وإشارة وتعريضا إلى كونه بليدا بعيدا من التنبه لا يسمع ولا يتنبه (٥) . ومن ذلك قول الفرزدق المشتهر في هجاء جرير والسخرية منه : (٦)

(١) شرح عقود الجمان ١/١٩٦ ، ١٩٧ ، والإنتقان في علوم القرآن ٢/٨٩٦ .

(٢) الآية (٣٢) من سورة هود .

(٣) الآية (٨٧) من سورة هود .

(٤) الآية (٦) من سورة الحجر .

(٥) شرح عقود الجمان ١/١٩٦ ، ١٩٧ .

(٦) ديوان الفرزدق ١/٤١٨ .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جرير المنجوع

في هذا البيت تجتمع أساليب كثيرة ، وتتعاقد للدلالة على التهكم ، فاسم الإشارة « أولئك » والأمر التعجيزي التهكمي ، ثم النداء الذي يوحي بأن المخاطب مع كل تلك الإشارات والأوامر بليد لم يتنبه غافل يحتاج إلى إيقاظ .

ومنه قول الشاعر يسخر من آخر ويشبطه عن طلب المعالي ؛ لأنها لا تصلح إلا للرجال ، ولا يطمع فيها غيرهم ، فجعل من النداء والإشارة والاستفهام سبيلا للسخرية ، يقول : (١)

أيا هذا أتطمع في المعالي وما يحظى بها إلا الرجال

ومنه أيضا قول الأخطل ، يهجو جريرا ويسخر منه : (٢)

فانق بضأنك يا جرير فإثما منتك نفسك في الخلاء ضلالا

ومن ذلك ما أورده ابن فارس (٣) من أن شاعرا تعرض لجرير بقوله :

أبلغ جريرا وأبلغ من يبلغه أني الأغر وأنى زهرة اليمن

فرد عليه جرير ، مبكثا ومتهكما ساخرا :

ألم تكن في وسوم قد وسمت بها من حان موعظة يازهرة اليمن !

فقوله « يازهرة اليمن » نداء متهم ساخر ، إذ حول صفة الفخر التي كان

يفخر بها خصمه إلى لقب يناديه به على سبيل التندر والسخرية .

(١) البلاغة الاصطلاحية ١٨٧ .

(٢) انظر شرح عقود الجمان ١/١٩٦ .

(٣) انظر الصاحبي ٢٩١

وربما كان النداء أسلوباً قديماً للمعاينة والقذف والسخرية ، ذا صلة بالعرف الشعبي ، ولغة الحياة اليومية ، وأسلوب القول المتبادل بين عامة الناس ، فالمناداة بالألقاب والصفات والأسماء الساخرة التي تبتكرها أذهان الساخرين ، أسلوب شعبي شائع يحدث بين المتخاصمين في الأزقة الشعبية في عصرنا الحاضر وغير الحاضر ، فأبو نواس يسخر من ابن سابه فيقول : (١)

قَدْ عَلَا الدِّيَّانَ كَأَبَهُ	مُدُّ تَوْلَاهُ ابْنُ سَابَهُ
يَا غَرَابَ الْبَيْنِ فِي الشُّؤْمِ	م ، وَمِيزَابَ الْجَنَابَهُ
يَا كِتَاباً بِطَلَاقٍ	يَا عِزَاءً بِمُضَابَهُ
يَا مِثَالاً مِنْ هُمُومٍ	يَا تَبَارِيحَ كَأَبَهُ
يَا رَغِيفاً رَدَّهُ الْبَقَا	لُ يُنْسَأُ وَصَلَابَهُ
مَا عَلَى وَجْهِهِ قَا	بَلْتَنِي الْيَوْمَ مَهَابَهُ
كَاتِبٌ أَيْضاً ، وَمَا مَرَّ عَلَى رَأْسِ الْكِتَابَهُ	

نداءات ساخرة متلاحقة يرمي بها النواصي ابن سابه هذا ، فيخترع له الصفات السيئة يناديه بها ليهزأ منه ويعبث به ، فهو غراب البين في الشؤم ، وهو أثقل من كتاب طلاق ، وعزاء بمصيبة ، بل هو الهموم وتباريح الكأبة ، وهو الخبز اليابس رده البقال .

ومثال ذلك سخرية البحتري من علي بن الجهم ، في نداءات ساخرة ، تشبه أسلوب العامة المتبادل في الحياة اليومية ، في طابع شعبي ، يقول البحتري يخاطب ابن الجهم : (٢)

(١) ديوان أبي نواس ٥٣٨ .

(٢) ديوان البحتري ٧٩٨ / ٢ ، ٧٩٩ ، تحقيق حسن كامل الصيرفي .

ياثقيلا على القلوب إذا عنَّ لها أَيْقَنْتَ بطول الجهادِ
ياقْدَى في العيون ، ياغْلَّةً بين التراقي ، حَزَّازَةً في الفؤادِ
ياطلُّوع العدُوِّ ، ما بين إلفٍ ياغريماً أتى على ميعادِ
يازْكُوداً في يوم غَيْمٍ وَصَيْفٍ ياوَجُوهَ التجارِ يوم الكسادِ
خلَّ عَنَّا فَإِنَّمَا أَنْتَ فِينَا واو عمرو ، أو كالحديثِ المعادِ

ولم يكن مثل هذا الأسلوب الساخر ليفوت شاعر السخرية الأول ابن
الرومي ، دون أن يضرب فيه بنصيب ، ويرمي فيه بسهم ، يقول ابن الرومي يسخر
من ابن أبي الجهم الكاتب : (١)

يا بن أبي الجهم احتقَبْ هذا اللَّطْفَ
فإن فيه طُرْفاً من الطُّرْفِ
ياجُثَّةَ التَّلِّ ، ويا وجه الهدفِ
يا رَوْثَةَ الفيلِ ، ويا لحم الصَّدْفِ
يا أَجْرَةَ البيتِ قضاءً وسلفَ
يا ليلةَ الخانِ إذا الخانِ وكفَ
يا غَمَّ آبِ عند سكانِ الغُرْفِ
يا بردَ كانوا لعارٍ بالنَّجَفِ
يا ثلجَ ماءٍ مالِحٍ فيه جَيْفَ

(١) ديوان ابن الرومي ٢٣٦/٤ ، شرح وتحقيق عبد الأمير مهنا .

ياخزف التور ياشر الخزف
ياسوء كيل وغلاء وحشف
ياطيرة الشؤم ، ويافأل التلف
ياسدة في المنخرين من نغف
من كان يشكو فرط حب وشغف
فإن بي منك لبغضاً وشنف
أدناهما مثل السقام والدنف

يجمع ابن الرومي لخصمه هذا كل معاني الانتقاص والطعن والتشويه
يوجهها إليه في نداءات ساخرة متكررة ، تفاجئ سامعها واحدة تلو الأخرى ،
يوقعها ابن الرومي على أنغام الرجز الراقصة ، تماجنا منه وعبثا ، حتي يزيد في
نكاية خصمه .

وبعد كل ماتقدم من نظرية وتطبيق ، يتضح جليا أن النداء ذلك الأسلوب
الإنشائي الطلبي يمكن أن يؤدي دلالات ومعاني ساخرة ، يخاطب بها الساخر
خصمه ، فيواجهه بالخطاب والتهكم مواجهة مباشرة ، مما يجعل لسخريته تأثيراً
قوياً مؤلماً .

التكرار الساخر

يعرف ابن الأثير التكرار ، بأنه دلالة اللفظ على المعنى المراد مردداً . ويبين أهميته ودقة مسلكه ، بقوله : واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان ، وهو دقيق المأخذ . ثم يقسمه إلى قسمين : مفيد ، وغير مفيد ، ويوضح مراده من هذا التقسيم ، فيرى أن التكرير المفيد هو الذي يأتي لمعنى ، فيكون تأكيداً للكلام وتشبيهاً من أمره ، وذلك للعناية بالشئ المكرر ، إما مبالغة في مدحه أو في ذمه ، أو غير ذلك . أما غير المفيد ، فالذي يأتي لغير معنى ، فلا يكون إلا عيا وضعفاً (١) .

ويؤكد الجاحظ على ضرورة الإفادة ، فيرى أن التكرار لا بد أن يكون لفائدة ، وإلا كان الكلام عيا وتفاهة ، فلا بد من وجود زيادة معنوية وراء زيادة المبنى يقصدها المتكلم من تكراره ، وإلا كان كلامه خارجاً عن نطاق البلاغة والبيان ، داخلاً في باب الحشو والضعف والعي ، يقرر الجاحظ ذلك في أكثر من موضع فيقول في أحد هذه المواضع : « وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني عياً » (٢) .

ولكن هذا الأسلوب شأنه مثل كل الأساليب البيانية يحتاج عند استعماله إلى الحذر ، فهو دقيق المسلك ، والإفراط في استعماله يخرج عن حد البلاغة ، فما هو إلا « رخصة في الأسلوب ، والرخص يجب أن تؤتى في حذر ويقظة » (٣) .

والتكرار يحتوي على كل ما يتضمنه أي أسلوب آخر من إمكانيات تعبيرية ، فهو

(١) انظر المثل السائر ٣/٣ ، ٤ ، ٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٠٥ .

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، د . عبدالعظيم المطعني ١/٣٢٢ .

في الشعر مثله في لغة الكلام ، يستطيع أن يغني المعنى ويرفعه إلى مرتبة الأصالة ، ذلك إن استطاع الشاعر أن يسيطر عليه سيطرة كاملة ، ويستخدمه في موضعه ، وإلا فليس أيسر من أن يتحول هذا التكرار نفسه بالشعر إلى اللفظية المبتذلة التي يمكن أن يقع فيها أولئك الشعراء الذين ينقصهم الحس اللغوي والموهبة والأصالة (١) .

وترداد الألفاظ ليس عيا ما لم يجاوز مقدار الحاجة ، ويخرج إلى العبث ويحكي عن ابن السماك أنه جعل يوما يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما انصرف إليها قال لها كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر من ترداده ، قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه ، قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه » (٢) .

والتكرار أمر نسبي ، يخضع لاعتبارات عدة ، وليس هناك ضابط معين يحدد مقدار الحاجة إليه ، بل الأمر متروك للمتكلم ، لأنه أمر يتصل « بأقدار المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص » (٣) .

وهو ظاهرة أسلوبية واضحة في القرآن الكريم ، فكثير من القصص القرآني قد تكرر عدة مرات ، قصة آدم - عليه السلام - وزوجه حواء ، واستكبار إبليس عن السجود ، وقصة إبراهيم - عليه السلام - ، وقصة موسى - عليه السلام - تكررت كثيراً ، وشعيب وصالح ولوط وهود ، وكل ذلك لحكم عظيمة ، نص على بعضها العلماء ، فمن ذلك أن القرآن « خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب » (٤) .

(١) قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٠٤ .

(٣) المرجع السابق ١/ ١٠٥ .

(٤) المرجع السابق .

ومن ذلك « أن الله جل ثناؤه جعل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثله ، آية لصحة نبوة محمد ﷺ ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاماً أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء ، وبأي عبارة عبر » (١) ، ثم إن القصة إذا تكررت زاد فيها شيئاً . ومنها ، أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة . ومنها ، أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام ، فلهذا كررت القصص دون الأحكام . ومنها ، أن القصة الواحدة من هذه القصص ، كقصة موسى مع فرعون - وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى - فقد يوجد في ألفاظها زيادة ، ونقصان ، وتقديم ، وتأخير ، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ ، فإن كل واحدة لا بد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه ، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها . ثم إن في تكرار القصص تسلية لقلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم بما اتفق للأنبياء مثله مع أمهم ، قال تعالى : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ (٢) ، (٣)

والزمخشري في تعليقه على الآيات المكررة في سورة القمر ، يقول « فإن قلت مافائدة تكرير قوله : ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ، ادكاراً واتعاضاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعق لهم الشن تارات لثلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة ، وهكذا حكم التكرير ، كقوله : ﴿ فبأي ءالاء ربكما تكذبان ﴾ عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن ، وقوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ عند كل آية أوردها في سورة المرسلات

(١) الصاحبي ٣٤٣ .

(٢) الآية (١٢٠) من سورة هود .

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٥ - ٢٧ .

وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها ، لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في كل أوان « (١) .

ويرد الخطابي على الذين عابوا التكرار المضاعف في القرآن فيرى أن الكلام على ضربين : أحدهما مذموم ، وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول ؛ لأنه حيثئذ يكون فضلاً من القول ولغوا ، وليس في القرآن شيء من هذا النوع . والضرب الآخر ، ما كان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار ، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها . ثم استشهد بقول الشاعر :

هلا سألت جموع كـ————دعة يوم ولوا أين أين !

وقول الآخر :

يا لبكر انشروا لي كلياً يا لبكر أين أين الفرار !

ثم يخبر عن سبب التكرار في القرآن بقوله : وقد أخبر الله عز وجل بالسبب الذي من أجله كرر الأقايص والأخبار في القرآن فقال سبحانه ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ﴾ (٣) ، (٤) .

(١) انظر تفسير الكشاف ٤/ ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) الآية (٥١) من سورة القصص .

(٣) الآية (١١٣) من سورة طه .

(٤) انظر بيان إعجاز القرآن ، للخطابي ٥٢ ، ٥٣ . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

وللتكرار فوائد يساق لها : (١)

أحدها - التأكيد ، والتكرار أبلغ من التأكيد .

والثاني - زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ، ليكمل تلقي الكلام بالقبول ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقال الذى ءامن يقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ (٢) فإنه كرر فيه النداء لذلك .

الثالث - إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانياً تطرية له وتجديدا لعهدده ، كقوله تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ (٣) .

الرابع - في مقام التعظيم والتهويل ، كقوله تعالى : ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ (٤) .

الخامس - في مقام الوعيد والتهديد ، كقوله تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ﴾ (٥) .

السادس - التعجب ، كقوله تعالى : ﴿ فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ﴾ (٦) .

السابع - لتعدد المتعلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ فبأى ءالاء ربكما تكذبان ﴾ (٧) ، فإنها وإن تعددت ، فكل واحد منها متعلق بما قبله ، وأن الله تعالى خاطب به الثقيلين

(١) انظر البرهان في علوم القرآن ٣/ ١١ - ١٨ .

(٢) الآيتان (٣٨ - ٣٩) من سورة غافر .

(٣) الآية (١١٩) من سورة النحل .

(٤) الآيتان (١ ، ٢) من سورة الحاقة .

(٥) الآيتان (٦ ، ٧) من سورة التكاثر .

(٦) الآيتان (١٩ ، ٢٠) من سورة المدثر .

(٧) سورة الرحمن .

من الإنس والجن ، وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم ، فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم طلب إقرارهم واقتضاهم الشكر عليه ، وهي أنواع مختلفة وصور شتى .

والتكرار أسلوب يعبر عن انفعال النفس بالمثيرات الوجدانية « واللفظ المكرر هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة ، لاتصاله الوثيق بالوجدان ، فالمتكلم لا يكرر إلا ما يثير اهتماماً عنده ، وهو يحب في الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه أو من هم في حكم المخاطبين . فاللفظ المكرر هدفه الإثارة حباً أو بغضاً في أي غرض من أغراض الكلام . وهو يعد وسيلة من وسائل التقرير ، ويرجع ذلك إلى أنه يزيد الشيء المكرر تميزاً من غيره ، فالأشخاص الذين يقع عليهم نظري كثيراً يزدادون وضوحاً في إدراكي وتصبح صورهم بمثابة الصبغة القوية التي تستأثر بذاكرتي ، وكذلك الأقوال أو الأحكام التي تتوافر في سمعي تكون أكثر وروداً على لساني أو خلال تفكيري من الأقوال والأحكام العابرة . ولهذا كان التكرار أو الإلحاح في التكرار هو الركن الأساسي الذي يقوم عليه فن الدعاية . هذا حقيقة لا مرء فيها فليس أثر دقه على مسمار كأثر دقتين ولا رشفة ماء على قلب صاد كرشفتين . هذا الذي يحمل الشعراء أو غيرهم ممن يريدون تقرير إحساسهم بمعاني الحياة على أن يتخذوا التكرار أداة معبرة بنجاح عن مرادهم » (١) .

وللتكرار أغراض سياقية كثيرة لا يمكن حصرها ؛ لأن التكرار عبارة عن أسلوب تعبيرى يصور انفعال النفس ، وانفعالات النفس البشرية يصعب تحديدها في كثير من الأحيان ، ولكن الغرض الرئيس من وراء كل تكرار هو التأكيد ، ثم إنه يأتي لأغراض أخرى منها قصد المبالغة ، أو التحذير ، أو الإغراء ، أو إظهار الحزن والتحسر ، أو التهويل ، أو الوعيد ، أو الإنكار ، أو التوبيخ ، وقد يقصد بالتكرار التهكم والسخرية

(١) انظر التكرير بين المثير والتأثير ، د. عز الدين السيد ١٣٧ ، ١٣٨ .

«والتهكم أسلوب يعبر عن الشعور بالتعالي ممتزجاً بالبغض وحب الانتقام في بعض الأحيان ، ولهذا يغلب أن نراه قائماً على التكرير ليكون أشفى لنفس القائل والدع لنفس المتهم به » (١) .

ومن التكرار ما تكون فيه السخرية ناشئة من المبالغة « فعند انفعالنا بالمواقف تحتجب بالخيال الحقائق الواقعة ، فإذا بها في مقام التفخيم أكبر مما هي ، وفي مقام التهوين أصغر مما هي ، فإذا انطلقنا نعبر عنها تدخل التكرار عنصراً من عناصر التخييل التي توهم أن الحقيقة هي ما نعبر به لا ما يراه من يرى ، وهذا النوع مشترك بين المقامات الخطابية القائمة على الانفعالات فقد يسوق إليه قصد التفكه والسخرية » (٢) .

وذلك كقول ابن الرومي يضحك من شخص ويسخر به وينفي عنه أي صلة بعلم النحو ، ويجعل الجهل صفة من صفاته مهما حاول أن يتخلص أو يتملص منها فما تنفك عنه ، يقول : (٣)

لو تلففت في كساء الكسائي وتلبست فروة الفراء
وتخللت بالخليل وأضحى سيويه لديك رهن سباء
وتكونت من سواد أبي الأسود شخصاً يكنى أبا السوداء
لأبي الله أن يعدك أهل العلم إلا من جملة الأغياء

ومن التكرار الساخر المتهم ما يروى عن مؤدب كان يتهم بمن يحسنون جمع العلم في الكراريس ولا يحسنون جمعه في الصدور يقول : (٤)

(١) انظر التكرير بين المثير والتأثير ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ١١٦ .

(٣) ديوان ابن الرومي ٨٧/١ .

(٤) أنوار الربيع في أنواع البديع ، لابن معصوم ٣٨٨/٢ ، ٣٨٩ ، حققه شاعر شكر .

صاحب الكتب تراه أبداً غير ذي فهم ولكن ذا غلط
كلما فتشته عن علمه قال علمي يا خليلي في سفظ
في كراريس جواد أحكمت وبخط أي خط أي خط

انظر إلى لفتته الساخرة حين يصف الكراريس بأنها « جواد أحكمت » ثم إنه يصور هذا الكاتب بصورة المغفل عديم الفهم كثير الغلط يقف أمامك مسترخياً تفتشه تبحث عن علمه وما حواه من فهم فلا تجد شيئاً وحينما يفتن إلى ما تبحث عنه يعاجلك في لغة باردة بالعدو الذي هو أقبح من ذنب :

علمي يا خليلي في سفظ
في كراريس جواد أحكمت
وبخط أي خط أي خط

وهذا التكرار لا يحتاج إلى تعليق ، فالمهجو واثق من أن علمه في كراريس جيدة محكمة قد كتب بخط ولكن أي خط !

ومن التكرار الساخر طريقة تعتمد تكرار الاسم من قبيل الاستخفاف والهزء به ، فكان مجرد ذكره أصبح باعثاً على الضحك والتفكه ، من ذلك هجاء ذي الرمة وسخريته من بني « امرئ القيس » في قصائد كثيرة كان التكرار سمة بارزة وأسلوباً واضحاً من أساليب هذا الهجاء ، فكان يكرر اسم « امرئ القيس » في القصيدة الواحدة مرات كثيرة وكأنه يذكر بلوهم ويتفكه بذكرهم ، والقارئ لقصائده في هجاء هؤلاء القوم يجد ذلك أسلوباً واضحاً في هجائه لهم ، ومنه قوله : (١)

(١) ديوان ذي الرمة ، بشرح الأصمعي ١/ ٥٥٥ - ٥٥٨ ، حققه د. عبدالقدوس أبو صالح .

وقد سميت باسم امرئ القيس قرية كرام صواديها لثام رجالها
 يظل الكرام المرملون بجوفها سواء عليهم حملها وحيالها
 إذا ما أمرؤ القيس بن لؤم تطعمت بكأس الندامي خبثها سبالها
 وكأس امرئ القيس التي يشربونها حرام على القوم الكرام فضالها
 ستعلم أستاذ امرئ القيس أنها صغار مناميها قصار رجالها

ومن التكرار ما يسمى تكرار المفارقة « يكون لتأكيد التفريق على وجه التضاد ، وتكرير اللفظ يدل أولاً على توهم التماثل فيما تعلق به ، فإذا اختص كل من اللفظين بما ارتبط به تمت المفارقة وزاد التبين ، لما هو مغروس في النفس والطبع من حب الموازنة » (١) . انظر إلى سخرية دعبل الخزاعي حين يجمع بين عمرو وضيفه في السهر معا ، ثم يفرق بينهما في الحال فعمر ولبطته أما الضيف فللجوع ، وهو يجعل من اسم عمرو عرضة للسخرية والتهكم حين يكرره في بيت واحد ثلاث مرات حتى يلصق به تلك النقيصة ، حين يسهر ضيفه ويسهر معه ، لكن شتان بينهما فعمر و يشبع من لؤمه ويجوع ضيفه ، يقول دعبل : (٢)

أضياف سالم في خفض وفي دعة وفي شراب ولحم غير ممنوع
 وضيف عمرو ، وعمر و يسهران معا عمرو لبطته ، والضيف للجوع

ومن التكرير الساخر هجاء حماد عجرد الشاعر العباسي المشتهر بسخرياته اللاذعة ، في هذه المقطوعة التي يصب فيها جام سخريته على ابن نوح لأنه كان يتعرب ، يقول حماد : (٣)

(١) انظر التكرير بين المثير والتأثير ١٣٤ .

(٢) شعر دعبل الخزاعي ، صنفه د . عبد الكريم الأشتر ٣٠٨ .

(٣) أخبار أبي تمام ، للصولي ٢٤٠ . حققه عساكر وعزام والهندي .

قال ابن نوح لي وقد	أظهر بعض الغضب :
أنت الذي نفيتني	في الشعر عن نوح أبي
فقلت : لا ، لا ترميني	منك بمحض الكذب
ويحك لم أفعل وإن	كنت سقيم الحسب
لكنني كنت فتى	علامة بالنسب
فقلت لي : نوح أبي	فقلت : جاوز باب
فلم تجاوزة ، وفي	ذلك بعض الريب
فيا ابن نوح يا أخا الـ	جلس يا ابن القتب
ومن نشأ والده	بين الربى والكثب
يا عربي ، يا عربي	يا عربي ، يا عربي

يدير حماد هذا الحوار الماكر بينه وبين ابن نوح ، فيحتال فيه ليحجر خصمه إلى حوار غير متكافئ ، فهو يطعن في نسبه ، وابن نوح لا يملك سوى أن يستنكر هذا الطعن ، ويمضي حماد في طعنه وهزئه ، فيوجه الخطاب إلى ابن نوح هازئاً ، فينسبه إلى أخوة المجلس وبنوة القتب ؛ لأنه عربي أصيل عاش في البادية ورعى إبلها ، بل إنه ابن أجداد عاشوا بين الربى والكثب ! ثم يختم حماد هذا الحوار بنداءات ساخرة يتخذ فيها من التكرار أسلوباً يهزأ به من ابن نوح ، فهو ليس عربي مرة أو مرتين أو ثلاثاً بل أكثر من ذلك ، فعروبه لا يماري فيها أحد ، ويبدو أن دعوى العربية قد أغاضت غير حماد ، فهذا مغلد الموصلي يسخر من ادعاء أبي تمام النسب العربي ، ويجعل من أساليبه التي يعتمد عليها في هذه السخرية تكرار بعض الألفاظ ذات العناية الخاصة والدلالة الموحية ، فيقول مخاطباً أبا تمام : (١)

(١) أخبار أبي تمام ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

أصل ما فيك كلام	أنت عندي عربي الـ
أجبي ما تُرام	عربي عربي
ك خزامي وثمان	شعر فخذيك وساقك
رك نبع وبشام	وضلوع الشلو من صد
وتواصيك ثغام	وقدئ عينك صمغ
جفلت منك نعام	لو تحركت كذا لانت
ويراينع عظام	وظباء مخصبات
لفني فيك الأنام	أنا ما ذنبي وإن خا
نبيات لك نام	وأنت منك سجايا
عزقت فيك الكرام	وقفاً يحلف أن ما
من بني الأنباط خام	ثم قالوا جاسمي
عربي ما تضام	كذبوا ما أنت إلا
وحواليه سلام	بيته مابين سلمى
ء قسي وسهام	وليه من إرث آبا
قد دنا منها صرام	ونخيل باسقات
عربي والسلام	أنت عندي عربي

ما هذه العروبة التي ما فيها كلام ! يكرر مخلد الألفاظ والمعاني ، يحوكها في التهكم بأبي تمام ، فيصفه بأوصاف الأعراب ، فلا يترك صفة فيها جلافة الأعراب ورثاتهم وخشونتهم إلا نعت بها أبا تمام ، مبالغة منه في إثبات هذه العروبة الأصيلة ! ثم نراه يردد أسلوبه بين مدح ماهر ، وسخر واضح ، ويلجأ إلى تلك الأوزان والإيقاعات الخفيفة الراقصة التي تضيفي على سخريته شعوراً بالخفة والقبول ، ونراه يؤكد هذا الأصل العربي الذي يريد أن يثبت في أول القصيدة وآخرها .

ويقع التكرار في الهجاء على سبيل الشهرة وشدة التوضيح بالمهجو ، كقول ذي الرمة يهجو المرثي وهو رجل من بني « امرئ القيس » يقول (١) :

تسمى امرأ القيس بن سعدٍ إذا اعتزّت	وتأبى السبّال الصُّهْبُ والآنفُ الحُمُرُ
ولكنما أصلُ امرئ القيس معشرٌ	يحلُّ لهم لحم الخنازير والخمرُ
نصابُ امرئ القيس العيْدُ ، وأرضهم	ممرُّ المساحي ، لا فلاةٌ ولا مضرُ
تخلّى إلى القفر امرؤ القيس إنّه	سواء على الضيفِ امرئ القيسِ والقفرُ
تُحب امرؤ القيس القِرَى أن تنالَهُ	وتأبى مقاربيها إذا طلع النسرُ
هل الناسُ إلا يا امرأ القيس غادرٌ	ووافٍ ، وما فيكم وفاءٌ ولا غدرُ

يعمد ذو الرمة إلى تكرار اسم هذه القبيلة في كل بيت ، يلوك اسمها على لسانه ويتذله عند كل منقصه ، هازئاً بهم مظهرها استخفافه لهم عن طريق التكرار الذي قصد به الهجو والتوضيح والتشهير .

وكذلك صنع جرير في قصيدته « الدماغة » التي هجا بها راعي الإبل فإنه كرر « بني غمير » في كثير من أبياتها ما يقرب من ستة عشر مرة ، والتي منها قوله مخاطباً الراعي النميري : (٢)

فغض الطرف إنك من غير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومن ذلك أيضاً قول جرير يسخر من بني « تيم » ، وتيم قبيلة اشتهر هجاؤها وقل

(١) انظر العمدة ٢/ ٦٨٧ ، ٦٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، وديوان جرير ٢/ ٨١٣ - ٨٢٥ .

بلاؤها حتى أصبحت مثلاً يضرب في الذل وقلة الوزن ، فقليل فيهم ذلك البيت الذي أصبح مثلاً مشتهراً : (١)

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَيْدَ تَيْمٍ وَتَيْمًا ، قُلْتَ أَيُّهُمْ الْعَيْدُ !

يقول جرير في السخرية منهم : (٢)

وتَيْمٌ تَمَاشِيهَا الْكَلَابُ إِذَا غَدَوْا وَلَمْ تَمْشِ تَيْمٌ فِي ظِلَالِ الْخَوَافِقِ
وتَيْمٌ بِأَبْوَابِ الزُّرُوبِ أَذَلَّةٌ وَمَا تَهْتَدِي تَيْمٌ لِبَابِ السَّرَادِقِ
وَتَمْسَحُ تَيْمٌ قُصَّةَ التَّيْسِ وَاسْتَهُ وَلَا يَمْسَحُونَ الدَّهْرَ غُرَّةً سَابِقِ

إنه أقذع هجاء وأبلغ سخرية . تماشيهم الكلاب فهم رعاة أذلاء لا يمشون تحت الرايات وإنما هم بأبواب الزرائب ، فلا يهتدون لأبواب السرادق ، بل شأنهم الاهتمام بالدواب الحقيمة ورعايتها ، أما خيول الحرب فلا شأن لهم بها ، ثم إنه يكرر اسم تيم عندما يسند إليهم كل نقيصة ، تهكما بهم وسخرية منهم .

يتضح مما سبق أن التكرار أحد أساليب التعبير التي تصور انفعالات النفس بشتى معانيها ، وحينما يكون هذا الانفعال سخرية وتهكم فإن التكرار يكون عندها من الأساليب المرشحة للقيام بهذا المعنى .

(١) العمدة ٨٥١/٢ .

(٢) ديوان جرير ٨٠٢/٢ .

الفصل الثاني

السخرية في أساليب علم البيان

ويشمل

- التشبيه الساخر .

- الاستعارة الساخرة .

- الكناية الساخرة .

التشبيه الساخر

التشبيه جزء أصيل في بلاغة اللغة وآدابها ، لذلك عني الباحثون به واجتهدوا في دراسته « وهذه العناية راجعة إلى شيوع هذه الخاصية وجريانها في كثير من فنون الكلام وكثرتها في كلام رب العزة والجلال وحديث رسول الله ﷺ » (١) .

والتشبيه لون من ألوان التعبير الممتاز الأنيق ، تعتمد إليه النفوس بالفطرة حين تسوقها الدواعي إليه ، يستوي في ذلك العرب والعجم ، والخاصة والعامة ، فهو من الصور البيانية التي لا تختص بجنس ولا لغة ؛ لأنه من الهبات الإنسانية والخصائص الفطرية والتراث المشاع بين الأنواع البشرية جميعاً ، ذلك أن أساسه هذه الصفات المشتركة ، أو المتشابهة ، أو المتضادة التي يراها الإنسان في الأشياء ، ويترتب على ذلك استساغته استعمال الألفاظ بعضها مكان بعض تجوزاً (٢) .

وهو يزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأكيداً لذلك أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه ، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان (٣) .

ومن أبرز صفاته المبالغة ، والبيان ، والإيجاز ، وأما فائدته فإنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه ، أو التنفير عنه ، فإنك إن شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان

(١) انظر التصوير البياني ، د. أبو موسى ٢٥ .

(٢) انظر فن التشبيه ، الجندي ٤٣ / ١ .

(٣) الصناعتين ٢٦٥ .

ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها ، وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقرب منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو إلى التنفير عنها (١) .

والتشبيه دقيق المسلك مستوعر المذهب ، وهو مقتل من مقاتل البلاغة ، وسبب ذلك أن حمل الشيء على الشيء بالمماثلة إما صورة وإما معنى ، يعز صوابه ويعسر الإجابة فيه وقلما أكثر منه أحد إلا عثر (٢) .

يقول عبدالقاهر مبينا فضيلة التشبيه والتمثيل ، وموضحا ذلك بالأمثلة على عادته : « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه ، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أوبرزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وأكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباغة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا .

فإن كان مدحا ، كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعا للمادح ، وأقضى له بغر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذما ، كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد

.....

وإن أردت أن تعرف ذلك ، فانظر إلى الفضل بين أن تقول : « أرى قوما لهم بهاء ومنظر وليس هناك مخبر ، بل في الأخلاق دقة ، وفي الكرم ضعف وقلة » وتقطع الكلام

(١) انظر المثل السائر ٢/ ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق .

وبين أن تتبعه نحو قول الحكيم : (أما البيت فحسن ، وأما الساكن فرديء) وقول ابن
لنكك (*) :

في شجر السَّروِ منهمُ مثْلٌ له زُواءٌ وما له ثمرٌ

وانظر إلى المعنى في الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر ، ويفتر ثغره
ويبسم ، وكيف تشتار الأرى من مذاقته كما ترى الحسن في شارته « (١) » .

والتشبيه أشبه شيء بوسائل الإيضاح التي تهدف إلى زيادة التأثير في
النفس ، وتثيت المعاني فيها ، إذ يعقد صلة بين أمرين أو أكثر يشتركان بصفة أو أكثر بقصد
إبراز هذه الصفة في أحدهما وتجسيمها وتوضيحها ، فإذا كان ذما جاء مؤثرا موجعا يبرز
نقائص المهجو ويصورها واضحة للعيان فتكون الصورة أبلغ في الذم وأكثر تأثيرا في
الخصم (٢) . لذلك يقول الزمخشري : « فيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة
الجامح الأبي » (٣) .

والتشبيه أحد أساليب البيان العالية ، لذلك تكررت صورته في القرآن الكريم
كثيرا ، وكان من هذه التشبيهات الصور الساخرة التي يصورها القرآن الكريم لأولئك
الكافرين والمعاندين والمستكبرين ، فيسخر من كبريائهم وغرورهم ، ويسفه أحلامهم

(*) محمد بن محمد بن جعفر أبي الحسن المعروف بابن لنكك البصري ، الشاعر الأديب ، عاصر
المتنبي وأبو رياش فكسدت بضاعته بنفاق سوقهما فأكثر من هجائهما ، وكان أكثر شعره في
شكوى الزمان وهجاء شعراء عصره . معجم الأدباء ٦/١٩ .

(١) انظر أسرار البلاغة ١١٥ - ١١٨ . محمود شاكر .

(٢) الصورة بين البلاغة والنقد ، أحمد بسام ٤٥ .

(٣) تفسير الكشاف ٣٧/١ .

وعقولهم ، فنراه مرة يشبههم بالدواب والأنعام (١) ، فيسلبهم العقل والتفكير ، ومرة يشبههم ببعض هذه الدواب كالحمار (٢) أو الكلب (٣) أو العنكبوت التي اتخذت بيتا (٤) ، ويسخر القرآن من المنافقين فيشبههم بالخشب المسندة (٥) وهم يتعجبون من أمثال القرآن وتشبيهاته ويرددون « ماذا أراد الله بهذا مثلا » (٦) ونسوا أن « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى » (٧) ولا شك أن الهدف الديني السامي هو الغرض المقصود من كل تشبيه أو تمثيل في القرآن الكريم .

وينبه الله عز وجل على ضلال المشركين ، فيسخر من شركهم وجهلهم ، يقول سبحانه : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشبه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القاهر ﴾ (٨) .

استفهامات إنكارية متوالية تنصب على هؤلاء المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم - فضلا عن غيرهم - نفعا ولا ضرا ، ثم ترتفع درجة الإنكار وتعلو « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . . » . « أم » هنا

(١) انظر الآيات (١٧١) من سورة البقرة ، (١٢) من سورة محمد ، (٤٤) من سورة الفرقان .

(٢) انظر الآيات (٤٨ - ٥١) من سورة المدثر ، (٥) من سورة الجمعة .

(٣) الآية (١٧٦) من سورة الأعراف .

(٤) الآية (٤١) من سورة العنكبوت .

(٥) الآية (٤) من سورة المنافقون .

(٦) بعض الآية (٢٦) من سورة البقرة .

(٧) الآية (٦٠) من سورة النحل .

(٨) الآية (١٦) من سورة الرعد .

مقدرة ببل والهمزة للإنكار ، وفي قوله « خلقوا كخلقه » تهكم جاء في سياق الإنكار ، لأن غير الله لا يخلق خلقا البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة ولا بطريق الانحطاط والقصور ، وقد كان يكفي في الإنكار عليهم أن الآلهة التي اتخذوها شركاء لا تخلق مطلقا ، ولكن جاء في قوله تعالى « كخلقه » تهكما يزيد الإنكار تأكيدا (١) .

والمشركون في ضلالهم وغيهم كالأنعام لا تعي ولا تعقل : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (٢) قيل مثل الذين كفروا كبهائم الذي ينعق والمعنى ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوى الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار ، كمثل الناقع بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناقع ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لها ولا تفقه شيئا آخر ، ولا تعي كما يفهم العقلاء ويعون (٣) .

وتشبيههم بالأنعام والبهائم التي هذا حالها فيه تحقير وإهانة لهم وسخرية وتهكم بعقولهم وحواسهم التي لم يتفجعوا بها ، فالكافر المعاند يلغى عقله ويلغى سمعه وبصره وينساق كما تنساق الدواب ، لذلك جاءت الآيات تشبههم في حالهم هذا بالبهائم : « والذين كفروا يمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » (٤) « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (٥) .

(١) انظر الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، لابن المنير ٢/ ٢٨٤ . ضمن تفسير الكشاف .

(٢) الآية (١٧١) من سورة البقرة .

(٣) انظر تفسير الكشاف ١/ ١٠٧ .

(٤) بعض الآية (١٢) من سورة محمد .

(٥) الآية (٤٤) من سورة الفرقان .

وشبهوا بجنس من البهائم حقير ، اشتهر بالغباء والامتهان « فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » (١) .

يصف القرآن حال الكافرين وإعراضهم عن داعي الهدى وينكر عليهم ، فيأتي الإنكار يصحبه التعجب والسخرية ، ثم يصف نفورهم الشديد من هذه الدعوة وصفا فيه إهانة لهم وسخرية من هذا السلوك العجيب تجاه من يريد لهم الخير ، فيشبههم بالحمير وفي تشبيههم بها مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين شهادة عليهم بالبله وقلة العقل ، ثم يخرج من هذا التشبيه صورة مضحكة ، مجموعة من الحمير باغتها أسد كاسر فأخذت تعدو في كل اتجاه ، ولا ترى مثل نفار الحمير إذا رابها رائب (٢) .

ويشبه القرآن الكافر بالكلب إهانة له وتحقير الشأن : « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » (٣) هو عالم من علماء بني إسرائيل وقيل من الكنعانيين أوتي العلم والآيات فانسلخ منها بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ، فأدركه الشيطان فصار من الضالين ، ومال إلى الدنيا ورغب فيها ، فضرب الله له مثلاً يهينه فيه ويشبهه بالكلب ذلك الحيوان الحقير ، بل وهو في أحسن حالاته ، فصفته التي هي مثل في الخسة والضعفة كصفة الكلب في أحسن أحواله وأذلها ، وهي حال دوام اللهث به واتصاله ، سواء حمل عليه أي شد عليه وهيج فطرد أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه وتكمن سخرية القرآن في تصوير مآل هذا الشخص ، والحالة التي ألجأ نفسه إليها ، فلا تكتفي بتشبيهه بالكلب وإنما تختار حالة معينة يتميز بها الكلب ، وهي أنه يلهث دائما ، سواء تحمل جهدا أو لم يتحمل ، وهو منظر قبيح في الكلب ، ومصدر قبحه أنه لا تعليل له إلا أنها طبيعة فيه (٤) .

(١) الآيات (٤٩ - ٥١) من سورة المدثر .

(٢) انظر تفسير الكشاف ١٦٢/٤ ، وأسلوب السخرية في القرآن الكريم ١٠٦ .

(٣) بعض الآية (١٧٦) من سورة الأعراف .

(٤) انظر تفسير الكشاف ١٠٣/٢ ، ١٠٤ ، وأسلوب السخرية في القرآن ص ٢٧٨ .

ولئن كان هذا مثلاً عن واحد من اليهود يعبر عن طبيعتهم وخلقهم فإن هناك مثلاً لهم جميعاً ، يصور موقفهم من كتب الله التي أنزلها عليهم فلم يتفجعوا بها ، فكان مثلهم مثل الحمار الذي يحمل الأسفار ولا يتفجع بها : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ (١) .

والتشبيهات القرآنية التي تسخر من حال المشركين ومآلهم كثيرة ، والقرآن عامر بهذه الصور التي تمثل أمام العيان فتتفر أصحاب العقول من هذا المصير ، وتجعلهم يتفكرون في هذه الحال فينأون بأنفسهم عنها ، لأنها ليست بذات نفع بل إن عاقبتها الخسران ، ومن هذه الصور هذا السياق الذي يشبه فيه القرآن الذين يدعون من دون الله في عدم الاستجابة برجل منحني على سطح ماء وهو ظامئ يكاد يموت من شدة العطش ، ولكنه في بلاهة يمد يديه مبسوطتين إلى الماء ليصل إلى فمه فيرتوي فلا الماء صاعد ولا هو مرتوم مع قرب الماء وشدة الحاجة ، وفي السياق تأكيد ذم بما يشبه المدح حيث بدئت الآية بنفي أن يستجيبوا لهم بشيء فأقنطهم ذلك ثم ذكرت أداة الاستثناء ، ومن شأن المستثنى أن يكون مغايراً للمستثنى منه فقال « إلا » فتعلقت الآمال بالآلهة من جديد وانتظروا فكان المستثنى أوقع في اليأس من المستثنى منه (٢) ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلل ﴾ (٣) .

والتشبيهات القرآنية الساخرة كثيرة تحتاج إلى بحث مستقل ولعل ما قدمنا فيه نموذج من هذه التشبيهات التي تتناول جانباً من أساليب البيان التي يزخر بها القرآن الكريم .

(١) بعض الآية (٥) من سورة الجمعة .

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ٢ / ٢١٩ .

(٣) بعض الآية (١٤) من سورة الرعد .

ولما كان التشبيه فن أصيل في لغة العرب أكثر منه القدمات في شعرهم ونثرهم وكانوا يستحسنون منه ما كان مدركاً بالحس أو ما جرت به العادة وألفته النفوس ، وعرفت عندهم تشبيهات مشتهرة مستمدة من بيئتهم وحياتهم ومجتمعهم فسلكوا بها طريقة معينة تناقلوها وألفوها ، من ذلك تشبيهات تستعمل في حال المدح كتشبيه الجواد بالبحر والمطر والشجاع بالأسد ، والحسن بالشمس والقمر ، والماضي بالسهم وبالسيف ، والعالي الرتبة بالنجم ، والحليم الرزين بالجليل ، والحيي بالبكر ، والفايت بالحلم (١) .

وشهر قوم بخصال محمودة فصاروا فيها أعلاماً يشبه بها في حال المدح فإذا ذكروا انصرفت الأذهان إلى صفاتهم التي اشتهروا بها لا إلى أشخاصهم ، كسموئيل في الوفاء ، وحاتم في السخاء ، والأحنف في الحلم ، وسحبان في البلاغة ، وقس في الخطابة ، ولقمان في الحكمة (٢) .

كما أنهم قد استعملوا تشبيهات عديدة في حال الذم فإذا أرادوا ذم أحد أو التهمك به شبهوه بها ، ولا ينصرف الذهن عند إطلاق هذه التشبيهات إلا إلى تلك المعاني المشتهرة المتعارف عليها ، فشبهوا الجبان بالنعام وبالصَّفرد وهو طائر شديد الخوف والحذر والطائش بالفراش ، والذليل بالنَّقْد والنعل والفقع والوتد ، والقاسي بالحديد والصخر والبليد بالحمار ، والبخيل بالأرض المجذبة ، واللجوج بالخنفساء ، والأكول بالفيل (٣) .

كما أن هناك أشخاصاً اشتهروا بخلال ذميمة وخصال قبيحة ، فشبه بهم في حال الذم والتهمك : كباقل في العي ، وهبنقة في الحمق ، والكسعي في الندامة ، والمنزوف ضرطاً في الجبن ، ومادر في البخل (٤) .

(١) انظر الصناعتين ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

جاءت هذه التشبيهات كثيراً عن العرب واستعملوها في الشعر والنثر ، وربما قصدوا بها السخرية والتهكم بمن شبهوه بها .

ومن ذلك ما أثر عنهم من الأمثال التي فيها معنى الذم والتحقير أو الإهانة والإذلال مثل قولهم : « أذل من وتد بقاع » (١) ، لأنه يُدق أبداً ، ومنه قولهم : « أذل من حمار مقيد » ، وفي ذلك يقول الشاعر : (٢)

إِنَّ الْهَوَانَ حِمَارُ الْأَهْلِ يَعْرِفُهُ وَالْحَرُّ يَنْكُرُهُ وَالْجَسْرَةُ الْأَجْدُ
وَلَا يُقِيمُ بَدَارَ الذِّلِّ يَعْرِفُهَا إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْرُ الْأَهْلِ وَالْوَتْدُ
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَأْوِي لَهُ أَحَدُ

وقالوا أيضاً : أذل من فقع بقرقرة ؛ لأنه لا يمتنع على من جناه ، ويقال : بل لأنه يوطأ بالأرجل ، والفقع : الكمأة البيضاء والجمع فُقَعَة (٣) .

ويُشَبَّه الرجل الذليل بالفقع ، فيقال : هو فقع قرقر ، لأن الدواب تنجله بأرجلها .

قال النابغة يهجو النعمان بن المنذر :

حَدَّثُونِي ، بَنِي الشَّقِيقَةِ مَا يَمِـ نَعَفَقَا بَقَرَقَرَانِ يَزُولَا

لأن الفقعة لا أصول لها ولا أغصان ، ويقال فلان فقعة القاع (٤) .

كما يقال أيضاً في مولد الأمثال « هو كشوت الشجر » والكشوت نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض ويقال له شجر العليق وهو نوع من

(١) مجمع الأمثال ١٨ / ٢ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

الشجر يعتمد في غذائه وحركته على غيره من الأشجار فيضرب به المثل في عدم الفائدة وفي الاتكال على الغير والتسلق على الأكتاف ، ولا شك أن هذا طبع خسيس وهو طبع اللئام فإذا شبه شخص به كان في ذلك إهانة له وتهكما به ، ومنه قول الشاعر : (١)

هو الكَشُوتُ فلا أصلٌ ولا ورقٌ ولا نسيمٌ ولا ظلٌ ولا ثمرٌ

وقالوا أيضاً : « أذل من النقد » ، وهو جنس من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه قال الأصمعي : أجود الصوف صوف النقد ، وقال : (٢)

ففيم ياشرّ تميمٍ مَحِيداً لو كنْتُمْ ضأنا لكنْتُمْ نَقْدَا
أو كنتم ماءً لكنْتُمْ زَبَدَا أو كنْتُمْ صُوفاً لكنتم قَرْدَا

وقالوا : « أذل من النعل » ، لأنه يمتهن في كل شيء عند الوطء ومن هذا قول البعيث : (٣)

وكلُّ كَلْبِي صفيحةٌ وجهه أذلُّ على مسِّ الهوانِ من النَّعلِ

وقالوا أيضاً : « أجبن من صفرد » ، والصفرد : طائر من خشاش الطير ، قال الشاعر : (٤)

تراه كالليث لدى أمنيهِ وفي الوغى أجبنُ من صفردِ .

وقالوا : « أجبن من نعامة » ، وذلك أنها إذا خافت من شيء لا ترجع إليه بعد ذلك الخوف ، وفي ذلك يشبه الشاعر مهجوه بالنعامة هاجيا له ومتهكما به ، يقول (٥) :

(١) مجمع الأمثال ١٨/٢ ، ١٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ٢٠/٢ .

(٤) المرجع السابق ١/٣٢٩ .

(٥) المرجع السابق ١/٣٣٣ .

أسد علي وفي الحروب نعمة فتخاء تنفر من صغير الصافر

وقالوا في الحمق : (أحمق من عجل) ، وهو عجل بن لجيم (*) ، من الحمقى المنجيين ، وذلك أنه قيل له : ماسميت فرسك ؟ فقام ففقأ عينه وقال : سميته الأعور ، وفيه يقول جرثومة العنزى : (١)

رمتي بنو عجل بداء أيهم وأي امرئ في الناس أحمق من عجل
أليس أبوهم عار عين جواده فصارت به الأمثال تضرب في الجهل

وشهر في الحمق والغفلة « هبنقة » حتى صار مثلاً يضرب في ذلك فقالوا : « أحمق من هبنقة » ، وهو ذو العاهات ، واسمه يزيد بن ثروان ، ويذكرون له قصصاً في الحمق كثيرة ، حتى أصبح مثلاً يضرب في الحمق والغفلة ، قال فيه الشاعر : (٢)

عش بجـد ولن يضرك نوك إن غـا عـيش من ترى بجـدود
عش بجـد وكن هبنقة القيـــــسي نوكا أو شـيـبة بن الوليد
رب ذي أربعة مقل من الما ل وذي عنجـهية مجدود

واشتهر في البخل (مادر) حتى قالوا : (أبخل من مادر) ، وهو رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة ، وبلغ من بخله أنه سقى إبله فبقى في أسفل الخوض ماء قليل فسلح فيه ومدر الخوض به ، فسمى مادراً لذلك (٣) . فأصبح هذا الاسم سبة له ولقومه

(*) عجل بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر وائل قيل : هو من الحمقى المنجيين . مجمع الأمثال ٣٨٦/١ .

(١) مجمع الأمثال ٣٨٦/١ .

(٢) المرجع السابق ٣٨٧/١ .

(٣) المرجع السابق ١٩٦/١ ، ١٩٧ .

بني هلال ولكل من شبه به . وصارت فعلته هذه مثلاً يضرب : يقول الشاعر معيراً بني هلال بفعله صاحبهم : (١)

لقد جَلَلَتْ خِزْيَا هَلَالُ بْنُ عَامِرٍ بني عامرٍ طُرّاً بِسَلْحَةِ مَادِرٍ
فَأَفَّ لَكُمْ لَا تَذْكُرُوا الْفَخْرَ بَعْدَهَا بني عامرٍ أَنْتُمْ شِرَارُ الْمَعَاشِرِ

وفي الجبن شهر رجل لقب بالمتزوف ضرطاً ، فقالوا (أجبن من المتزوف ضرطاً) وقالوا كان من حديثه أن نسوة من العرب لم يكن لهن رجل ، فتزوج إحداهن رجل كان ينام الضحى ، فإذا أتينه بصبوح قلن : قم فاصطح ، فيقول : لو نبهتني لعادية ، فلما رأين ذلك قال بعضهن لبعض : إن صاحبنا لشجاع ، فتعالين حتى نجربه ، فأتينه كما كن يأتينه فأيقظته ، فقال : لو لعادية نبهتني ، فقلن : هذا نواصي الخيل ، فجعل يقول : الخيل ، الخيل ، ويضرط حتى مات (٢) .

وفي العي شهر (باقل) حتى صار مثلاً يضرب فقالوا : (أعي من باقل) ، وهو رجل من إياد ، بلغ من عيه أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهما فمر بقوم فقالوا له : بكم اشتريت الظبي ؟ فمد يديه ، ودلع لسانه يريد أحد عشر ، فشرذ الظبي وكان تحت إبطه ، فصار مثلاً يضرب في العي ، يشبه به كل من اتصف بصفته (٣) .

يقول حميد الأرقط الشاعر الأموي ساخراً من ضيف له أكثر من الطعام حتى منعه ذلك من الكلام ، وكان قبل أن يوضع الطعام كسحبان وائل بيانا وفصاحة ، وما ذلك إلا أن الطعام شغله ، فقال فيه متهمكاً ومصوراً جشعه على الطعام وقد شبهه عند الأكل بباقل لصمته وعيه وقلة كلامه . يقول : (٤)

(١) مجمع الأمثال ١/١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) المرجع السابق ١/٣٢٢ .

(٣) المرجع السابق ٢/٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(٤) المرجع السابق .

أَتَانَا وَمَا دَانَاهُ سَخْبَانُ وَائِلٍ يِنَانًا وَعِلْمًا بِالذِي هُوَ قَائِلُ
فَمَا زَالَ مِنْهُ اللَّقْمُ حَتَّى كَانَهُ مِنْ الْعِيِّ لَمَّا أَنْ تَكَلَّمَ بِاقِلُ
يَقُولُ وَقَدْ أَلْقَى الْمَرَّاسِي لِلْقَرَى أَيْنَ لِي مَا الْحَجَاجُ بِالنَّاسِ قَاعِلُ
يَدُلُّ كَفَّاهُ وَيُخْدِرُ حُلُقَه إِلَى الْبَطْنِ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْأَنَامِلُ
فَقُلْتُ : لَعَمْرِي مَا لِهَذَا طَرَقَتَا فَكُلُّ وَدَعِ الْإِرْجَافَ مَا أَنْتَ آكِلُ

والتشبيهات التي استعملها العرب في الذم كثيرة والطرق التي سلكوها وألفوها فيه عديدة ، وقد أكثرت من ذكر هذه الأمثلة لأنها كثرت في كلامهم ، والتشبيه كما هو معلوم « جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد » (١) .

ولما للتشبيه من قوة وتأثير في النفوس فقد أكثروا منه وجرى على ألسنتهم فإن أرادوا أن يصفوا الممدوح شبهوه بالبحر أو الحبيب شبهوه بالقمر والشمس أما الهجاء والتهكم فإن له عندهم معاني عديدة لأن طبيعة العرب وحياتهم وبيئتهم البدوية ومجتمعهم القبلي يجعلهم ينظرون إلى الهجاء على أنه سلاح ماض قوي شديد الفتك وكانت مثل هذه الأقوال والقصص تشتهر بينهم حتى تسير أمثالا تضرب في الذل والمهانة والاحتقار ، ثم استعملوا هذه الأمثال في أشعارهم ، ولا شك أن الأمثال السائرة المشتهرة المتعارف عليها عندما يضمنها الشاعر قصيدته فإنها تكسب شعره قوة وجده وتقع منه موقعا طريفا إن أحسن الشاعر استعمالها ، ولقد كثر في شعرهم ونثرهم التشبيه بالوتد والفقع والنعل والحمار في الذل ، والتشبيه بالنعامة والصفرد وبالمنزوف ضرطا في الجبن ، والتشبيه بهبنقة في الحمق ، وبمادر في البخل وبقائل في العي .

ويكون وجه الشبه في مثل هذه التشبيهات هو المعنى المشتهر الذي ضرب له المثل

(١) انظر الكامل ، للمبرد ٩٣/٣ ، محمد ابراهيم الفضل .

، فالتشبيه بهنقة يكون الوجه الجامع فيه بين المشبه والمشبه به هو الحمق والغفلة ، كما أن التشبيه بمادر يكون وجه الشبه فيه هو البخل ، والتشبيه بباقل الوجه فيه هو العي ، فوجه الشبه في هذه التشبيهات صفة مشتركة بين الطرفين وهي الحمق في الأول ، والبخل في الثاني ، والعي في الثالث .

ولكن قد تسلك طريقة في التشبيه لا يكون الوجه فيها صفة مشتركة بين الطرفين ، فقد اشتهر عند العرب تشبيهات استعملوها في حال المدح « كتشبيه الكريم بحاتم ، والشجاع بالأسد ، والحسن بالقمر ، والحليم الرزين بالجليل ، والحكيم بلقمان ، والحليم بالأحنف ، والبليغ بسحبان وغيرها من التشبيهات التي تستعمل للمدح » (١) ولكن قد تستعمل هذه التشبيهات والمعاني الشريفة في ضدها ، فيشبه الجبان بالأسد ، والبخيل بحاتم ، والعي بسحبان وائل ، والجاهل بلقمان ، وتشبه القبيحة بالقمر ، والطائش بالجليل ويكون ذلك لغرض الهجاء والسخرية ، يقول ابن حجة : « ومن الشروط اللازمة في التشبيه أن يشبه البليغ الأدون بالأعلى إذا أراد المدح ، اللهم إلا إذا أراد الهجو فالبلاغة أن يشبه الأعلى بالأدون » (٢) .

ويتم هذا التشبيه عن طريق تنزيل هذا التضاد في الصفتين منزلة تناسب ثم يتزع وجه الشبه من التضاد المنزل منزلة تناسب ، ويكون ذلك لغرض التمليح أو التهكم والسخرية .

والتلميح مصدر ملح ، إذا أتى بشيء مليح ، وقصد التلميح أي الاتيان بشيء مليح في طي التعبير بما في الأصل على خلاف المراد (٣) . قال الطرماح يخاطب زوجته سليمة : (٤)

(١) انظر الصناعتين ٢٦٥ .

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب ، لابن حجة ١ / ٣٨٣ . عصام شعيتو

(٣) انظر مواهب الفتاح ٣ / ٣٨٤ .

(٤) أساس البلاغة (ملح) .

تَمَلِّحُ ما استطاعت ويغلب دونها هَوَى لك يُنسى مُلحة المَتمَلِّح

ومعنى التمليح والتهكم في الإصطلاح : إطلاق اللفظ الدال على وصف شريف على ضده ، كإطلاق الكريم على البخيل ، والأسد على الجبان (١) .

وكل واحد من تلك الأمثلة السابقة صالح لأن يكون مثالا للتمlich أو التهكم وإنما يفرق بينها بحسب المقام ، فإن كان قصد المتكلم مجرد التملح والتظرف من غير قصد الاستهزاء والسخرية فالغرض هو التمليح ، وإلا كان سخرية وتهكما .

والتمlich والتهكم قد ينفرد كل منهما عن الآخر وقد يجتمعان ، والفيصل في معرفة ذلك السياق وقرائن الأحوال ، فإذا قلت مثلاً لصديق لك : أنت حاتم في الكرم وكنت تقصد مجاملته وملاطفته ولم يكن هناك مبرراً أو قرينة تشير إلى أنك تقصد التهكم به بل قصدت مدحه والتظرف بين يديه كان الغرض من هذا التشبيه هو التمليح .

أما إذا كان قصدك التهكم وقامت قرينة على ذلك كأن تقول لعدو لك : « أنت أسد في الشجاعة » . كان الغرض من هذا التشبيه السخرية والتهكم .

وقد يجتمع التمليح والتهكم والسخرية في سياق واحد ، وذلك إذا قامت القرائن على قصد المتكلم لهما معا ، ويكثر ذلك في المناظرات والمجادلات والمخاصمات العلنية وذلك كأن يقصد المتكلم التهكم والسخرية من خصمه وإيلامه وذلك بحضرة جمهور فيكون هذا التشبيه سخرية وتجريحا للمشبه وتظرفاً وتملحاً يطرب له ذلك الجمهور لأنك قد نلت من خصمك بأسلوب فيه ظرافة ودهاء .

يقول ابن يعقوب : « واعلم أنه قد ينتزع الشبه من نفس التضاد لاشتراك الضدين فيه ثم ينزل منزلة التناسب بواسطة تمlich أو تهكم فيقال مثلاً للشخص المعلوم بالجن : ما

أشبهه بالأسد في الشجاعة ، وللبخيل هو حاتم في الكرم ، وكلا المثالين صالح لقصد التمليح ولقصد التهكم ولقصد هما معا ، فإذا قامت القرائن على عدم قصد الاستهزاء بالمشبه لصداقته له مثلاً وإنما قصد التمليح أي الإتيان بشيء مليح يستبدع ويستظرف عند السامع ، كانت الوساطة تمليحاً ، وإذا قامت على قصد الاستهزاء بالمخاطب لعداوة وغضب من غير أن يكون ثم من تقصد ظرافة الكلام معه ، كانت الوساطة التهكم ، وإذا قامت على قصد هما معا لعداوة المشبه فقصدت إهانته وإذايته مع وجود سامع يقصد إيجاد الكلام في غاية الظرافة والملاحاة معه ، كان كلاهما واسطة ، أما التمليح فيما ذكر فلأن إفادة نهاية الذم المقصودة في طي ما يفيد نهاية المدح مما يستملح ، وأما التهكم فلأن الإتيان بعكس ما يطلب في طيه معروف لتلك الإهانة كمناولة حجر عند طلب خبز مثلاً ولهذا يقال عند مناولته استهزاء خذ الخبز ، ولأجل قصد نهاية الإهانة ناسب التعبير في هذا التشبيه بصيغة التعجب والمبالغة « (١) » .

ووجه الشبه في مثل هذا التشبيه منتزع من التضاد نفسه الواقع بين الطرفين لا اشتراكهما فيه ، وليس الوجه هو التضاد المشترك بين الطرفين باعتبار الوصفين المتضادين فإنه إن اعتبر وجه الشبه في التضاد أي في كون كل منهما مضاداً للآخر فإن ذلك لا يكون من التمليح والتهكم ، ولو أننا أردنا أن نذكر وجه الشبه ونصرح به في قولنا للبخيل هو حاتم ، فلا بد أن نقول هو حاتم في الكرم ، مع أن الصفة في البخيل ضد الكرم ، لكننا نزلنا هذا التضاد منزلة التناسب وجعلنا البخل بمنزلة الكرم على سبيل التمليح والهزاء .

يقول ابن يعقوب : « وجه الشبه في هذا التشبيه هو الوجه الرافع للتضاد الموجب للمناسبة لا نفس التضاد المشترك للضدين ، فإننا إذا قلنا : هذا - مشيرين إلى جبان - كالأسد ، وقصدنا أن الوجه التضاد الذي كان في وصفيهما لم يفد تمليحاً ولا تهكماً بل

بمنزلة قولنا : البياض كالسواد ، في تقابلهما وتضادهما أو في اللونية الكائنة فيهما ، والكلام هنا فيما يفيد تمليحاً أو تهكماً ، وإنما يفيد إذا قصد أن يكون الوجه هو الأمر الذي تقتضيه المناسبة الرافع للضدية وهو الشجاعة في المثال ، حتى أنا لو صرحنا به لقلنا : في الشجاعة ، وكذا إذا قلنا في بخيل : هو كحاتم ، إنما نجعل الوجه هو الكرم ، لا الاتصاف بضد ما في كل ، ولكن لما كان الحاصل في نفس الأمر في المشبهين ضد ما ذكر لأن الحاصل في المشبه في الأول الجبن ، وفي الثاني البخل ، نزلنا التضاد بين الوصفين كالمناسبة والمماثلة على ما قررنا آنفاً ، فتوصلنا بذلك إلى جعل الحاصل في المشبه هو الشجاعة في الأول ، والكرم في الثاني على وجه التمليح بإظهار المقصود في نقيضه ، أو التهكم بإعطاء الأذى في عكسه « (١) .

أما السبكي فإنه يرى أن وجه الشبه ليس هو التضاد بل هو مطلق القوة أو الشدة الموجودة في كل من الضدين كما تقول : السواد كالبياض ، في أن كلا منهما لون ، أو اللون كالشم في أن كلا محسوس (٢) .

ويمثل بعض البلاغيين على هذا الأسلوب بما بينه الإمام المرزوقي في قول الشاعر الحماسي شفيق بن سليك الأسدي : (٣)

أتاني من أبي أنسٍ وعيدٌ فسُلَّ لغيظة الضحاك جسمي

فإنه قال : هذا البيت قصد قائله التهكم بأبي أنس والتمليح ، أي الإتيان بشيء مليح يستظرفه السامعون . ومعنى « سُلَّ » ذاب ، وهو بصيغة المبني للمجهول ، والجسم

(١) مواهب الفتاح ٣ / ٣٨٥ .

(٢) انظر عروس الأفراح ٣ / ٣٨٤ .

(٣) انظر شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقي ٢ / ٧٧٧ ، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون .

هو النائب وفي بعض الروايات بدل لغيظة ، تغيط ، فيكون بصيغة المبني للفاعل والتغيط فاعله والجسم مفعول ، والمراد بالضحك أبو أنس نفسه ، وعبر بالظاهر موضع الإضمار بيانا لعين المستهزأ به بذكر الاسم العلم تحقيرا لشأنه ، وقيل الضحك اسم للملك من الملوك سماه به زيادة في التهكم لتضمنه تشبيهه به على وجه الهزاء والسخرية فكأنه قال : فسل جسمي تغيط هذا الذي هو كالمملك الفلاني . ولا يخفى ما فيه من الاستهزاء (١) .

والتشبيه نمط من التصوير أداته اللغة ، وتصريف الكلمات قد ينتج عنه صورة حية متحركة نابضة بمعان في الحياة كثيرة ، وقوة التشبيه وتأثيره في كونه « يخرج النفس من خفي إلى جلي ، ويأتيها بصريح بعد مكني ، ويردها في الشيء لتعلمه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم » (٢) فليس الخبر كالمعاينة ، والتشبيه تصوير يبرز لك المعاني والأفكار في أشكال يجسمها ويصورها ويمثلها حية نابضة واضحة « يضعها أمام القارئ مشخصة بكل ما تتطلبه هذه الحياة من لون وحركة ، والشاعر المبدع ينفذ إلى نفس المتلقى من خلال تشكيل معانيه وتصوير أفكاره تصويرا يمكن المعنى في نفس القارئ أو السامع ، ومن هنا تتضح العلاقة الوثيقة بين المعنى والخيال الذي يضيف على المعنى قوة ووضوحا وجمالا ، فالتخييل يعرض على النفس المعاني في لباس جديد ، ويجلبها في مظهر غير مألوف ، وهو بعد هذا يحرك نفس السامع لتلقي المعنى بارتياح له وإقبال عليه ، وواضح أن الرصيد المختزن في العقل من الصور والمناظر والتجارب وأنواع المحسسات من سمعية وبصرية وغيرها ، كل هذا هو المنبع الذي يستمد منه الخيال ، وهو المادة الأولية التي ينسج منها صورة وينظم عقوده » (٣) .

(١) انظر مواهب الفتاح ٣/ ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، وشرح عقود الجمان ٢/ ٢٠ .

(٢) انظر أسرار البلاغة ١٢١ .

(٣) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤٠٧ .

والشاعر المبدع هو صاحب الأفكار والمعاني المبتكرة ، وهو أشبه بالرسام يحسن رسم الخطوط وتلوينها « والصورة الناجحة هي التي تتشكل في مكانها الطبيعي ويحدودها الفنية ، مكونة مع أجزاء القصيدة الأخرى وحدة متكاملة ، فالصورة الفنية هي التي تضبط انفعال الشاعر ، وتكفل تسجيله ونقله إلى الآخرين ، وحمل عدوى عاطفته إليهم فبغير هذه الصورة لا يتحقق غرض الشاعر ، فالاعتماد على مجرد التعبير الطبيعي الغريزي عن الانفعال ، لا يكفي لبلوغ الشاعر ما يريد » (١) .

وقد لا تكون الكلمة هي أداة التصوير الساخر « بل تكون الألوان والخطوط والظلال والأضواء كما في فن الرسم الساخر » الكاريكاتير « الذي يقوم على تكبير جوانب الضعف أو القبح في شيء ما ، فيبالغ فيها بقصد استغلال الطبيعة في بيان عنصر التشويه ، فتكون باعثاً على الضحك في الوقت الذي تؤدي فيه غرضاً اجتماعياً أو إنسانياً » (٢) .

و (الكاريكاتور) كلمة ليست عربية كما هو واضح من تركيب حروفها وبنائها الصرفي وليس لها وجود في المعاجم « وهي كلمة معربة عن أصل إيطالي ، تطلق على صورة مرسومة لشخص ، أو مجموعة أشخاص ، أو لمشهد من المشاهد ، أو مثالب ونقائص ، وأخلاق ، وعادات ، وتقاليد مرذولة ، وغيرها من الأغراض السيئة التي تشيع في مجتمع من المجتمعات ، وهذه الصورة « الكاريكاتورية » مرسومة كطريقة تقوم على أساس عنصر التجسيم للعيوب والنقائص ، ومسخ الصورة لتستثير السخرية والتندر والتهكم ، والاستهزاء ، والاستهانة ، والتحقير ، بل والإضحاك أيضاً » (٣) .

(١) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤٠٨ .

(٢) انظر السخرية في أدب المازني ، د. حامد الهول ١٨ .

(٣) انظر الرسوم الساخرة في الصحافة ١٥ .

وهو فن صحفي لا تكاد تخلو منه صحيفة أو مجلة ، يعتمد فيه الفنان إلى طريقة في الرسم تعتمد في كثير من الأحيان على المفارقة أو المبالغة في إظهار عيب من العيوب ، وخلق حدث في طريقة التعامل مع قضية ما ، وقد يعتمد الفنان إلى رسم شخصية ما في صورة مضحكة ، كالمبالغة في تصوير عضو من أعضاء الجسم ، ومحاولة تشويه هذا العضو ، فيصوره بأنف طويل يمتد أمامه ، أو آذان كبيرة يحملها بين كتفيه ، فيظهر المعاييب الجسمية ويكبرها بطريقة تجعلها باعثة على الضحك .

والرسم الكاريكاتوري الساخر بالألوان يعد في الحقيقة ربيب التصوير الساخر بالكلمات ، فقد كان بعض الشعراء يمتلك عصيا خاصا يتحسس به مظاهر النقص ، ومقدرة فائقة في التصوير الكاريكاتوري الساخر ، يعث بخصمه ويظهره في صورة مضحكة مزرية .

ولقد كان ابن الرومي أحد هؤلاء الشعراء « ولعل شعوره الدائم بالعاهة دفعه إلى تقصي مياسم الضعة في الناس ، يبالغ بها ، ويؤولها في كل جهة ليمسح عالمهم ، ويحيله إلى عالم مرتج كثير الاختلال كعالمه ، فهو يتفرس في الناس . ويتأمل ملامحهم المنكرة ، ولا يكاد يعثر على واحدة منها حتى يتولاها بعصبه المتشائم ، ونفسيته الماسخة ، فيزيل سائر الملامح والسمات الطبيعية ، وينصرف إلى العيب بالوجه المنكر ، مبدعاً في تصويره ممعنا في تشويبه والضحك منه » (١) انظر إلى تصويره وعبه بهذا الرجل : (٢)

وَكأنَّ صَوْتَكَ حِينَ تَصْدَحُ صَوْتُ رَعْدٍ يَرْجِسُ
فَإِذَا صَدَحْتَ مَوْذَنًا كَادَتْ تَمُوتُ الْأَنْفُسُ

(١) انظر ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ، إيلياحاوي ٧٧ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٣ / ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وإذا جلست أذئى خُشَامُكَ من يَضُّمُّ المجلسُ
 فكأنما الكرياس ينفخ منك حين تنفّسُ
 وإذا نهضت كبا بوجهك للجبين المعطّسُ
 فالأنفُ منك لِعُظْمِهِ أبداً لرأسك يعكسُ
 حتى يظن الناس أنك في التراب تفرّسُ
 ولأنت أجدر بالذي قال الفتى المتنطّسُ :
 إن كان أنفك هكذا فالفيل عندك أفطسُ
 وإذا جلست على الطريق ولا أرى لك تجلسُ
 قيل السلام عليكمـا فتجيب أنت ويخرسُ

بدأ ابن الرومي بوصف هذا الصوت المزعج المجلجل الذي يشبه صوت الرعد
 والذي يوشك أن يخطف الأنفس ، ثم أخذ يصور أنف هذا الرجل ويرسم له صورة
 « كاريكاتورية » عمادها المبالغة المفرطة ، التي تظهر الشخص بصورة مضحكة ، فأنفه في
 حجمه مثل رأسه ، بل إنه أكبر ، فهو لثقله جعل صاحبه يمشي منكسا رأسه ، كأنه يبحث
 عن شيء في الأرض أو يتفرس في التراب ، ثم يذهب بعيداً في المبالغة في تصويره ، فلا
 يكتفي بتشبيه الأنف بالرأس ولا بتشبيهه بخرطوم الفيل ، بل يجعل الفيل عنده أفطس
 ليجعل من هذا الأنف أسطورة ، ويعمد إلى تصويره بصورة « كاريكاتورية » خيالية يبعد
 فيها عن الواقعية ، ويدخل في عالم الخيال ، فيصبح هذا الأنف مثار السخرية من الناس
 فإذا ما جلس صاحبه في الطريق - والأفضل ألا يجلس - كان هذا الأنف ملفتاً للأنظار
 مثيراً للسخرية والتهكم ، يلبّس على الناس فيظنون شخصاً آخر يجلس هنا ، فيسلمون
 عليهما ، ولا شك أن هذا تصوير قد اعتمد ابن الرومي فيه على المبالغة والتصوير
 الكاريكاتوري ، فأظهر هذا الرجل في صورة مضحكة عابثة مزرية .

ولابن الرومي كثير من هذه الصور « الكاريكاتورية » التي تعتمد في تصويرها على التشبيه ، من ذلك وصفه للأحذب : (١)

قصرت أخادعه ، وغار قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفت قفاه مرة وأحس ثانية بها فتجمعا

يصور لنا هذه العاهة الجسدية في صورة مضحكة ، إذ هي عنده ليست عاهة وتشوها خلقيا ، بل إنها حركة جسدية انفعالية متعمدة ، فهي حركة مترقب لصفعة تنزل على القفا ، بل إنه قد صفع ، فهو متجمع مترقب لصفعة أخرى تنزل به .

ويصور لنا دعبل أبا عباد ومجلسه ، وما يرتكب فيه من حماقات ، فيقول : (٢)

أولى الأمور بضيعة وفساد أمر يدبره أبو عباد
خرق على جلسائه فكأنهم حضروا للحملة ويوم جلاد
يسطو على كتابه بدواته فرمل ، ومضمخ بمداد
فكأنه من « دير هزقل » مفلت حرد يجر سلاسل الأقياد
فاشدد أمير المؤمنين وثاقه فأصح منه « بقية » الحداد

إنه يرسم صورة « كاريكاتورية » مضحكة لهذا النزق الذي يسطو على جلسائه فيهب إليهم ممسكا بدواته ، يهجم على هذا ، ويلطخ بها وجه هذا ، ويصيب بها ثياب ذاك ، وهم يتقافزون من حوله ، كأنه وحش كان مقيداً أو مجنون كان موثقاً فأصاب

(١) ديوان ابن الرومي ، كامل كيلاني ١٤٦/١ .

(٢) شعر دعبل ٩٩ .

فرصة فانفلت يعبث بجلسائه ، فهم ما بين مرمل ، ومضمح ، وفار لايلوي على شيء . « وقد وفر الشاعر لصورته المتقدمة عنصري الحركة واللون ، أما الحركة فللمسخور منه وهو في هياجه وخرقه واستعداداته على كتابه ، وأما اللون فقد أضفاه على الكتاب الذين تلطخوا بالخبر المراق عليهم ، فالقاريء يتخيل مجلس أبي عباد بشغبه واضطرابه » (١) .

ويعتمد التصوير الساخر « على التخيل والتصور الدقيقين للتقاط صورة مشوهة مضحكة للمهجو ، تقوم في خطواتها الفنية على المغالطة التركيبية المتخيلة للشخصية المهجوة ، أو المظهر الذي يراد انتقاده والسخر منه ، فالسخرية التصويرية نوع من النقد يعتمد في جملته على التماس العيوب الرئيسية لظاهرة معينة تعرض بأسلوب فني ، يبالغ في تصوير العيب أو النقص ، ويبرز وجه التناقض على شكل نكتة ترد في ذهن الفنان وهذه المبالغة في تضخيم الصورة وتشويهها لاتعارض مع الصدق الفني لدى الشاعر ؛ لأن السخرية التصويرية فن هادف ذو موضوع كبير الأهمية في نفس الشاعر ، ولذلك فإن الشاعر يعتمد إلى هذا الأسلوب المضحك ، فالضحك تأديب قبل كل شيء ، وقد يؤلم فهو ليس طيباً في كل الأحيان » (٢) .

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦٢ .

(٢) المرجع السابق ٣٦٠ .

يقسم البلاغيون التشبيه إلى حسي وعقلي ، ويعرفون التشبيه الحسي بأنه الذي يكون طرفاه أو أحدهما حسياً ، ومعنى حسية الطرف أن يكون هو أو مادته التي يتركب منها مدركاً بإحدى الحواس الخمس ، بأن يكون من المسموعات ، أو المبصرات ، أو المشمومات ، أو المذوقات ، أو الملموسات ، فمن التشبيه الحسي « تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجهه ، وبالحلقة في وجهه آخر ، وكالتشبيه من جهة اللون ، كتشبيه الخدود بالورد ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار ، وتشبيه سقط النار بعين الديك ، وما جرى في هذا الطريق ، أو جمع الصورة واللون معاً ، كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور ، والرجس بمداهن در حشوهن عقيق وكذلك التشبيه من جهة الهيئة نحو : أنه مستو منتصب مديد ، كتشبيه قامة الرجل بالرمح والقذ اللطيف بالغصن ، ويدخل في الهيئة كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس ، نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره كتشبيه أطيظ الرحل بأصوات الفراريج ، وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازي ، وأشباه ذلك من الأصوات المشبهة له ، وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر ، وتشبيه اللين الناعم بالخز والخنن بالمسح ، أو رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور ، أو رائحة بعضها ببعض كما لا يخفى» (١) .

والتشبيهات المحسوسة أقوى أثراً في النفس والوجدان ؛ لأن ما يدرك بالحس أقوى مما يدرك بالعقل فليس الخبر كالمعاينة ، والتفكير يبدأ دائماً دائماً بالمحسوسات ، وترتبط الأشكال بأسمائها ، فمجرد أن نذكر اسماً من الأسماء لشيء ما تتشخص صورته في أذهاننا ، وجزء كبير من تفكيرنا إنما يقوم على الحس . وقد فطن العلماء من قديم إلى أن الحواس منافذ للعقل تمده بالمعارف المختلفة ويشرف منها على دنيا الناس يلتقط منها

ماشاء ، وفي ذلك جاء قولهم : من فقد حسا فقد علما . ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس : جودة الشيء بالنظر أن يكون حسنا رائقا ، وبالحيشوم أن يكون طيبا أرجا ، وبالمذاق أن يكون حلوا عذبا ، وبالسمع أن يكون صافي الوقع والصوت ، وباللمس أن يكون لينا ناعما . ونحن في صغرنا إنما نشعر بما نحسه لا غير ، دون أن نقدر على تأويل المحسوسات وتفسيرها ، فإذا ما وصلنا إلى درجة الإدراك الحسي انتقلنا إلى مرحلة قريبة منها ، وهي مرحلة الذكر التي نتمكن فيها أن نعيد إلى دائرة شعورنا ما أدركناه بحواسنا من قبل ، ثم نتقل إلى مرحلة تليها مباشرة ، وهي مرحلة الخيال ، وتدخل هذه المرحلة في منطقة المحسّات إما مباشرة وإما بالواسطة ، وفي نهاية هذه المرحلة نتقل إلى دائرة المعقولات حيث تظهر أمارات الحكم ، والتعليل ، والاستنباط إلى غير ذلك من الأعمال العقلية الكثيرة ، وهكذا يصوغ العقل بمعونة الملكات الذهنية ماشاء من القضايا العامة المستنبطة من المحسوسات ، ويحتفظ بها ويذكرها عند الحاجة (١) .

والتشبيه الحسي له تأثير قوي في النفوس ذلك لأنه ينقل النفس من الخفي إلى الجلي ، وينقلها من المعقول إلى المحس ، وعما يعلم بالفكر والروية إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وذلك يوفر لها الأنس بالمعنى ، ويملؤها ثقة به واطمئنانا إليه فالعلم المستفاد من طريق الحواس ، أو من جهة الطبع والضرورة يفضل العلم المستفاد من جهة العقل والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قيل ليس الخبر كالعيان ، ولا الظن كاليقين ، وكما روي أن الله أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت ، وهذا يعني أن المعنى إذا برز في صورة التشبيه على هذا النحو المشار إليه أنست به النفس ووثقت به ، واطمأنت إليه ، لأنها نقلت إلى ماهي به أعلم ، وهو الحسي أو الضروري .

ثم إن العلم المستفاد من طريق الحواس ، أو من جهة الطبع والضرورة أسبق إلى النفس من العلم المستفاد من طريق العقل والروية ، لأن العلم يجيء أولاً عن طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة الفكر والعقل فكل من الحسي والضروري أمس بالنفس رحماً ، وأقوى لديها ذمماً ، وأقدم لها صحبة ، وأكد عندها حرمة ، إذ لا يخفي ما يوجبها تقدم الإلف كما قال أبو تمام :

ما الحب إلا للحبيب الأول

وهذا كله يعني أنك إذا نقلت النفس بواسطة التشبيه من المعقول إلى ما يدرك بالحواس ، أو المعلوم بالضرورة والطبع ، كنت كمن يتوسل للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، بل كنت كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول ها هو ذا فأبصره تجده على ما وصفت لك (١) .

والتشبيه في أصله غلط من التصوير أداته اللغة ، وهو تصوير يبرز المعاني والأفكار في أشكال يصورها ويمثلها حية نابضة بكل ما تتطلبه هذه الحياة من لون وحركة ، وهذه الصورة عندما تكون محسوسة تكون أقوى أثراً في النفوس ، لأن ما يدرك بالحواس أقوى مما يدرك بالعقل .

وقد برع بعض الشعراء في التصوير الساخر ، وكانت لهم ملكات وقدرات فائقة في تصوير نقائص مهجويهم ، فهم شديداً الملاحظة يملكون حاسة قوية نحو كل ما هو غير طبعي ، « وينشدون الكمال والجمال لدى الآخرين في الناحيتين الشكلية والنفسية ، وقد توجه كثير من الشعراء وبشكل واسع إلى السخرية من العيوب الشكلية والنواقص الجسدية ، وأكثروا منها كل الإكثار وجاوزوا فيها كل حد ، إذ أنهم تناولوا هذه العيوب

(١) انظر أسرار البلاغة ١٢١ ، ١٢٢ .

والنواقص في الإنسان في كل ناحية من نواحيه ، وعضو من أعضائه ، وعابوا فيه كل ما بدا لهم أنه من النقائص » (١) .

واعتمدوا في ذلك على التصوير المبالغ فيه ، بوضع الشخص في صور مضحكة كالمبالغة في تصوير عضو من أعضاء الجسم ، ومحاولة تشويهه ، بحيث يجعل الشخص وكأنه لا يدرك أو يعرف إلا بهذا العيب الذي جسده الساخر وكبره ، ومن ذلك ضخامة الجسم أو نحافته ، وقصر القامة أو طولها المفرط ، وارتفاع أحد الكتفين بصورة ظاهرة أكثر من الآخر ، وتصوير الشذوذ في ملامح الوجه يلعب الدور الهام في هذا الصدد والأنف بصفة خاصة يعد مقياساً للشذوذ المثير للضحك ، لهذا نلاحظ أن المصور الساخر يميل إلى تأكيد طول الأنف أو انعدامه لما يضيفه هذا الشذوذ من تأثير هزلي على الوجه وتصوير الأنف يكون بطولها أو بكونها معقوفة أو فطساء ، وكذلك يصور الفم تصويراً هزلياً لاتساعه ، أو لعدم انتظام أسنانه ، أو لعيب في إحدى الشفتين كقطع فيها أو ما يشبه ذلك من عيوب ، والشذوذ الحسي يدخل في هذا النطاق كالأعمى ، والأصم ، والأبكم فهؤلاء جميعاً يثيرون عاصفة من الضحك إذا سلکوا مسلكاً يحاولون به إنكار ما فيهم من نقص ، فالأبكم الذي يرسل خليطاً من الأصوات للتعبير عن غرضه يضحكننا ، وإذا ما أصر على استخدام هذه الطريقة الشاذة في التعبير عن حالة نفسية يقصر دونها الكلام بله الأصوات ، كأن يصور لنا هذا الأبكم في موقف غرامي ، فإن سلوكه يكون مصدراً للدعابة (٢) .

لقد تناول الشعراء كل عيب بالسخرية ، فسخروا من الأصوات الشاذة للمغنين والمغنيات ، وكثر ذلك في العصر العباسية خاصة في مجتمع الترف والمجون ، فالشاعر

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٦٠ .

(٢) انظر السخرية في الأدب العربي ٤١ .

يطلب الرقة والجمال في أصوات أولئك المغنين ، فما أن يفاجأ بصوت لا يعجبه حتى يتناوله بالسخرية ، ويعبث به ، ويصوره بشتى الصور الساخرة ، فهو مرة صوت دجاجة يخنقها ثعلب ، ومرة صوت أحجار الرحي وهي تدور ، ومرة صوت جمع من الفئران يقرضن خبزاً يابسا .

وتناول الشعراء أصحاب العاهات بالسخرية لأن منظرهم فيه شذوذ عن ذلك الكمال والجمال الذي ينشده هؤلاء الشعراء ، فانحناء الأحذب ليس تشوها خلقيا ، بل هو تجمع لأعضاء الجسم خشية الصفع واللطم ، أما الصلعة فهي مرآة من فولاذ صالحة للصفع ، ترن تحت الأكف حتى ترن لها الأرجاء .

وسخروا من القصير الدحداح ، ومن السمين المكتنز ، فشبهوا القصير والسمين بالدب والفيل ، وسخروا من القصر في الأنامل ، فشبهوها بالخنفساء .

أما الوجه فقد نال النصيب الأكبر من السخریات ، فوجه المجدور شبيهه قديما «بسلة جامدة نقرتها الديكة» (١) ، وطول الوجه عند ابن الرومي يذكره بطول وجوه الكلاب ، وكثيرا ما شبه الشاعر الهجاء وجه مهجوه بوجه القرد ، أو الضفدع استهزاء به وضحكوا من الوجه الذي كسي بقشور الخنافس ، أو الذي امتلأ بالكلف فكأنه سلح ذباب فوق وجنة برصاء .

وكثيرا ما سخروا من قسمات الوجه ، وتشنجاته ، وتلوناته في حال الرضا والغضب ، والجهد والتعب .

وسخروا من أصحاب الروائح الكريهة المتتنة ، سخروا من بخر الأفواه ونتاجن الأبدان ، وكانوا يرون أن أصحاب هذه الصفة أحق بالسخرية والهزاء ؛ لأنهم بعيدون عن

(١) انظر بغية الإيضاح ٤١/٣ .

أسباب اللياقة وآداب الحضارة ، وعادات العصر والمجتمع الذي أخذ بحظ من التألق والتمدن .

ولم تسلم اللحى - وهي شعيرة ثابتة من شعائر الدين - من السخرية والعبث فتناولها بعض السفهاء والمتماجنين بالسخرية والهزاء ، فوجدنا ذلك يكاد يشكل ظاهرة عند بعض الشعراء المجان الذين ظهروا في ظروف المجون والفوضى التي كانت تصيب بعض العصور .

إن السخرية التصويرية تسهم في جلاء أوجه الذم ، فالسخرية تلفت الإنسان إلى عيوبه ونقائصه ، وتدفعه برفق إلى تلمس الكمال ، وحتى لو لم يكن الشاعر يريد من خلال سخريته نقد الناس وتوبيخهم إلى عيوبهم فإن هذه النتيجة ستكون محصلة من ناحية غير مباشرة ، فنحن لا نفترض أن كل الساخرين يريدون توجيه الناس من خلال سخريتهم ، فقد تقف هذه السخریات عند حد الشتم والقذف والعبث والانتقاص ، وعندئذ تفتقر إلى الوجهة الإيجابية المفروضة فيها ، باعتبارها غرضاً تتوفر فيه الصبغة التربوية من خلال لفت الناس إلى سلبياتهم وانحرافهم عن الخط الاجتماعي والأخلاقي الذي لا ينبغي لمن ينشد الكمال ورضا الناس تنكب طريقه ، وعلى أية حال فإن النية في نفس الساخر قد تكون حسنة ، والإنسان كثيراً ما يعاقب من يحب (١) .

وأياً ما يكن الأمر ، ومهما اختلفت نية الساخر وقصده ، فإن هذا الأمر لخطورته وقوة تأثيره ، ليس الباب فيه مشروعاً على مصراعيه ، بل هناك ضوابط وآداب شرعية وأخلاقية يحتكم إليها ، ومعلوم أن الله عز وجل قد نهى عباده المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض (٢) .

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦٦ .

(٢) انظر مقدمة البحث .

وهذا النوع من الهجاء والسخر لا يراه قدامة هجواً ، بل يرى أنه من عيوب الهجاء ؛ لأنه لا يرى الهجاء إلا في سلب الفضائل النفسية ، فأما ما كان في الخلقة الجسمية من المعاييب فليس بهجاء ، يقول قدامة في ذكر عيوب الهجاء : « وجماع القول فيه : أنه متى سلب المهجو أمورا لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيبا في الهجاء ، مثل أن ينسب إلى أنه قبيح الوجه ، أو صغير الحجم ، أو ضئيل الجسم . . . » (١) .

وهذا رأي يخالفه استقراء واقع الشعر العربي ، فإننا نجد أن الشعراء الهجائيين قد أكثروا من تناول هذه المعاييب الجسمية بالسخر والهجاء ، وليست الأمثلة القليلة التي دلت بها قدامة على صحة رأيه بكافية لإصدار حكم بهذا الحجم ، فهو يقول مثلاً : (٢) ومما يدل على ذلك ، بعد القياس الصحيح والنظر الصريح ، أشعار وأقوال أعددها ، فمنها ما أنشده أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب :

رأت نضو أسفار أميمة قاعدا على نضو أسفار فجن جنونها
فقلت : من أي الناس أنت ، ومن تكن فإنك راعي ثلثة لاترينها
فقلت لها : ليس الشحوب على الفتى بعار ، ولا خير الرجال سمينها
ثم يعلق قدامه قائلاً : « فهذا صريح في أن القبح والشحوب والسماجة ليست بعار » (٣) .

ونرد بأن هذا رجل يريد أن يزين نفسه في عين صاحبتة ، فيتجمل بمثل هذا الكلام . وإلا فماذا نقول في مئات القصائد في الهجاء بالمعاييب الخلقية في الشعر العربي على مر عصوره .

(١) نقد الشعر ١٩٢ .

(٢) المرجع السابق ١٩٣ .

(٣) المرجع السابق .

وقد رد ابن رشيق على رأي قدامة هذا ، بقوله : « والناس - إلا من لا يعد قلة - على خلاف رأيه ، وكذلك يوجد في الطباع ، مع ما أكد ذلك من أحكام الشريعة » (١) ويرى ضياء الدين ابن الأثير في رده على قدامة أن العرب قد سلكت هذه الطريقة ، فلذلك خولف قدامه (٢) .

وأيا ما كان الأمر فإن الشعراء قد سخرُوا من كل ما رأوه قبيحا أو عجيبا غير مألوف لديهم ، فالشاعر إنسان غير عادي ، إذ هو يمتلك موهبة ومقدرة أشبه ما تكون بالسحر ، و « إن من البيان لسحرا » لذلك فإن الشاعر أشبه ما يكون بالساحر يمتلك القدرة على التزيين والتقييح ، وهذا غرض عظيم من أغراض البيان ، ومن تعاريفهم في البلاغة أنها « كشف ما غمض من الحق ، وتصوير الحق في صورة الباطل ، والباطل في صورة الحق » (٣) ، وإلى هذا يشير ابن الرومي في قوله : (٤)

في زخرف القول ترجيح لقائله والحق قد يعتريه بعض تغيير
تقول هذا مجاج النحل تمده وإن تعب قلت ذا قيء الزناير
مدحا ، وذما ، وما جاوزت وصفهما سحرُ البيان يري الظلماء كالنور
فقد زين العسل وقبحه في بيت واحد وذلك عن طريق التشبيه .

لذلك كان بعض الشعراء إذا رأى منظراً دميماً ، أو خلقة عجيبة تخالف ما يطلبه من الكمال والجمال في كل شيء ، وكان صاحب هذا القبح بغیضاً إليه ، تناول عيبه ذاك بالسخرية والضحك ، وربما ضحك الساخر عفويّاً عند رؤيته صاحب عاهة ، لغرابة في

(١) انظر العمدة ٢ / ٨٥٢ .

(٢) انظر كفاية الطالب ٨٢ .

(٣) انظر علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية ، د. بدوي طبانه ١٠٤ .

(٤) ديوان ابن الرومي ٣ / ٢٢٧ .

خلقته ، أو لأنه يخالف المؤلف ، فهو مثلاً يعهد الإنسان بعينين لا بعين واحدة ، وينتظر أن يرى هامته مكسوة بالشعر لا جرداء لماعة ، ويعرف غطاءً مألوفاً من الأجسام البشرية فإن رأى شخصاً مفرطاً في البدانة والسمنة ، أو القصر ، أو به عرج بشكل غريب راقص أثار ذلك كوامن نفسه الساخرة .

وقد امتلأت كتب الفكاهة والأدب بالسخریات والنوادر التي تدور حول ذوي العاهات ، بل إنه قد ألفت الكتب في المغفلين والحمقى والعميان والبرصان والعرجان (١) .

وسوف نتناول بالتحليل بعض هذه المعاييب الجسمية التي تناولها الشعراء بالسخرية ، واتخذوا من التشبيه الساخر أسلوباً يتوصلون به للنيل ممن أرادوا ، والضحك بمن شاءوا ، فرأينا تشبيهات عجيبة ، وصورا مضحكة تناولت كل شيء .

ومما كان له نصيب أكبر في هذه المعاييب الجسمية من السخرية والهزء دمامة الوجه حيث نالت الوجوه القبيحة أو العجيبة قدراً كبيراً من سخرية الشعراء ، فالشاعر إنسان رقيق المشاعر يطلب الكمال والجمال في كل ما يراه ، والوجه هو واسطة العقد في الجمال لذلك أمر الشرع المرأة بستره وتغطيته ، ورخص للخاطب أن ينظر إليه ، فإذا ما كان الوجه قبيحاً ، أو فيه عيب أو عاهة خلقية ، أو كانت أعضاؤه غير متناسبة أو متناسقة بأن كان أحدها مفرطاً في الكبر أو الصغر ، كان ذلك مثيراً للضحك الشاعر وسخريته ، وخصوصاً إذا كان صاحب هذا الوجه ثقیل الظل ، أو جاهلاً مغروراً معتداً بنفسه أو متعاطياً لما لا يحسن .

(١) انظر الفكاهة عند العرب ٢١٧ .

والوجه مكان الإكرام لذلك وصف بأنه كريم ، ولذلك أيضا نهى الشرع عن لطمه لما لذلك من آثار نفسية سيئة على الملطوم ، ولأن لطم الوجه أوجع في النفس ، وكذلك السخرية من عيوب الوجه أبلغ وأوجع في السخرية من غيره .

وعلى الوجه تظهر أمارات الإكرام أو الإذلال ، فالله جل وعلا يقول في حال المؤمنين والكافرين : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها فترة ﴾ (٢) .

وقد أدرك الشعراء هذه المعاني ، وتلك الحساسية المفرطة تجاه الوجه ، فإذا أرادوا إذلال أحد أو الضحك منه سخروا من وجهه ، وابن الرومي من أولئك الشعراء الذين شهروا بالهجاء الساخر العابث ، انظر إلى سخريته من وجه هذا الذي يسمى « عمرو » يقول ابن الرومي مخاطبا عمراً هذا : (٣)

وجهك يا عمرو ، فيه طول	وفي وجوه الكلاب طول
مقابع الكلب فيك ، طراً	يزول عنها ، ولا تزول
وفيه أشياء صالحات	حماكها الله والرسول
فالكلب وافٍ ، وفيك غدر	ففيك عن قدره سُقول
وقد يُحامي عن المواشي	وما تحامي ولا تصُول
وأنت من أهل بيت سوء	قصتهم قصة تطول
وجوهم للورى عظام	لكن أقفاءهم طبول

(١) بعض الآية (١٠٦) من سورة آل عمران .

(٢) الآيات (٣٨ - ٤١) من سورة عبس .

(٣) ديوان ابن الرومي ١٨٧/٥ ، ١٨٨ .

نستغفرُ اللهَ قد فعلنا مايفعل المائقُ الجهولُ
 ما إن سألناكَ ما سألنا إلا كما تُسألُ الطُلُولُ
 صمْتُ وعيْبٌ ، فلا خطابٌ ولا كتابٌ ، ولا رسولُ
 مستفعلٌ ، فاعلٌ ، فعولُ مستفعلٌ ، فاعلٌ ، فعولُ
 يِتُّ كمعناكَ ليس فيه معنَى سوى أنه فضولُ

هذا من عبث ابن الرومي الموجه ، فوجه عمرو طويل يشبه في طوله وجوه الكلاب ، وتذكره رؤية هذا الوجه بوجوه الكلاب ، ولم يكتف ابن الرومي بتشبيهه بالكلب بل أخذ يعدد صفات للكلب تقصر عنها همة عمرو ، وقد اعتمد الشاعر هنا الأسلوب المنطقي والتعميم والإطلاق الذي يليه كثير من التفصيل والتوضيح ، فوجه عمرو كوجه الكلب ، بل الكلب أفضل منه ، فالكلب يفي ، وعمرو يغدر ، والكلب يحامي عن المواشي وعمرو خامل كسول ، وهو إلى ذلك ، من قبيلة ذات قصة طويلة في الوري (١) .

وابن الرومي في هذه الأبيات « لا يظهر غايته ويسفر عنها وإنما يتوسل بالفاظ تبدو هادئة صامته لكنها في الحقيقة تنطوي على كثير من الخبث والسخرية ، فعندما يقول « حماكها الله والرسول » فإن لفظة « حمى » تدل على كثير من السخرية المشوبة باللؤم لأنه يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا أراد أن يحسن إلى عمرو ، منع عنه الصالحات ، وحماه منها ، ونحن نعلم أن الحماية تكون من الأذى ، فكأن الصالحات تؤذيه » (٢) ثم يشبه ابن الرومي أقفاء أولئك القوم الذين منهم عمرو بالطبول « وهي

(١) انظر ابن الرومي فته ونفسيته من خلال شعره ١٠٩ .

(٢) المرجع السابق ١١١ .

ولاشك صورة ماسخة ، خاصة في قفا الطبل الذي يمثلهم ، وقد ترهلوا ، وجعلت أردافهم تترجرج وتتدلى في كل جهة ، هنا يظهر ابن الرومي وجه حقه ونقمة ساخرا فلا يعود مقررا ، عارضا ، لا مباليا ، وإنما يتسلط بحقه ، كأنه يتراشق مع عمرو بالشتائم ، لقد سأله بعض العطاء ، فوعده ثم لم يف بوعده ، ثم كرر الوعد وأخلف به حتى توتر ابن الرومي ، وتزيا له في وجه عمرو ووجوه أهله جميعاً شكل تجسد فيه الحقد الذي في أعصاب الشاعر ، فإذا به ينقض على ضحيته بكل ما في نفسه من حب للتشويه وما يختزن فيها من وميض الصور المخلعة المشوهة التي كان يرفده بها خياله ، لهذا رأيناه يمسحه مسخاً فلا يعود عمرو إنساناً ، بل طلل إنسان» (١)

ما إن سألتك ما سألنا إلا كما نسال الطلول
صمت وعيب ، فلا خطاب ولا كتاب ، ولا رسول
مستفعلٌ ، فاعلٌ ، فعولٌ مستفعلٌ فاعلٌ ، فعولٌ
يت كمعناك ليس فيه معنى سوى أنه فضول

وابن الرومي في هذه الأبيات «يجري كعادته على تخطي المعاني ، فقد بدأ في المطلع يشبه عمرا بالكلب ويتزع بعدئذ إلى تفضيل الكلب عليه ، ثم يشبه قفاه وقفا أهله بقفا الطبل ، وما زال حتى جعل منه أخيراً طلل إنسان ، وربما خيل إليه أنه أبقى فيه على شيء ، عندما شبهه بالطلل ، فأراد أن يتزع منه هذا الشيء ويحوّله إلى مجرد تفعيلة باطلة تافهة ليس لها معنى» (٢) .

وقد سخر الشعراء من دمامة الخلقة وقبحها ، وربما سخر الشاعر من دمامة خلقة نفسه ، فيتهكم بنفسه لسبب من الأسباب ، كأن يطمع في الحصول على نوال يريده

(١) انظر ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ١١٢ .

(٢) المرجع السابق .

«وكثيراً ما وجد هذا في المجتمعات التي تضم شخصاً يقصد عون الجالسين عن طريق إضحاحهم ، ومن هذا النوع ما عرف في بلاط الخلفاء ومجالس الأمراء والكبراء ممن يتخذون أنفسهم مادة للضحك والسخرية ، حتى ينالوا من الرضا ما يسمح لهم أن يعيشوا عالة على السادة وعلية القوم ، وقد يكون التهكم بالنفس ليتخلص صاحبه من مأزق أو لينجو من الملامة أو العقوبة» (١) . ومن ذلك أن أبا دلامة دخل على المهدي وعنده جماعة من علية القوم وخاصة جلسائه ، فقال له المهدي : أنا أعطي الله عهداً لئن لم تهج واحداً ممن في البيت لأقطعن لسانك ، ويقال إنه قال لأضربن عنقك ، فنظر إليه القوم فكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه ، قال أبو دلامة : فعلمت أنني قد وقعت وأنها عزمة من عزماته لا بد منها ، فلم أر أحداً أحق بالهجاء مني ، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغ إليك أبا دلامة	فليس من الكرام ولا كرامة
إذا لبس العمامة كان قرداً	وخنزير إذا نزع العمامة
جمعت دمامة وجمعت لؤماً	كذاك اللؤم تبعه الدمامة
فإن تك قد أصبت نعيم دنيا	فلا تفرح فقد دنت القيامة

فضحك القوم ولم يبق أحد إلا أجازه (٢) . لم يجد أبو دلامة مخرجاً إلا أن يسخر من نفسه ، فشبّه نفسه بالقرد مرة حين يلبس العمامة ، وبالخنزير أخرى حين يتزعها ، فسخر من دمامته وقبح منظره ، وجعل من ذلك مادة لإضحاح جلسائه .

ومن الشعراء الذين برعوا في السخرية من دميمي الخلقة ، وأصحاب الصور القبيحة ، دعبل الخزاعي ، فنراه يسخر من امرأته التي يبدو أنها كانت قبيحة دميمة تشير

(١) انظر السخرية في أدب المازني ٦٣ - ٦٥ .

(٢) الأغاني ٢٥٨/١٠ .

في نفسه الاشتمزاز والتقرز ، فيصورها في صورة مضحكة تعتمد على المبالغة في التشويه
يقول دعبل : (١)

يَا رُكْبَتَي خُزْزِي وَسَاقَ نَعَامَةٍ وَزَيْلَ كَنَاسٍ وَرَأْسَ بَعِيرٍ
يَا مَنْ أَشَبَّهَا بِحُمَى نَافِضٍ قِطَاعَةَ لِلظَّهْرِ ذَاتِ زَفِيرٍ
صُدَّ غَاكِ قَدْ شَمِطًا وَنَحْرُكَ يَابِسٌ وَالصَّدْرُ مِنْكَ كَجُجُورِ الطُّبُورِ
يَا مَنْ مُعَانِقُهَا يَبِيتُ كَأَنَّهُ فِي مَحْبَسٍ قَمَلٍ وَفِي سَاجُورٍ
قَبَّلْتُهَا فَوَجَدْتُ لِدَاغَةَ رَيْقِهَا فَوْقَ اللِّسَانِ كَلْسَعَةَ الزُّبُورِ

يسخ دعبل خلقة زوجه مسخاً ، ويصورها تصويراً غريباً غير متجانس ، فهي
مرأى سوء يكرب النفس ويميت الحس الإنساني ، إنها ذات طلعة كريهة تنفر من يلقاها
حين تطل عليه برأسها الضخم الكبير وصدغيها اللذين اكتنفهما الشيب ، أما نحرها فلا
ماء فيه ولا رواء ، وأما صدرها فقد فقد حياته وانعدمت أنوثته ، وهي بعد هذا ذات جسد
مرتبك التكوين ، امتدت ساقاها طويلتين مفرطتين في طولهما الذي لا ينسجم مع صغر
ركبتيهما اللتين تشبهان ركبتي صغار الأرانب .

ولم يكتف الشاعر في تصوير هذه المفارقات في خلقتها ، بل راح يرميها بالقذارة
ودنس الرائحة ، وكأنها وعاء الكنائس بكل ما فيه من جيف ومقادر ، ويا لهول زوجها
حين يقربها معانقا ، ففي ذلك العناق بؤس وشقاء ، إذ يحسب نفسه مغلولاً في محبس
حشرات مؤذيات ، تقرز الإحساس وتثير الفزع ، فلا يجني من هذا العناق غير الأذى
ومرارة الريق القاتل (٢) .

(١) شعر دعبل ١١٦ .

(٢) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٦٥ ، ٦٦ .

ودعبل من الشعراء الذين أكثروا من التصوير الهازئ الساخر ، إلا أنه لم يبلغ في ذلك ما بلغه ابن الرومي من قدرة بارعة في التصوير الساخر ، فهو لا يتعمق في دراسة النماذج تعمق الجاحظ ولا يستوفى وجوها استيفاء ابن الرومي ، ولكنه بالرغم من ذلك يوفق باستشارة التهكم والاستخفاف ، إذ مكنته تتبع المفارقات في سلوك الناس وهيئاتهم من إجادة وصفها والخروج بتعليقها إلى السخرية الممضة (١) ولدعبل في امرأة دميمة هذا التصوير المضحك ، يقول : (٢)

أَصْرِمِينِي يَا خِلْقَةَ الْمَجْدَارِ وَصِلِينِي بِطُولِ بُعْدِ الْمَزَارِ
فَلَقَدْ سُمِّتِي بِوَجْهِكَ وَالْوَضْ لِ قُرُوحًا أَغَيْتَ عَلَى الْمِشْبَارِ
ذَقْنٌ نَاقِصٌ ، وَأَنْفٌ طَوِيلٌ وَجَبِينٌ كَسَاجَةِ الْقُسْطَارِ
قَامَةُ الْفُصْلِ الضَّئِيلِ وَكَفٌّ خِنْصَرَاهَا كَذَيْنَقَا قِصَارِ

المجدار : الفزاعة ، والقسطار : الصيرفي أو التاجر ، والساجة : اللوح الذي تقوم عليه كفتا ميزانه ، والفصل : اللثيم .

وصورة المجدار - وهي الفزاعة - مشوهة غير متجانسة الأعضاء ، صغر في العينين وطول في الأنف وعرض في الفم وأصابع لا تتلاءم مع بعضها ، وهذه الخلقة التي أريد لها أن تكون مفزعة مخيفة ، تحولت إلى قناع ألبسه الشاعر مهجوته التي بالغ في خلق المتناقضات في وجهها ، فالتأمل في الأبيات المتقدمة يلقي صورة غير متناسبة الخطوط والتراكيب ، فأى شكل هذا الذي اجتمعت فيه الأعضاء المتنافرة ، فالذقن منضغط إلى

(١) انظر دعبل بن علي شاعر آل البيت ، للأشتر ٢١٣ ، وفن الهجاء وتطوره عند العرب ،

إيلياحاوي ٤٩٠ .

(٢) شعر دعبل ١١٧ .

أعلى ، والرأس ناقص مبتور ، وفوقه يمتد أنف خرطومي طويل يتناقض في امتداده عكسيا مع الذقن الناقص ، أما الجبين فقد امتد فوق هذين عريضا واسعا كلوحة الميزان إنه وجه من هذه الوجوه التي يتحفنا بها الكاريكاتوريون على صفحات الصحف والمجلات في عصرنا الحديث ، ولكي تكتمل الصورة الدميمة المتخالفة نرى الشاعر قد ركب هذا الوجه فوق جسم ضئيل صغير لمخلوق لثيم ، فالصورة التي انتخب الشاعر أجزاءها وضمها إلى بعضها ، تتمثل فيها المبالغة ، وتعتمد إلى تضخيم عضو وتضئيل آخر لحساب الصورة الممسوخة المنشودة (١) .

ويسخر ابن الرومي من خادمه « نجح » فيصور قبح وجهه ويشبهه بالقرد ، لأنه تعاطى مالا يصلح له ، فوقع في غرام من قلبها عنه لاه ، ثم بأي شيء سيغري هذه الجارية ، أبدلك الوجه المتغير الشاحب المظلم الذي يشبه وجه القرد ، وجه ذو خدين قبيحين دميمين مشوهين بتلك الأنماش القذرة التي اختلف لونها ما بين صفرة وسواد فكأنه سلح الذباب فوق شجر اللقاح ، هذا الوجه الدميم القبيح لا يصلح إلا أن يكون فزاعة توضع بين الزرع لتخيف الطيور وتطردها : (٢)

قل لنَجَحْ أخطأتَ باب النَّجَاحِ	بل تعاطيتُهُ بلا مفتاح
إِنْ وَدَّ أَنْ لَا تَوَدَّ خَصِيَّتًا	فاصْحُ عنها فقلْبُها عنك صَاحِي
ليت شعري بما تظنُّكَ تُصَبِّى	قلب ودَّانٍ ياكسيرَ الجناحِ
أَبْوَجهُ كأنه وجهُ قَرْدٍ	حَائِلُ اللونِ خامدُ المصباحِ
أَيُّ حِرْزٍ فيه من الطيرِ أَنْ لَوْ	جعلُوه فَرَّاعَةً في قَرَّاحِ
فيه خَدَّانِ أَنْمَشَانِ بَعِيدَا	نِ لَعَمْرِي من حُمرةِ التفاحِ
نُغْمَشَةٌ فوق صُفْرةٍ فتراه	كَوْنِيمِ الذُّبابِ في اللَّقَّاحِ

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٢/٦٣ ، ٦٤ ، وانظر ديوان المعاني ١/٢٠٨ .

وقديما كان القَصْر المفرط مثيرا للسخرية والضحك ، خصوصا إذا ظهر من ذلك القصير حركات فيها خفة أو تطاول ، فإنه عندها يضع نفسه في صورة مضحكة ، وقد كثرت سخرية الشعراء بالقصر « وابن الرومي الذي يقف في القمة بين هؤلاء الشعراء الساخرين والذي أوتي كل أسباب النجاح والتفوق في الإفادة من اللحظة الحاسمة الدقيقة في التقاط الصور الساخرة التي قد تفوق الأصل المصور في قوة التعبير والأداء » (١) تناول القصر بالسخرية وكان بارعا في تناوله كعاداته في كل سخرياته ، يقول ابن الرومي في قصير : (٢)

وقصير تراه فوق يَفَاعٍ فتراه كأنه في غِيَابِهِ
لم تدعْ قَفْدُهُ يَدُ الدهرِ حتى قَمَعَتْ فيه طَوْلُهُ وشَبَابُهُ
وجَلَتْ رأسُهُ نَعْمًا فأضحى بارزَ الصَّرحِ ما يُؤاري صُورَابَهُ
يأبأ حفصِ الذي فِطَنَ الدهرُ رُميدانَ رأسِهِ فاستطابَهُ
ظَرَفَ الدهرُ في اتخاذه صَفْعًا نأَ وما خَلَّتْهُ ظريفَ الدُّعَابَةِ

إنه تصوير بارع يظهر مقدرة ابن الرومي الإبداعية في هذه الصياغة التصويرية التي تلتقط صورة متحركة تضعها أمام الناظر صورة حية لهذا الإنسان الذي يصغر قصرأ ويقل حجماً ، ويختفي إنساناً ، على الرغم من اعتلائه سطح تل مرتفع ومع كل هذا فصاحبنا يبدو وكأنه في وهد عميق من الأرض ، وإذا كان في هذه الصورة مبالغة ومغالطة فإن الفن (الكاريكاتوري) قائم على المبالغة المتطرفة في انتخاب بعض الأعضاء في جسم المهجو أو بعض الصفات في نفسيته ، ثم إبرازها والتضخيم من شأنها إلى حد يلغي تناسب الصورة

(١) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦١ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٣٨٩/١ .

لقد اتخذ الدهر من صاحبنا القصير هذا صفعانا ينزل فيه يده على الدوام حتى ضغط أعلاه في أسفله صفعا وقفدا ، وكان صلح هذا القصير يزيد الصورة تشويها وإثارة للضحك ، فأية صلعة مجلوة ممردة هذه التي تعلو رأسه فلا تجد فيه حشرة صغيرة تافهة شعرة واحدة تتوارى فيها ، لقد حرص الشاعر على أن يجمع لصورة هذا القصير بين العنصر الحركي والعنصر التصويري ليضفي عليها جانبا من التكامل والتناسق بين أجزائها ومكوناتها ، فالكاريكاتور في سخرية ابن الرومي يعبر عن تلك اللحظات التي كانت تسنح له فيمسخ الآخرين ويعبث بسخنتهم ضاحكا مستخفا ، والتزعة الكاريكاتورية تصدر لديه عن موقفه العام المزري بالحياة وقيمتها ، إلا أنه لا يميز فيه بحقده ، بل يطرب ويلهو ويتعابث كالطفل أمام المشهد الغريب (١) .

وكان قصر بعض أعضاء الجسم مثيرا للسخرية أيضاً ، فقصر الرقبة أو الساقين أو قصر الأصابع إذا كان مفرطاً بدا شكل صاحبه لافتاً للنظر مغرباً لخصومه بتناوله والسخرية منه .

وكان من عادة الشعراء في غزلهم أن يصفوا أصابع وأنامل النساء ، فيشبهوها بالمساويك ، والعنم ، والعناب ، والأساريع وهي دود أحمر يشبه الأصابع المخضوبة ويشبهوها بالبلح ، فإذا أرادوا ذمها والسخرية منها شبهوها بأشياء قبيحة ، انظر إلى هذا الساخر الذي أراد أن يضحك من قصر أنامل مغنية قبيحة تتعاطى الضرب على آلة العود فتحرك أناملها وتنقلها بين أوتاره ، يقول : (٢)

وترى أناملها دبت على أوتارها كخنافس دبت على أوتار

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٢) علوم البلاغة ، للمراغي ٢١٦ .

فما هي هذه الأنامل التي تدب ! ولو أراد لقال تحركت ، فالديب من صفات الحشرات ، وهذا مراد الشاعر من هذه الكلمة ، ثم شبه حركة هذه الأنامل القصيرة الغليظة وهي تنتقل بين أوتار العود شبهها بخنافس تتحرك على أوتار ، صورة مزرية مضحكة لهذه الأنامل السوداء القبيحة التي تحركت على الأوتار كجمع من الخنافس السود تدب فوق الشجر .

وكان بعض العيوب الخلقية كالصلع ، والحذب ، والسمن ، صفات اتخذها الشعراء للسخرية من خصومهم الذين اتصفوا بإحدى هذه الصفات ، ولابن الرومي صوراً بارعة في السخرية من أصلع وأحذب ، يظهرهم في مظهر تصويري كاريكاتوري مضحك « وكان صلع الرؤوس من تلك العيوب التي لفتت نظر ابن الرومي فتناولها بريشته البارعة ، وقد كان يكره الصلع في الرؤوس لأنه كرهه في رأسه ، ولهذا راح يخفيه عن العيون بلبس العمامة » (١) .

يقول ابن الرومي في صلعة أبي حفص : (٢)

ياصلعة لأبي حفص ممردة كأن ساحتها مرآة فولاذ
ترن تحت الأكف الواقعات بها حتى ترن لها أكناف بغداد
كم من غناء سمعنا في جوانبها من حاذق بلحون الصفع أستاذ

إنه تصوير هازئ متعابث ، فصلعة ذلك المسكين أشبه بساحة أو مرآة من الفولاذ صلعة ملساء يباب ، تشخص أمامنا واسعة محمرة لامعة ، كمرآة فولاذ تملأ أرجاء بغداد

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٦٢ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٣١١/٢ .

رنيماً ودوياً حين تتولاها الأكف بالضرب والصفع ، وواضح أن لفظة « ممردة » تقف وراء هذه الدقة في تصوير هذه الصلعة ، وأن لفظة « ترن » تحقق الجانب الصوتي لهذه الصورة البارعة . وهذا الوصف ينطوي على سخرية ضاحكة مقهقهة ، خلع فيه ابن الرومي وجه النقمة والعبوس (١)

ويصور لنا ابن الرومي الأحذب في صورة تجمع بين الدقة في التصوير ، والمبالغة والتضخيم والإضحاك ، اعتمد فيه على التشبيه في رسم صورة مضحكة ، وصورته هذه التي رسمها للأحذب لا تثير الضحك فحسب بل تثير في قارئها الإعجاب بالاحتيال الذي مارسه الشاعر على المعنى بمثل هذه الدقة واللفتة العميقة والتنبه الواعي لمشارت الضحك يقول ابن الرومي : (٢)

قَصُرَتْ أَخَادُعُهُ وَطَالَ قَدَالُهُ فَكَأَنَّهُ مَتْرَبَصٌّ أَنْ يُصَفَّعَا
وَكَاغْنَا صُفَعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحْسَ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجَمَّعَا

هذه لوحة فنان وريشة رسام ، بل صورة شاعر مفطور على تتبع مواطن النقص والقبح ، تجعل القارئ يقف أمام هذه الصورة متخيلاً هذا الاحدوداب المتجمع خوف الصفع ، وليس هناك من صفع في الحقيقة ، ولكنها مشيئة الشاعر التي رأت أن تعلل لهذا الأحذب ، فتشبهه بمن يقصر قذاله لثلاث تتساقط على رقبتة الصفعات ، إنها براعة لا نظير لها في وصف الشكل والحركة ، ولا في تضمينهما هيئة السخر التي عمل فيها الشاعر عمله المركب ليتم فيها نصيب العين والضحك والخيال ، فصورة الرجل وهو يتهياً لأن

(١) انظر ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ٦٣ ، ٦٤ ، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٦٢ .

(٢) ديوان ابن الرومي ، كامل كيلاني ١٤٦/١ .

يصفع ثم يتجمع ليتقي الصفعة الثانية هي صورة الأحدب بنصها وفصها ، لا يعوزها الإتيان الحسي ولا الحركة المهيئة ولا الهيئة المزرية ولا التأمل الطويل في ضم أجزاء الصورة بعضها إلى بعض حتى يتفق التشبيه هذا الإتفاق (١) .

والأنف أعلى ما في الوجه وأعز ، لذلك كان وصفه بالرفعة والشمم تكريماً له ، ووصفه بالجدع والوسم والفطس ذلة ومهانة له ، وقد عرف الشعراء الساخرون للأنف هذه المكانة ، فكان حظ الأنوف من السخرية كبيراً ، وكان هذا الشذوذ في الخلقة مادة لسخرية الشعراء وفي مقدمتهم ابن الرومي ، ولعل قصيدته في ذلك الرجل الذي يسمى (دبس) والتي مرت معنا في حديثنا عن التشبيه الكاريكاتوري ، لعل تلك القصيدة تمثل صورة طريفة من الصور التي سخرت من الأنوف الضخمة ، وكان التصوير والتشبيه هو الأسلوب الذي اعتمده الشاعر في تشويه ذلك الأنف وإظهاره في مظهر مضحك ، ولابن الرومي كذلك في عمرو النصراني صورة ساخرة رسمها من خلال هذه الأبيات : (٢)

يا عمرو فخرّاً فقد أُعْطِيَ مَنْزِلَةً ليست لقسي ولا كانت لشمّاسٍ
للناس فيل إمام الناس مالْكُهُ وأنت يا عمرو فيلُ الله لا الناسِ
عليك خرطوم صدقٍ لا فُجِعَتْ به فإنه آلهٌ للجرودِ والبّاسِ
لو شئتَ كسباً به صادفتَ مُكْسَباً أو انتصاراً مضى كالسيف والفاسِ
من ذا يقومُ خرطومُ حُبَيْتٍ به إذا ضربتَ به قِرْناً على الراسِ

(١) انظر ابن الرومي حياته من شعره ١١٦ ، والسخرية في أدب المازني ٥٠ ، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤١٥ ، ٤١٦ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٣/ ٣٠٢ .

أو من يراه فلا يُعْطِيكَ خِلْعَتَهُ لا تكذبين فما بالصدق من باس
حملت أنفاً يراه الناسُ كلُّهُمْ من رأسٍ ميلٍ عياناً لا بمقياس

يوحى ابن الرومي لقارئه في مطلع هذه الأبيات أنه يمدح عمراً هذا أبلغ المديح ،
ويدعو شاعرنا عمراً لأن يفخر بنفسه وما بلغه من مقام رفيع ، لا يدانيه مقام قس بن
ساعدة الإيادي ولا شماس مدوح الخطيئة ، ولكن القارئ يفاجأ فتضحكه المفاجأة بأن
الشاعر يسخر من عمرو أشد السخرية ، فيشبهه بالفيل ، ويصوره فيلاً ضخماً كأكبر
ما يكون الفيل ، ويشبه أنفه بخرطوم فيل كبير مخيف يرهب الآخرين فيجودون له اتقاء
غضبه وثورته ، وقد بلغ ابن الرومي في هذا الجزء من صورة المهجو عمقاً كبيراً في
السخرية في عبارة « لا فجعت به » وكأن هذا الخرطوم شيء عزيز نفيس يدعو الشاعر له
- متهمك - بطول البقاء والسلامة ، فهذا الأنف - الخرطوم - مصدر عطاء ومظهر قوة
ولضخامته وكبره فإن الناس يبصرونه من بعد بعيد (١) .

والسمع أحد الخواص المهمة في الإنسان ، وهو من أكبر منافذ العقل ، فالأصم
ليس إلا حجراً أصم ، أما العمى فلم يقعد بصاحبه يوماً عن بلوغ مراتب النبوغ والعبقرية
ويدل على قيمة السمع قوله تعالى : « ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم
ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا
لا يبصرون » (٢) .

فإنها تفيد أن الصمم مرتبط بالعقل ، والعمى مرتبط بالبصر ، وقد فضل السمع
على البصر ؛ لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط . ويدين

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦٣ .

(٢) الآيتان (٤٢ ، ٤٣) من سورة يونس .

السمع بأرفع مزاياه الجمالية إلى الصوت ؛ لأنه خير وسيلة للتفاهم بين الكائنات الحية وبذلك اكتسب قيمته الاجتماعية ، وأجمل ما في الصوت أنه تعبير في جوهره فيه نقاسم الآخرين أفراحهم وآلامهم بوجه خاص ، ونستطيع بواسطة السمع أن نميز تلك الأصوات فالأصوات القاسية البحاء تذكرنا بصوت الإنسان في حالة الغضب ، والأصوات الرخيمة توظف فينا معاني العطف والحب (١) .

والصوت إذا كان خشنا مرتفعاً آذى الأسماع وجرح المشاعر ، لذلك أمر الله بغض الصوت وعاب الأصوات المنكرة ، فقال على لسان لقمان يوصي ابنه : « واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » (٢) .

وكان للشعراء حس خاص في تمييز الأصوات واستحسانها أو استهجانها والأصوات مثل أي شيء في الحياة لم يتركه الشعراء إلا ورموه بسهام النقد « فقد كان للمغنين والمغنيات نصيبهم الكبير من سخرية هؤلاء الشعراء وتهكمهم ، وربما دفعهم إلى ذلك طلبهم للجمال والكمال في أصواتهم وصورهم ، وقد ذم الشعراء في المغنين خشونة الصوت واضطرابه ، ونشاز النغم ، وثقل اللسان ، والجهد في الأداء ؛ لأن ذلك يثير سأم السامع وضجره ويملؤه مللاً وضيقاً » (٣) ولابن الرومي هجاء كثير وسخرية بالغة من أولئك الذين يتعاطون الغناء ومن أبرع ماقاله في السخرية من المغنين والتهكم بهم ، ماقاله في مغن يدعى « أبو سليمان الطنبوري » فهذا المغني لا يحسن الغناء ولا يجيد الأداء ، وصوته أبعد ما يكون عن الشجو والعذوبة ، إنه صوت يفتقر إلى وحدة التنغيم واتساقه ، إذ يرتفع مرة ويغور أخرى ، فهو كالكلب في عوائه القبيح وكالقرد

(١) انظر فن التشبيه ٤٦/٢ - ٤٨ .

(٢) بعض الآية (١٩) من سورة لقمان .

(٣) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ١٢١ ، ١٢٢ .

في شكله الكريه ، وأما فكاه عند الأداء فكأنهما فكا بغل طحان يتنغم ويستكبر بأنغامه
(١) يقول ابن الرومي : (٢)

أبو سليمان لا تُرضى طريقته لا في غناء ولا تعليم صبيان
له إذا جأب الطنبور محتفلاً صوتٌ بمصرَ وضربٌ في خراسانِ
عواءُ كلبٍ على أوتار مندفةٍ في قُبْحِ قردٍ وفي استكبارِ هامانِ
وتحسبُ العينُ فكَّيه إذا اختلفا عند التَّغَمِّ فكِّي بغلٍ طحانٍ

اعتمد الشاعر في هذه السخرية على التشبيه والتصوير والأسلوب التأليفي الذي يولد الغلو من جمع معان عديدة في معنى واحد ، فهو يشبه ضربه على الطنبور بعواء الكلب الممتزج بأصوات أوتار المندفة مجتمعين في قبْح القرد واستكبار هامان ، وهذه المظاهر تتضافر جميعاً لتصور معنى واحداً ، هو معنى القبح الراني على وجهه المنبعث من صوت طنبوره .

وهذه الصورة الساخرة لذلك المغني تمت بذلك التشبيه المضحك « بفكي بغل طحان » ، لأن السخرية لن تستوفى في هذا التشبيه إلا إذا تمثلنا في موقف الغناء بغلاً من بغال الطحانين العجاف الجياع يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان ، ولو كان بغلاً من البغال الفارحة المترفة لنقصت الصورة وفترت فيها قوة السخرية وقوة التشبيه (٣) .

ويسخر ابن الرومي من صوت مغن آخر ، فيصور لنا مصدر هذا الصوت تصويراً

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ١٢٤ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٢٨٨/٦ .

(٣) انظر ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ١٦٢ ، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ١٢٤ ، وابن الرومي حياته من شعره ١٢٠ .

مضحكا ، يقول ابن الرومي : (١)

و كأن جرذان المحلة كلها في حلقة يقرضن خبزا يابسا

أي خيال هذا الذي هدى شاعرنا إلى هذه الصورة ، وأي حس هذا الذي أوحى له بهذا التشبيه ، إنها الروح الضاحكة الساخرة العابثة التي عرف بها ابن الرومي ، لقد صور لنا مصدر هذا الصوت وكأننا نحسه يتردد في أسماعنا ، صوت قرض الخبز اليابس اجتمعت عليه كل فئران المحلة ، ولاحظ اختياره للكلمات المعبرة الموحية « كلها » فلم يتخلف من جرذان المحلة أحد ، ثم « في حلقة » أي في منبع الصوت ومصدره وهذا أبلغ في السخرية ، و « يابسا » ولو كان طريا أو لينا لهان الأمر ، إنه عبث ابن الرومي بما أراد .

ولابن الرومي في أبي سليمان أيضا مقطوعة أخرى يهزأ فيها منه ومن غنائه ،

فيقول : (٢)

وَمُسْمَعٍ لَأَعْدَمْتُ فُرْقَتَهُ	فإنها نعمةٌ من النعمِ
يَطُولُ يَوْمِي ، إِذَا قُرِئْتُ بِهِ	كأنني صائمٌ ، ولم أضمِ
يَفْتَحُ فَاهُ مِنَ الْجَهَادِ كَمَا	يَفْتَحُ فَاهُ لِأَعْظَمِ اللَّقَمِ
مَجْلِسُهُ مَأْتَمُ اللَّذَائِذِ وَالْقَصَصِ	ف ، وَعُرْسُ الْهُمُومِ وَالسَّدَمِ
كَأَنِّي طَوَّلَ مَا أَشَاهِدُهُ	أَشْرَبُ كَأْسِي مَمْرُوجَةً بِدَمِي
يَسُودُ مِنْ قُبْحِ مَا يَجِيءُ بِهِ	حَتَّى كَأَن قَدْ أُسِفَ بِالْفَحْمِ
نَبْرَتُهُ غُصَّةٌ ، وَهَزَّتُهُ	مِثْلُ نَبِيْبِ التِّيُوسِ فِي الْغَنَمِ
يُفَزِّعُ الصَّبِيَّ الصَّغَارَ بِهِ	إِذَا بَكَى بَعْضُهُمْ ، وَلَمْ يَنْمِ

(١) ديوان ابن الرومي ٣ / ٣٢٧ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٦ / ٨ - ١٠ .

يبدأ ابن الرومي سخريته وكأنه يمدح هذا المغني ، فيتمنى ألا يفارقه ؛ لأن ملازمته نعمة من النعم ، ثم يلتفت إليه فيلتقط له صورة مضحكة ، إنه يفغر فمه من الجهد والتعسر كأنه يود أن يتلع أعظم اللقم ، فهو يأكل ولا يغني ، ثم هو ثقل الظل يكرب النفس ، إذا تحرك مع لحنه وأدائه تحرك بحدة وارتيابك كتييس يرفع صوته هائجا نائرا ، وهو بغنائه يكدر جلستهم ويحول حلاوة كثوسهم مرارة وطيب شرابهم صابا ، ثم يصور لنا ملامح الجهد والتكلف التي تظهر على وجه هذا المغني إذ يتجحظ وينقطع نفسه ، ويعروه سواد الاختناق الشبيه بسواد الفحم ، إنها صورة مضحكة لمغن يطمع في رضى مستمعيه (١) .

والشم أحد الحواس التي قدرها العرب حق قدرها ، فكان لشم الأشياء المحببة عندهم نشوة لا تعادلها نشوة ، وقد شبهوا الرائحة الحسنة بالأترجه ، والمسك ، والطيب وفأرة المسك ، والعنبر والقرنفل ، والزعفران ، والند ، والرند ، وإذا ما أرادوا أن يذموا أو يسخروا شبهوا بالروائح الكريهة المنتنة ، وكان هذا بابا من التشبيه كثر طرق الشعراء له وفطنوا إليه ، فاستعملوه في شعرهم وفي هجائهم وسخريتهم على وجه الخصوص (٢) .

ومن ذلك قول أبي الشمقمق الشاعر الساخر يهجو داود بن بكر - وكان والياً للأهواز وفارس - فيسخر من رائحته ومن هيئته ، يقول أبو الشمقمق : (٣)

(١) انظر ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ١٦٢ ، ١٦٣ ، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ١٢٢ .

(٢) انظر فن التشبيه ٥٢ / ٢ ، ٥٣ .

(٣) الكامل ٥١ / ٣ .

وله لحية تيسٍ وله منقارٌ نسرٍ
وله نكهةٌ ليثٍ خالطت نكهةً صقرٍ

فلحيته كلحية تيس ، وله فم كمنقار النسر ، أما رائحته فإنها تشبه رائحة ليث خالطها نكهة صقر ، وليس في ذلك فخر ، بل فيه سخر ، إذ أن أنتن الحيوانات رائحة هو الأسد فالبحر صفة ملازمة له ، كما أن أنتن الطيور رائحة هو الصقر ، وقد جمع أبو الشمقمق لمهجوه النكهتين .

ومن السخرية بالرائحة هذه الصورة المضحكة التي يرسمها لنا ابن شهيد الأندلسي لهذا الأحمق الذي يتعاطى الكتابة وهو لا يحسنها ، يقول ابن شهيد : (١)

وَيْحَ الْكَاتِبِ مِنْ شَيْخٍ هَبْنَقَةٍ يَلْقَى الْعَيُونَ بِرَأْسِ مُخِّهِ رَارُ
وَمُنْتِنَ الرِّيحِ إِنْ نَاجِيَتَهُ أَبَدًا كَأَنَّمَا مَاتَ فِي خَيْشُومِهِ فَارُ

يصور لنا ابن شهيد مهجوه هذا وكأنه أحد الدراويش الذين خفت عقولهم فأظهره أحمق في تصرفاته وساذجا في هيئته ، قدر الثياب منتن الريح ، تنبعث منه رائحة كريهة فكأنما مات فار في أنفه فلا يخرج منه إلا خبيث الريح .

وأجود الهجاء والسخر أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض ، وهو كما عند بعض النقاد أجود من الهجاء بالعيوب الجسمية (٢) .

ويقصد بالعيوب الخلقية والنفسية تلك العيوب « التي لا تساير المثل العالية للمجتمع ، ولا توافق العرف العام ، كالبخل ، والجبن ، والثقل ، والخرق ، والتطفل

(١) ديوان ابن شهيد ، يعقوب زكي ١٦٠ .

(٢) انظر نقد الشعر ١٩٢ ، والعمدة ٨٥٢/٢ ، وكفاية الطالب ٨٢ .

وغيرها من العيوب ، وهي كما يبدو عيوب شخصية لا يتعدى ضررها صاحبها إلا في النادر ، وليس ضررها خطيراً أو مباشراً ولذلك لم تشرع لها عقوبات ، ولكنها تركت للمجتمع يعالجها بوسائله الخاصة « (١) ومن هذه الوسائل تلك السياط الملهبة التي كان يسلطها الشعراء بسخرياتهم على أصحاب هذه العيوب ، وجعلوا من التشبيه والتصوير الساخر مطية يحققون بها بعض ما في نفوسهم .

وكان أكثر تلك العيوب النفسية حظاً من السخرية البخل والبخلاء ، والبخل مذموم دائماً « وكان على رأس الذين سخروا من البخلاء الجاحظ ، الذي ألف فيهم كتاباً جمع فيه نوادرهم وأخبارهم ، مصوراً حالهم ومجسماً مظاهر السلبية وانحراف الطبع فيهم » (٢) .

ومن سخریات الشعراء بالبخلاء قول أبي نواس يسخر من بخل رجل يقال له إسماعيل : (٣)

على خبز إسماعيل واقية البخل	فقد حلّ في دار الأمان من الأكل
وما خبزه إلا كآوى يؤى ابنه	ولم ير آوى في حزون ولا سهل
وما خبزه إلا كعنقاء مغرب	تصور في بسط الملوك وفي المثل
يحدث عنها الناس من غير رؤية	سوى صورة ما إن تمر ولا تحلي
وما خبزه إلا كليب بن وائل	ومن كان يحمي عزه منبت البقل
وإذ هو لا يستب خصمان عنده	ولا الصوت مرفوع بجد ولا هزل
فإن خبز إسماعيل حل به الذي	أصاب كليبا لم يكن ذاك من ذل
ولكن قضاء ليس يسطاع رده	بحيلة ذي مكر ، ولا فكر ذي عقل

(١) انظر السخرية في أدب المازني ٥٣ .

(٢) المرجع السابق ٥٥ .

(٣) ديوان أبي نواس ٥١٥ .

ما هذا الخبز الذي قد أحصن حتى لا تصل إليه الأيدي ، فأمن من الأكل ، إنه خبز اللثام خبز لا يرى إلا في الأحلام ، ويحدث عنه في الأساطير فهو بعيد المنال ، له حرمة وحمى كحمى السادة الأعزة ، كحمى كليب بن وائل الذي كان يحمي الفلوات ، ويهابه الناس فلا يختصمون في مجلسه فغدر به الزمان فقتل ، وخبز اسماعيل أشبه بهذا السيد في كل أحواله ، وقد غالته الغوائل قضاء لا يستطيع رده مهما احتال اسماعيل له ، تشبيهه ساخر من هذا الحفظ وتلك الصيانة لذلك الخبز الذي أصبح له حمى وحرمة ، كحرمة وحمى السادة العظام .

ومن ذلك قول ابن الرومي يسخر من بخيل ، في رسم ليده صورة عجيبة ! يشبهها بالقفل الذي لا يفتح ، ولك أن تتخيل رجلاً بيد مخلوقه حلقة القفل ، ما أعجبها من صورة توصلت إليها هذه الروح الساخرة التي عرف بها ابن الرومي : (١)

غَدَوْنَا إِلَى مَيْمُونٍ نَطْلُبُ حَاجَةً	فَأَوْسَعَنَا مَنَعًا وَجِيزًا بِلَا مَظَلٍ
وَقَالَ: اعْذُرُونِي إِنْ بُخِلِي جِبِلَّةٌ	وَأَنَّ يَدِي مَخْلُوقَةٌ خَلَقَةَ الْقُفْلِ
طَبِيعَةٌ بَخِلٍ أَكَّدَتْهَا خَلِيقَةٌ	تَخَلَّقْتُهَا خَوْفَ احْتِيَاجِي إِلَى مِثْلِي
فَأَلْقَى إِلَيْنَا عِذْرَةً لَا نَرُدُّهَا	وَكَانَ مُلْقَى حِجَّةِ اللُّؤْمِ وَالْبَخْلِ

وسخروا من الجبان وعيروه بجبنه ، واعتمدوا في ذلك على أساليب بيانية شتى كان التشبيه الساخر أهمها وأشهرها ، فشبهوا الجبان بالنعام ، والصفرد ، وهي طيور شديدة الخوف والحذر ، وشبهوه بالنعجة .

(١) ديوان ابن الرومي ١٣٤ / ٥ .

فمن ذلك قول عمران بن حطان للحجاج بن يوسف في هجائه له وسخريته به : (١)

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفيير الصافر

ومن ذلك قول الشاعر يسخر من آخر : (٢)

تراه كالليث لدى أمنه وفي الوغى أجن من صفرد

وقول دعبل يهجو رجلا : (٣)

كأنه كبش إذا ما بدا لكنه في طبعه نعجة

وقول الآخر يهجو رجلاً : (٤)

نفرجة ينفر من ظل الشجر فؤاده أنثى وضرسه ذكر

نفرجة : جبان يخاف من أدنى حركة ، فظل الشجر واهتزاز الأغصان تخيفه ، فإن قلبه كقلب الأنثى ، أما إن قرب الزاد فأبشر بالفحولة والرجولة !

وسخروا من السماجة وثقل الظل والخرق والتطفل ، وكلها عيوب تنفر الناس ممن اتصف بها ، وتجعله ثقيلاً على قلوب الناس ونفوسهم ، عرضة لسخرياتهم . وكتب الأدب مليئة بحكايات هؤلاء القوم ، يقول أبو الشمقمق (*) يسخر من شخص اتصف بالسماجة : (٥)

(١) تفسير الكشاف ٤٠/١ .

(٢) مجمع الأمثال ٣٢٩/١ .

(٣) شعر دعبل ٨٧ .

(٤) ديوان المعاني ١٩٦/١ .

(*) مروان بن محمد مولى مروان آخر خلفاء بني أمية ، شاعر هزلي توفي سنة ٢٠٥ هـ . تاريخ بغداد ١٤٦/١٣ .

(٥) أبو الشمقمق شاعر الفقر والسخرية ، د . محمد الشويعر ٩٨ .

أسمح الناس جميعا كلهم كذاب ساقط في مرقاة

ويقول ابن الرومي في ثقل بارد : (١)

يا أبا القاسم الذي ليس يدري أرصاص كيانه أم حديد

أنت عندي كماء بترك في الصيف ثقل يعلوه برد شديد

ويسخر دعبل من ثقل امرأة قبيحة ، ويصف وقع كلامها على نفسه ، فيشبه شدة وقع حديثها عليه بألم خلع الضرس أو نتف الشارب ، أما دلالتها فكهشم الأنف ، وأما ضحكها فإنه أثقل على نفسه من جبال طي وأهرامات مصر ، يقول : (٢)

حديث كقلع الضرس أو نتف شارب وغنج كحطم الأنف عيل به صبري

وتفتر عن قلع عدمت حديثها وعن جبلي (طي) وعن هرمي (مصر)

ويسخر كذلك من أحرق خرق ، فيقول : (٣)

خرق على جلسائه فكأنهم حضروا للحمية ويوم جلاد

يسطو على كتابه بدواته فمرمل ، ومضمخ بمداد

فكأنه من دير هزقل مفلت حرد يجر سلاسل الأقياد

ما زال حتى صورته مجنوناً فاراً من مصحة يجر جر خلفه سلاسل الأقياد .

ومما تقدم يتبين لنا أهمية الصورة الفنية في إثارة انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه فتدهشنا وتنال إعجابنا بطريقتها في عرضه ، فالصورة وسيلة يقدم الشاعر الفنان عن

(١) ديوان ابن الرومي ٢/ ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) شعر دعبل ١١٤ .

(٣) شعر دعبل ٩٩ ، ١٠٠ .

طريقها معانيه وأفكاره ليضمن لها الوضوح وقوة التأثير في المتلقين ، فهي تضيف على هذه المعاني والأفكار المجردة روحاً وحياة وقوة دلالة ، يستطيع الشاعر من خلالها نقل انفعالاته وإحساساته وتصوراتهِ في سخطه ورضاه ، وفي جده وسخره ، وفي فحشه وعفته (١) .

وتبين أيضاً أن التشبيه أحد الفنون البيانية العظيمة التي دارت في القرآن الكريم وتوسع فيها الشعراء ، فوسع معانيهم وألفاظهم وكان أسلوباً جذاباً للتعبير عن تلك المعاني ، ومن هذه المعاني التي أبدع التشبيه في إظهارها وكان أسلوباً جميلاً ومؤثراً في إبرازها السخرية ، سواء كانت سخرية « كاريكاتورية » تصويرية ، أو كانت تصويراً حسيماً لأشكال ومواقف ساخرة ، فقد تبين من خلال الأمثلة الكثيرة والتحليل أن التشبيه الساخر أسلوب بياني واسع يفي بمعاني الشعراء وغيرهم ، فلذلك نراهم قد أكثروا من استعماله .

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤١٦ .

الاستعارة الساخرة

يقسم البلاغيون الاستعارة إلى عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، فيقسمونها باعتبار الطرفين ، وباعتبار الجامع ، وباعتبار الثلاثة ، وباعتبار أمر خارج عن ذلك كله .

وهي تنقسم باعتبار الطرفين إلى قسمين ، لأن اجتماع هذين الطرفين في شيء إما ممكن فهي وفاقية ، أو ممتنع فهي حيثئذ تسمى عنادية . ومن العنادية ما استعمل في ضد معناه أو نقيضه بتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب بواسطة تهكم أو تمليح (١) .

ومن أوائل من أشار إلى مثل هذا الأسلوب « الفراء » في تعليقه على قوله تعالى : **﴿ فَأَثْبِكُمْ غَماً بَعْماً ﴾** (٢) يقول : « الإثابة ههنا في معنى عقاب ، ولكنه كما قال الشاعر :

أَخَافُ زَيْدًا أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُودًا أَوْ مُحَدَّرَجَةً سُمُرًا

وقد يقول الرجل الذي اجترم إليك : « لئن أتيتني لأثيبك ثوابك » معناه لأعاقبك وربما أنكره من لا يعرف مذاهب العربية ، وقد قال الله تبارك وتعالى **﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾** (٣) والبشارة إنما تكون في الخير ، فقد قيل ذلك في الشر « (٤) .

وابن فارس جعل أمثله تحت « ما يجري من كلامهم مجرى التهكم والهزاء » وقد أتى بالأمثلة ولم يعلق عليها ، يقول : (٥)

(١) بغية الإيضاح ١٢١/٣ ، ١٢٢ .

(٢) بعض الآية (١٥٣) من سورة آل عمران .

(٣) بعض الآية (٢١) من سورة آل عمران ، والتوبة (٣٤) .

(٤) معاني القرآن ٢٣٩/١ .

(٥) الصاحبي ٤٢٩ .

(يقولون للرجل يستجهل « يا عاقل » . ويقول شاعرهم :
فقلتُ لسيدنا : يا حليمٌ — إنك تأسُّ أسوأ رفيقا
ومن الباب « أتاني فقريته جفاء وأعطيته حرمانا »
ومنه قوله :

ولم يكونوا كأقوام علمتهمُ يقرُّون ضيفهم الملوية الجُدا
يعني (السياط) .
ويقول الفرزدق :

قريناهُم المأثورة البيضُ قبلها يشجُّ العروق الأَزانيُّ المثقفُ
الأزاني المثقف ، الرمح المنسوب إلى ذي يزن .
وقال عمرو بن كلثوم :

قرينَاكمُ فعجَّنا قراكمُ قيل الصبحِ مرداةً طحونا
ومن الباب حكاية عنهم : « إنك لأنت الحليم الرشيد » (١)

أما (الزمخشري) فيجعل هذا الأسلوب من العكس في الكلام ، ويقف عند
أمثله القرآنية معلقا ، فيقول في قوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم » : (٢)
« وأما « فبشرهم بعذاب أليم » فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء
الزائد في غيظ المستهزاء به وتألمه واغتمامه ، كما يقول الرجل لعدوه « أبشر بقتل ذريتك
ونهب مالك » ومنه : « فاعتبوا بالصيلم » (٣) .

(١) الآية (٨٧) من سورة هود .

(٢) الآية (٢١) من سورة آل عمران .

(٣) تفسير الكشاف ٥١/١ .

ويقول في قوله تعالى ﴿ وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (١) :

« والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع ، وقد جاء في كتاب الله في مواضع ، منها « فبشرهم بعذاب أليم » « إنك لأنت الحليم الرشيد » وقد يوجد كثيراً في كلام العجم » (٢) .

أما الزركشي فيجعله أحد وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن الكريم فيقول : « الثاني عشر ، خطاب التهكم ، وهو الاستهزاء بالمخاطب ، مأخوذ من « تهكم البئر » إذا تهدم ، كقوله تعالى ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (٣) وهو خطاب لأبي جهل ؛ لأنه قال : ما بين جبلية - يعني مكة - أعز ولا أكرم مني . وقال تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (٤) جعل العذاب مبشراً به وقوله : ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ (٥) والنزل لغة : هو الذي يقدم للنازل تكرمة له قبل حضور الضيافة » (٦) .

يتضح مما مضى أن نسبة هذا الأسلوب إلى الاستعارة أمر ليس مسلماً به ، فالفراء لم يقل إنه استعارة ، وابن فارس كذلك ، أما الزمخشري فجعله من العكس في الكلام والزركشي يجعله من وجوه الخطاب في القرآن ، والرأي الذي عليه أكثر المتأخرين كالسكاكي والقزويني وشراح التلخيص وغيرهم على أنه استعارة (٧) .

(١) الآية (٦) من سورة الحجر .

(٢) تفسير الكشاف ٣١٠/٢ .

(٣) الآية (٤٩) من سورة الدخان .

(٤) الآية (٣٤) من سورة التوبة .

(٥) الآية (٥٦) من سورة الواقعة .

(٦) انظر البرهان في علوم القرآن ٢/٢١٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٧) انظر مفتاح العلوم ٣٧٥ ، وشروح التلخيص ٧٨/٤ .

وقد سهل على المتأخرين أن يعتبروا بعض صور هذا الأسلوب من الاستعارة العنادية ، وصعب عليهم أن يجدوا البعضها وجها من وجوه البيان ، إذ استعصى التشبيه والاستعارة على مثل « فأعتبوا بالصيلم » ، وقال الشهاب في هذا النوع الذي صعب عليهم تكلف التشبيه والاستعارة فيه « وفيه تسكب العبرات » إشارة إلى صعوبة تخريجه واختلاف آراء القوم فيه (١) .

ومن الباحثين من يرى أن هذا الأسلوب لا علاقة له بالاستعارة ؛ لأن العلاقة في الاستعارة هي المشابهة بين المستعار له والمستعار منه ، ويجعله من المجاز المرسل الذي تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هي الضدية (٢) .

والذين يقولون بالاستعارة العنادية يذكرون في التشبيه أن الشبه قد ينتزع من التضاد ، نظرا لاشتراك الضدين من حيث اتصاف كل واحد منهما بمضادة صاحبه ، ثم ينزل منزلة شبه التبادل بوساطة تمليح أو تهكم ، فيقال للجبان : ما أشبهه بالأسد ، وللبخيل : إنه حاتم ثان . وبينون على هذا القول في الاستعارة ، أي استعارة اسم أحد الضدين أو النقيضين للآخر ، بوساطة انتزاع شبه التضاد وإحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم أو التمليح بادعاء أن أحدهما من جنس الآخر والإفراد بالذكر ونصب القرينة كقولك « إن فلانا تواترت عليه البشارات بقتله ونهب أمواله وسبي أولاده » ويسمون هذا استعارة تهكمية (٣) .

ويظهر أن طريقة الزمخشري في تناول هذا الأسلوب وجعله من العكس في الكلام ، دون إدخاله ضمن الاستعارة أو المجاز المرسل مما قد يضطرنا إلى تكلف

(١) انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥١٠ .

(٢) انظر علم البيان ، د. طبانه ١٩٢ .

(٣) انظر مفتاح العلوم ص ٣٧٥ ، وفن الاستعارة ، دراسة تحليلية في البلاغة العربية مع التطبيق

على الأدب الجاهلي ، د. أحمد الصاوي ٥٨ .

الاستعارة أو العلاقة المجازية ، يظهر أن طريقته هذه أفضل وأسلم ، وهي عده هذا النوع لونا أسويا يعكس فيه الكلام شائع عند العرب وغيرهم ، وهو مذهب واسع يشمل الاستعارة والمجاز وغيرهما . وهذا الرأي قد سبق إليه الإمام الشهاب الخفاجي وذكره بعض الباحثين المحققين وهو فيما يبدو رأي وجيه (١) .

وجاء هذا الأسلوب في القرآن في عدة مواضع ، يسخر القرآن من أولئك المعاندين الذين يكذبون بايات الله ، أو يحكي سخرتهم برسولهم وأنبيائهم ، كفعل قوم شعيب - عليه السلام - في سخرتهم برسولهم ، يحكي الله عز وجل سخرتهم هذه في قوله :

﴿ قالوا يشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد ءابآؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشأنا إنك لآنت الحليم الرشيد ﴾ (٢) .

السياق من أوله استفهام ساخر متهم حيث ساقوا الكلام مساق الطنز ، وجعلوا الصلاة أمرة على سبيل التهكم بصلاته ، وأما قولهم « إنك لآنت الحليم الرشيد » فهو تهكم بعد تهكم حيث نسبوه إلى غاية السفه والغى ، فوصفوه بهذين الوصفين الجليين على طريقة الاستعارة التهكمية ، فالمراد بهما ضد معناهما ، وهذا الرأي روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة ، والمبرد .

والزمخشري يجعله من العكس في الكلام بقصد التهكم والسخرية كما يتهكم بالشحيح فيقال له « لو أبصرك حاتم لسجد لك ! » فهذا كله عكس للكلام ، وإن وصفه

(١) انظر حاشية الشهاب ٢/٦٠ ، ٦١ ، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥٠٩ .

(٢) الآية (٨٧) من سورة هود .

بالحلليم الرشيد يحتمل أنك المتصف بالحلم والرشد فما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به ، ولكن هذا وجه مرجوح لأن الوجه الأول وهو القول بأنه تهكم يناسب ما قبله لأنه تهكم أيضا ، فالسياق كله تهكم وسخرية (١) .

ويرد القرآن على الكافرين الهازئين هزءهم وسخريتهم ، فيواجههم بنفس سلاحهم ، فيسخر منهم كما يسخرون هم من المؤمنين ، وعلى نفس طريقتهم السابقة في السخرياتي السياق القرآني ليصب السخرية الأليمة على أحد هؤلاء الهازئين المعاندين يقول الله عز وجل في أبي جهل . حينما قال للنبي ﷺ : « ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، لقد علمت أنني أ منع أهل بطحاء وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وغيره بكلمته » (٢) يقول الله تعالى : « إن شجرت الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون ، كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون » (٣) ، وقوله تعالى « إنك أنت العزيز الكريم » أمر من الله عز وجل للملائكة بأن يقولوا له ذلك وهو في العذاب إذلالاً له وتعييراً له على كلمته ، وهذا كله على سبيل الهزء والتهكم ، ونلاحظ أن سخرية القرآن تسلم له بأنه ليس مجرد عزيز كريم بين قومه وأتباعه وإنما هو صاحب العزة التي تنفرد بذاتها لا تساويها ولا تنافسها عزة أخرى ، فإن قوله تعالى « إنك أنت العزيز الكريم » فيه تأكيد بلفظ (إن) ، وفيه قصران ، أحدهما يبدأ بلفظ (أنت) والآخر هو الألف واللام ، وكلا القصرين يفيد أنه منفرد في المجتمع بالعزة

(١) انظر تفسير الكشاف ٢/٢٢٩ ، ٢٣٠ ، وروح المعاني ١٢/١١٨ .

(٢) روح المعاني ٢٥/١٣٤ .

(٣) الآيات (٤٣ - ٥٠) من سورة الدخان .

والكرم ، وأنه لا منازع له فيهما ، وما ذلك إلا حكاية لمقولته من باب السخرية والتهكم (١).

تحتوي سخرية القرآن على ألفاظ حين نتأملها ونحاول تذوقها نجد أنها توحى بمعان ومشاعر وأجواء فسيحة فوق دلالتها الأصلية ، وكثيرا ما تتركز سخرية المعنى كله في لفظ واحد ، وهذه درجة عالية من بلاغة الكلام ، حيث يقوم لفظ واحد بالمعنى كاملا ويرسم صورة متكاملة في تعبيرها وأبعادها (٢) . وهذه الظاهرة الأسلوبية شائعة وكثيرة في القرآن الكريم ، ومنها قوله تعالى في بيان نوع من عذاب الكافرين : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لأكلون من شجر من زقوم ، فماتون منها البطون ، فشربون عليه من الحميم ، فشربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ﴾ (٣) فالنزل ما يعد للضيف النازل إكراما له ، وجعل هذا العذاب نزلا من قبيل التهكم والسخرية ، ونظيره قول الشاعر : (٤)

وكنا إذ الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وهذا الأسلوب البلاغي شائع مشتهر في الشعر العربي ، حتى إن أحد الباحثين أجرى دراسة تحليلية في فن الاستعارة طبقها على الأدب الجاهلي ، فحشد لذلك أمثلة كثيرة لكل أنواع الاستعارات ، ومنها الاستعارة التهكمية فيبين أن الشعراء الجاهليين ذهبوا كل مذهب في تصوير منازل بساحة الأعداء من قتل صاروا بعده جزرا للسباع وجوارح

(١) انظر تفسير الكشاف ٤٣٤/٣ ، وروح المعاني ١٣٤/٢٥ ، وأسلوب السخرية في القرآن الكريم ٢٢٥ .

(٢) انظر أسلوب السخرية في القرآن الكريم ٤٣٢ .

(٣) الآيات (٥١ - ٥٦) من سورة الواقعة .

(٤) انظر تفسير الكشاف ٦٠/٤ .

الطير ، ولكي يصور الشعراء ما كان قومهم يفعلونه بأعدائهم وهم يصلونهم نيران هذه الحروب الحامية الضارية راحوا يستعيرون الكأس في شماتة وتهكم لما يلقاه عدوهم من قتل وإيلام ، يذيقونه إياها مرة في أكثر الأحيان ، أو كالنار أو مملوءة بالسّم الناقع ، وهم إن لم يذكروا الكأس مستعارة يذكرون التصبيح ، أي تشبيه غارة الصباح بخمرة الصباح على سبيل الاستعارة الساخرة ، وكثيرا ماشبهوا العدو المغير بالضعيف ، وعبروا عن التنكيل به بالقرى تهكما (١) .

من ذلك مارواه صاحب المفضليات من قول سنان بن أبي حارثة المري (٢) :

قُلْ لِلْمُثَلَّمِ وَابْنِ هَنْدٍ مَالِكٍ : إِنَّ كُنْتَ رَائِمَ عَزْنًا فَاسْتَقْدِمِ
تَلَقَّ الَّذِي لَاقَى الْعَدُوَّ وَتَضَطَبَّحَ كَأْسًا صَبَابَتْهَا كَطَعْمِ الْعَلَقَمِ

هذه الأبيات هي مطلع القصيدة ، يتهدد فيها الشاعر خصميه يقول إن كنتما تريدان أن تنالا من عزنا بقتالنا فتقدما ، يتهددهما بذلك ، فإن هما فعلا لقيا مالاقي العدو وفي هذا الإبهام تعظيم وتهويل يجعل النفس تطير كل مطار ، فما لقي العدو ! ثم يعطف وتضطبحا كأسا صبابتها كطعم العلقم ، فجعل الشدة والموت اللذين يتوعدهما به كأسا مرة طعمها كالعلقم يضطبحون بها ، تهكما واستخفافا بهم .

ومثله قول عبيد بن الأبرص (٣) :

وَلَقَدْ تَطَاوَلَ بِالنَّارِ لِعَامٍ رَ —————
يَوْمَ تَشَيَّبَ لَهُ الرَّؤُسُ عَصِيبُ حَتَّى سَقَيْنَاهُمْ بِكَأْسٍ مَرَّةٍ
فِيهَا الْمُثَمَّلُ نَاقِعًا ، فَلْيَشْرَبُوا

(١) انظر فن الاستعارة ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) المفضليات ٣٤٩ .

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ، بتحقيق حسين نصار ٦ .

فالتهمك هنا في استعارة الكأس لما لقيه الأعداء من بلاء ، وفي الأمر الساخر في قوله (فليشربوا) .

ويستعير عمرو بن كلثوم (القرى) في أبيات يفخر بها على بكر ، فيقول متهمك : (١)

نَزَلْتُمْ مِنْزِلَ الْأَضْيَافِ مِنَّا فَأَعَجَلْنَا الْقِرَى أَنْ تَشْتِمُونَا
قَرَيْنَاكُمْ فَعَجَلْنَا قِرَاكُمْ قَبِيلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً طَحُونَا

هذه الأبيات هزء وسخرية واضحة حيث جعل أعداءه أضيافا يستحقون الإكرام ، وهامهم قد عجلوا القرى حتى لا يتهموا بالتقصير في أداء حقهم وواجبهم ، فقرؤا أضيافهم حربا طاحنة أهلكتهم أشد إهلاك .

ومثله قول القطامي : (٢)

لَمْ تَلَقَ قَوْمًا هُمْ شَرُّ لِأَخَوْتِهِمْ مِنَّا عَشِيَّةَ يَجْرِي بِالدَّمِ الْوَادِي
نَقَرِيهِمْ لَهْذَمِيَّاتٍ نَقْدُ بِهَا مَا كَانَ خَاطَ عَلَيْهِمْ كُلُّ زَرَادٍ

فالقرى كما هو معروف ما يقدم للأضياف حفاوة وتكريما ولكن الشاعر هنا نقله إلى الضرب بالسيوف القواطع ، بعدما شبه الضرب بالقرى بجامع التكريم والحفاوة سخرية وطنزا (٣) .

(١) شرح المعلقات السبع ، للزوزني ١٧٢ .

(٢) ديوان القطامي ، تحقيق د. السامرائي ومطلوب ٨٩ ، ٩٠ .

(٣) انظر التصوير البياني ٢٢٢ .

ومثله قول كعب بن زهير (١) :

صبحنا الخرزَ جيةً مرهفاتٍ أبادَ ذوي أرومتها ذؤوها

أراد ضربنا الخرزج بالسيوف المرهفة التي أباد حاملوها أرومة هذه القبيلة ، وقوله « صبحنا » مستعار من تحية الصباح للضرب بالسيوف بعد التشبيه المبني على التهكم ، أي بعد تشبيه الضرب بالتحية بجامع التكريم في كل سخرية وتهكما (٢) .

ومن ذلك الاستعارة في الأعلام ، ومعلوم أن الاستعارة لا تكون في العلم لأنها تقتضي إدخال المشبه في جنس المشبه به بجعل أفراده قسمين ، متعارف وغير متعارف ، ولا يمكن ذلك في العلم لمنافاته الجنسية ؛ لأنه يقتضي التشخيص ومنع الاشتراك ، والجنسية تقتضي العموم (٣) .

ولكن ليس الأمر هكذا على إطلاقه ، فالعلم إذا تضمن وصفا معينا ، بأن يكون صاحبه مشتهراً بوصف متى أطلق فهم منه الوصف ، فيجوز إجراء الاستعارة فيه (كحاتم) مثلاً موضوع لرجل معين ثم اشتهر بوصف (الجود) حتى صار لازماً له ، ومثله (مادر) رجل معين مشتهر بالبخل ، و « سحبان » في رجل معين مشتهر بالفصاحة ، و (باقل) في رجل معين مشتهر بضد الفصاحة وهو (الفهاة) (٤) ، ولقد اشتهر قوم بخصال محمودة عند العرب فصاروا فيها أعلاماً يشبه بها في حال المدح ، فإذا ذكروا انصرفت الأذهان إلى صفاتهم التي اشتهروا بها لا إلى أشخاصهم ، كسموئ في الوفاء ، وحاتم

(١) ديوان كعب بن زهير ، للسكري ١٦٦ ، شرح د. مفيد قميحة .

(٢) انظر التصوير البياني ٢٢٢ .

(٣) شروح التلخيص ٦٩/٤ ، ٧٠ .

(٤) شروح التلخيص ٧٠/٤ ، ٧١ .

في السخاء ، والأحنف في الحلم ، وسحبان في البلاغة ، وقس في الخطابة ، ولقمان في الحكمة (١) .

هذه الأعلام اشتهرت بأوصاف معينة فيجوز أن تقول : (جاء حاتم) وأنت تعني عليا ، فتستعير هذا العلم لتدعي لعلّي مشابهة تلك الصفة التي شهر بها هذا العلم ، ولكن قد يعكس الكلام ، فيكون هذا العكس بقصد الاستهزاء والسخرية ، ومعلوم أن الاستعارة لا تقوم إلا على التشبيه وقد ذكر البلاغيون أن من أقسام التشبيه قسماً ينزل فيه التضاد منزلة التناسب ، فيشبه البخيل بحاتم ، والعيي بسحبان وائل ، والجاهل بلقمان ويكون هذا التشبيه بقصد السخرية لأن « من الشروط اللازمة في التشبيه أن يشبه البليغ الأدون بالأعلى إذا أراد المدح ، إلا إذا أراد الهجو فالبلاغة أن يشبه الأعلى بالأدون » (٢) .

وتنقسم الاستعارة من حيث الأفراد والتركيب إلى مفردة ومركبة ، والمركبة قد تسمى (استعارة تمثيلية) ، وهي مجاز مركب علاقته المشابهة ، يقول القزويني : « وأما المجاز المركب ، فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور أخرى ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه ، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه » (٣) .

كما يقال لمن يعمل في غير معمل : « أراك تنفخ في غير فحم ، وتخط على الماء » والمعنى أنك في فعلك كمن يفعل ذلك ، وكما يقال لمن يعمل الحيلة حتى يميل صاحبه إلى ما كان يمتنع منه « مازال يقتل منه في الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد » والمعنى إنه لم

(١) الصناعتين ٢٦٥ .

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/٣٨٣ .

(٣) بغية الايضاح ٣/١٤٦ ، ١٤٧ .

يزل يرفق بصاحبه رفقا يشبه حاله فيه حال من يجيء إلى البعير الصعب فيحكه ويفتل الشعر في ذروته وغاربه حتى يسكن ويستأنس ، وهذا في المعنى نظير قولهم : « فلان يقرء فلانا » أي يتلطف به ، فعل من ينزع القراء من البعير ليلتذ بذلك فيسكن ويثبت في مكانه حتى يتمكن من أخذه (١) .

والاستعارة التمثيلية مجاز مركب علاقته المشابهة ، وقد وضع عبدالقاهر هذه العلاقة القائمة بين الدلالة الأصلية للتركيب وبين دلالة المقصودة في حديثه عن هذا المثال بقوله : « أما التمثيل الذي يكون مجازاً لمحيثك به على حد الاستعارة ، فمثاله قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه : « أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى » . فالأصل في هذا : أراك في ترددك كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة ، كما كان الأصل في قولك : « رأيت أسداً » ، رأيت رجلاً كالأسد ، ثم جعل كأنه الأسد على الحقيقة » (٢) .

والاستعارة هنا ليست في لفظ مفرد وإنما في التركيب كله أو في مجموع جملة من الكلام ، حيث نقل عن معناه إلى معنى جديد لعلاقة المشابهة القائمة بينهما ، ووجه الشبه في هذه الصورة هيئة منتزعة من عدة أمور ، وتسمى تلك الصورة وما على شاكلتها استعارة تمثيلية (٣) .

وقد أشار عبدالقاهر إلى ذلك بقوله : « اعلم أنك تجد الاسم وقد وقع من نظم الكلام الموقع الذي يقتضي كونه مستعاراً ثم لا يكون مستعاراً ، وذلك لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره ، وليس له شبه ينفرد به ، على ما قدمت لك من أن الشبه يجيء منتزعا من مجموع جملة من

(١) بغية الإيضاح ٣/١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) دلائل الإعجاز ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) انظر فن الاستعارة ٩٦ .

الكلام ، فمن ذلك قول داود بن علي (*) حين خطب فقال : « شكرا شكرا ، إنا والله ماخرجنا لنحفركم فيكم نهرا ، ولا لنبنى فيكم قصرا ، أظن عدو الله أن لن يظفر به ، أرخى له زمامه حتى عثر في فضل خطامه ، فالآن عاد الأمر في نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن قد أخذ القوس باريها ، وعاد النبل إلى النزعة ، ورجع الأمر إلى مستقره في أهل بيت نبيكم ، أهل بيت الرأفة والرحمة » فقلوله « الآن أخذ القوس باريها » وإن كان القوس تقع كناية عن الخلافة ، والباري عن المستحق لها فإنه لايجوز أن يقال إن القوس مستعار للخلافة على حد استعارة النور والشمس ؛ لأجل أنه لا يتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد ، وأن يقال « هي قوس » كما يقال « هي نور » و« شمس » وإنما الشبه مؤلف لحال الخلافة مع القائم بها من حال القوس مع الذي براها وهو أن الباري للقوس أعرف بخيرها وشرها ، وأهدى إلى توتيرها وتصريفها ، إذ كان العامل لها ، فكذلك الكائن على الأوصاف المعتبرة في الإمامة والجامع لها ، يكون أهدى إلى توفية الخلافة حقها ، وأعرف بما يحفظ مصارفها عن الخلل ، وأن يراعي في سياسة الخلق بالأمر والنهي التي هي المقصود منها ترتيبا ووزنا تقع به الأفعال مواقعها من الصواب ، كما أن العارف بالقوس يراعي في تسوية جوانبها وإقامة وترها وكيفية نزاعها ووضع السهم الموضع الخاص منها مايجب في سهامه أن تصيب الأغراض وتقرطس في الأهداف وتقع في المقاتل وتصيب شاكلة الرمي » (١) .

وهكذا قول القائل وقد سمع كلاما حسنا من رجل دميم : « غسل طيب في ظرف سوء » ، ليس « غسل » ههنا على حده في قولك « ألفاظه غسل » لأجل أنه لم يقصد إلى

(*) داود بن علي بن عبدالله بن عباس الهاشمي عم السفاح العباسي كان خطيبا فصيحاً ، من كبار القائلين بالشورى على بني أمية تولى الكوفة ثم الحجاز واليمن توفى سنة ١٣٣ هـ .

الأعلام ٢/ ٣٣٣ .

(١) أسرار البلاغة ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

بيان حال اللفظ الحسن وتشبيهه بالعسل في هذا الكلام ، وإن كان ذلك أمرا معتادا ، وإنما قصد إلى بيان حال الكلام الحسن من المتكلم المشنوء في منظره ، وقياس اجتماع فضل المخبر مع نقص المنظر ، بالشبه المؤلف من العسل والظرف ، ألا ترى أن الذي يقابل الرجل هو « ظرف سوء » ، وظرف سوء لا يصلح تشبيه الرجل به على الانفراد ، لأن الدمامة لا تعطيه صفة الظرف من حيث هي دمامة ، مالم يتقدم شيء يشبه ما في الظرف من الكلام الحسن أو الخلق الجميل ، أو سائر المعاني التي تجعل الأشخاص أوعية لها (١).

وهذه الاستعارات التمثيلية متى اشتهرت وفشا استعمالها سميت مثالا ، والأمثال لا تغير ؛ لأنها تستعمل على سبيل الاستعارة فيجب أن يبقى لفظها على حاله من غير تغيير ، وتجري الاستعارة فيها بأن تشبه صورة مضر بها بصورة موردها ثم يستعار لفظها لها وعلى هذا يكون كل مثل استعارة ولا عكس (٢).

وتعتبر الأمثال لونا من ألوان النثر الفني عند العرب ، ومتى ما استعملت هذه الأمثال في مواقف مشابهة لمواقفها الأصلية كان ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية .

والمثل مأخوذ من المثل ، وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول ، والأصل فيه التشبيه ، فقولهم « مثل بين يديه » إذا انتصب ، معناه أشبه الصورة المنتصبة ، و « فلان أمثل من فلان » أي أشبه بما له من الفضل ، والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول ، كقول كعب بن زهير : (٣)

كانت مواعيد عرقوب لها مثالا وما مواعيدها إلا الأباطيل

(١) أسرار البلاغة ٢٥٩ .

(٢) انظر بغية الايضاح ١٥١/٣ .

(٣) مجمع الأمثال ٧/١ .

فمواعيد عرقوب(*) علم لكل ما لا يصح من المواعيد .

والمثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ ، شبهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره ، وسميت كذلك الحكم القائم صدقها في العقول أمثالا لانتصاب صورها في العقول مشتقة من المثل الذي هو الانتصاب (١) .

ويجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام ، إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة ، وإذا جعل الكلام مثالا كان أوضح للمنطق وأتقن للسمع وأوسع لشعوب الحديث (٢) .

ولكل مثل مورد ومضرب ، والمراد بالمورد الموقف الذي صدر فيه أولاً وقد يكون حدثاً واقعياً ، وقد يكون حدثاً متخيلاً لا وجود له على أرض الواقع ، كما في الأمثال الواردة على السنة الحيوان ، كقول الضب للضبب والثعلب للذين أتياه يحتكمان إليه : «في بيته يؤتي الحكم» وأما المضرب ، فهو الموقف الذي يستعار له المثل بناء على المشابهة بينه وبين الموقف الأول ، ويروى المثل بلفظه الذي سمع به ، فيخاطب به المفرد والمثنى والجمع مذكراً ومؤنثاً . وهناك بعض الأبيات قد تحتوي في شطريها على صورة تشبيهية مركبة ، فإذا ذكر البيت بكامله فهو من قبيل التشبيه المركب أو تشبيه التمثيل ، أما إذا انتزعنا الشطر الثاني الذي هو المشبه به ، واستخدمناه وحده في موقف مشابه لما يعبر عنه فإن ذلك يعد من قبيل الاستعارة التمثيلية (٣) .

(*) عرقوب : جاهلي يضرب به المثل في خلف المواعيد قيل هو ابن سعد بن زيد مناة وقيل هو من الأوس والخزرج وقيل من يهود يثرب . الأعلام ٢٢٥ / ٤ .

(١) انظر مجمع الأمثال ٧ / ١ .

(٢) المرجع السابق ٧ / ١ ، ٨ .

(٣) انظر التعبير البياني رؤية بلاغية ، د. شفيع السيد ١٤٥ .

واستعمال الأمثال في أثناء الكلام يضيف عليه قوة ويكسبه مزية ، وكثيرا ما نستخدم هذه الأمثال حتى في أحاديثنا العابرة ، فتكون جميلة رائعة إذا وقعت موقعها ، بأن تذكر في مناسبة تشبه المناسبة التي استخدمت فيها أصلا ، فيكون ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية .

ولا يكون المستعار فيها لفظا بل يكون عبارة تعبر كل جزئية فيها عن جزئية في المستعار له لكنها لا تأتي على ذلك ، أي لا تقابل كل جزئية منها بجزئية في المستعار له فنأخذها وكأنها لفظ واحد ، مثال ذلك أن نقول عن محارب شجاع وضع عدة الحرب ورجع إلى دياره (عاد السيف إلى قرابه ، وحل الليث منيع غابه) فمن الممكن أن يقال إننا نشبه الرجل بالأسد وبيته بالعرين ، وأنا نشبهه بالسيف وبيته بالقراب ، لكن ذلك يضعف الصورة ويقطع أوصالها ، لأن بناء الأسلوب يقع على الحالة ذاتها بكل جزئية من جزئياتها ، إن النقل والتحول في الاستعارة التمثيلية ليس لفظا وإنما هيئة مركبة أو حالة من الحالات نشبهها بحالة أخرى ، ونعيد بعث تلك الحالة وإعادتها حية نابضة كما كانت من قبل (١) .

والاستعارة هنا في تركيب استعمل في غير ماوضع له لعلاقة المشابهة ، ووجه الشبه يكون هيئة متزعة من عدة أمور تشكل صورة نسميها استعارة تمثيلية ، واستخدم هذا النمط من الاستعارة في السخرية كثيرا ، وشاع استعارة الأمثال بقصد التعليق الساخر على حادثة أو موقف أو التهكم بشخص أو الهزاء به بقصد الشماتة أو غيرها « كما يروى عن معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه أنه لما بلغه أن الأشر والي علي رضي الله عنه على مصر سقى عسلا فيه سم فمات ، قال معاوية شامتا ومتهكما : « إن لله جنودا منها العسل » (٢) .

(١) انظر فنون التصوير البياني في البلاغة العربية ، د. توفيق الفيل ٢٦٢ .

(٢) انظر عيون الأخبار ١/ ٢٠١ .

ومن ذلك ماروي في مناسبة نزول قوله تعالى : ﴿ قل للذين ءامنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون ﴾ (١) أن ابن أبي أرسل غلامه ليستقى فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقي حتى ملأ قرب النبي ﷺ وقرب أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، فقال ابن أبي : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل (سمن كلبك يأكلك) فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فاشتعل سيفه يريد التوجه إليه ، فأنزل الله تعالى الآية (٢) . وقوله «سمن كلبك يأكلك» مثل قاله رجل من العرب لقي صبياً فرباه فلما كبر خانه (٣) .

وأمثلة هذا النوع كثيرة ، إذ أن كثيراً من الأمثال يمكن أن تستعار بقصد السخرية والتهكم ، من ذلك قولهم (أجن من المزوف ضرطا) وأصله أن رجلاً أيقظته زوجته من نومه ، فقال لها : لو نبهتني لعاديه ، فقالت له : هذه نواصي الخيل ، فجعل يقول : الخيل الخيل ، ويضرط ، حتى مات (٤) فإذا نقل هذا المثل واستعير في حادثة معينة لكان استعماله هنا فيه تهكم وسخرية ، وكذلك قولهم (أجن من صافر) و (أجن من صفرد) (٥) .

ومثله قولهم (أثقل من الرصاص) (٦) إذا استعمل على سبيل الاستعارة ، ومنه قولهم (أحاديث الصم إذا سكروا) (٧) فيمن يخلط قوله ويعتذر بالباطل ، فإذا نقل واستعير صلح أن يكون ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية .

(١) الآية (١٤) من سورة الجاثية .

(٢) روح المعاني ١٤٧/٢٥ .

(٣) انظر مجمع الأمثال ١٠٦/٢ .

(٤) المرجع السابق ٣٢٢/١ .

(٥) المرجع السابق ٣٢٩/١ .

(٦) المرجع السابق ٢٧٨/١ .

(٧) المرجع السابق ٣٦٢/١ .

وهذه العبارات والأمثال وإن كانت من التعبيرات المتداولة أو القوالب المعدة ، نراها في هذا الاستعمال الاستعاري التهكمي حية دافقة وحارة متوهجة ، وذلك لأن الموقف وملابساته يفرغ عليها ضروبا من المعاني والأحاسيس والمشاعر تنفض عنها رتبة الإلف ، وملل التكرار وتبعثها حية نابضة يجري فيها ماء الحياة ، وجريان هذه العبارات على الألسن لا يفقدها جدتها وطرفتها وتأثيرها ولا يحول بينها وبين أن تحمل أدق ملابسات النفس المعبرة (١) .

وهنا نوع من الاستعارة تحدث عنه عبدالقاهر وأسماء بالاستعارة اللفظية غير المفيدة ، وأشار إلى أنها تجري بين الأسماء التي تتحد أجناس مسمياتها كالشفه ، والمشفّر والجحفلة ، والقدم ، والحافر ، والأظلاف ، والأظافر ، والتولب ، والولد ، والطلا وغير ذلك .

يقول : « واعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية » (٢) .

ثم يقسمها إلى قسمين ، أحدهما نقل له فائدة والآخر ليس لنقله فائدة وبدأ بذكر ما ليس له فائدة ، وذلك كوضع أسامي عدة لشيء واحد ، بقصد التوسع في أوضاع اللغة والتنويع في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها ، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع (الشفة) للإنسان و (المشفر) للبعير ، و (الجحفلة) للفرس ، فإذا استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذي وضع له ، فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز به موضعه (٣) .

(١) انظر التصوير البياني ٢٢٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، هـ . ريتز ٢٩ .

(٣) المرجع السابق .

ثم يضرب على ذلك الأمثلة ، فمنها قول الشاعر أبي دؤاد بن الحجاج :

فَبِتّاً جُلُوساً لَدَى مُهْرِنَا نُزَّعُ مِنْ شَفْتَيْهِ الصَّفَارِ

ويعلق على البيت بقوله : « فاستعمل « الشفة » في الفرس وهي موضوعة للإنسان ، فهذا ونحوه لا يفيدك شيئاً لو لزمنا الأصلي لم يحصل لك ، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله (من شفتيه) وقوله (من جحفلتيه) لو قاله ، إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب ، بل الاستعارة ههنا بأن تنقصك جزءاً من الفائدة أشبه « (١) .

ثم يتحدث عبدالقاهر عن نوع من هذه الاستعارة اللفظية ناظر إلى الاستعارة المعنوية ، فيجعل فيه استعمال (المشافر) أو (الأظلاف) أو (التوالب) للإنسان ، من قبيل الذم والتهكم إذا أتى بها في مواضع العيب والنقص ، يقول : « فاعلم أنك قد تجد الشيء يخلط بالضرب الأول الذي هو استعارة من طريق اللفظ ، ويعد في قبيله ، وهو إذا حققت ناظر إلى الضرب الآخر الذي هو مستعار من جهة المعنى وجار في سبيله ، فمن ذلك قولهم « إنه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر » وذلك أنه كلام يصدر عنهم في مواضع الذم ، فصار بمنزلة أن يقال : (كأن شفته في الغلظ مشفر البعير ، وجحفلة الفرس) وعلى ذلك قول الفرزدق :

فَلَوْ كُنْتَ ضِيّاً عَرَفْتَ قَرَابَتِي وَلَكِنْ زَنْجِيّاً غَلِيظَ الْمَشَاوِرِ

فهذا يتضمن معنى قولك (ولكن زنجياً كأنه جمل لا يعرفني ولا يهتدي لشرفي) (٢) .

وهذا الأسلوب يصلح أن يستعمل في مواضع السخرية والتهكم ، وذلك واضح لا لبس فيه ، ولكن جعل ذلك من الاستعارة أمر فيما يبدو صعب حتى على عبدالقاهر

(١) أسرار البلاغة ، هـ . ريتز ٣٠ .

(٢) المرجع السابق ٣٤ ، ٣٥ .

نفسه ، فنراه يتردد بين أن يعده في الاستعارة أو لا ، فهو في أول الأمر يصنفه في الاستعارة اللفظية النازرة إلى المعنوية ، ولكنه يرجع عن ذلك فيصرح أن هذا ليس من الاستعارة ، وفي موضع ثالث يعتذر عن تسميته استعارة وإنما سماه استعارة كراهة لمخالفة من سبقه ، يقول بعد أن فرغ من الحديث عن هذا النوع وبدأ في الحديث عن الاستعارة المفيدة : « اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول » (١) ، ويقول في موضع آخر : « واعلم أن الواجب كان أن لا أعد وضع « الشفة » موضع « الجحفة » في مكان « المشفر » ونظائره التي قدمت ذكرها في الاستعارة ، وأضنُ باسمها أن يقع عليه ولكني رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدها ، فكرهت التشدد في الخلاف واعتددت به في الجملة ، ونبهت على ضعف أمره بأن سميته (استعارة غير مفيدة) (٢) .

وقد عاب بعض النقاد هذه الاستعارة وقالوا كل ماجرى هذا المجرى من الاستعارة فهو قبيح لا عذر فيه ، فعابوا على أوس بن حجر قوله :

وَذَاتُ هَذِمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصِمُّ بِالْمَاءِ تَوَلِّبًا جَدِعا

وقالوا إنه قد أفحش الاستعارة بأن سمى الصبي « تولبا » وهو ولد الحمار (٣) .

وعابوا كذلك قول الآخر :

وَمَا رَقَدَ الْوِلْدَانُ حَتَّى رَأَيْتُهُ عَلَى الْبَكْرِ يَمْزِيهِ بَسَاقٍ وَحَافِرٍ

فسمى رجل الإنسان « حافرا » (٤) .

(١) أسرار البلاغة ، هـ . ريتز ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ٣٧٣ .

(٣) انظر الموشح ، للمرزباني ٨١ ، تحقيق على البجاوي .

(٤) المرجع السابق .

ولا أتفق مع من عاب هذا النوع على إطلاقه ، فإن كان استعمال اسم أحد الأعضاء في غير الأصل الذي وضع له دون أن يكون لهذا الاستعمال والنقل داع يستدعيه أو معنى يقتضيه فإنه يعاب ، أما إن كان لمعنى مقصود كأن يكون من وراء ذلك بيان رثالة الحال والبؤس كما هو في بيت أوس السابق الذي يقول عبدالقاهر معلقا عليه : « فأجرى التولب على ولد المرأة وهو لولد الحمار في الأصل ، وذلك لأنه يصف حال ضر وبؤس ، ويذكر امرأة بائسة فقيرة ، والعادة في مثل ذلك ، الصفة بأوصاف البهائم ليكون أبلغ في سوء الحال ، وشدة الاختلال ، ومثله سواء قول الآخر : (١)

وذكرت أهلي بالعرّا ءِ وحاجة الشُعْبِ التَّوَالِبِ

ولا يعاب هذا النوع إذا استعمل لقصد السخرية والتهكم حين ينقل اسم عضو من أعضاء الحيوانات إلى إنسان ، كما عند الفرزدق في سخريته من أيوب بن عيسى الضبي ، يقول : (٢)

فلو كنت قَيْسِيًّا إِذَا مَا حَبَسْتِي وَلَكِنْ زَنْجِيًّا غَلِيظًا مَشَافِرُهُ

فهذا نقل قصد به الذم والانتقاص والتهكم حيث جعل له مشفر دابة ، وهو كلام يتضمن معنى قولك « ولكن زنجيا كأنه جمل لا يعرفني ولا يهتدي لشرفي » ، وهو كلام يصدر عنهم في مواضع الذم والعيب والنقص (٣) .

ولولا أن هذا النوع أسلوب راق رصين لما جاء في القرآن الكريم ، يقول الله تعالى في الوليد بن المغيرة : « سنسمه على الخرطوم » (٤) بعد أن كذب بآيات الله وصد عنها

(١) انظر أسرار البلاغة ، هـ . ريتز ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) الأغاني ٣٣٢/٢١ .

(٣) انظر أسرار البلاغة ، هـ . ريتز ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ .

(٤) الآية (١٦) من سورة القلم .

توعده الله بالعذاب المهين في الدنيا والآخرة ، فسماه (المهين) وجعل لهذه المهانة وسما يوضع على أنفه ليعرف به ، والأنف أكرم موضع في الجسد ، لذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا : الأنف في الأنف ، وحمي أنفه ، وفلان شامخ العرين ، وقالوا في الذليل : جدد أنفه ، ورغم أنفه ، وإطلاق اسم الخرطوم على الأنف من باب إطلاق مشفر على الشفة الغليظة لإنسان ، وقد عبر بذلك عن غاية الإذلال ؛ لأن السمة على الوجه شين ، وفي لفظ « الخرطوم » استهانة ؛ لأنه لا يستعمل إلا في الفيل والخنزير ، ففي التعبير عن الأنف بهذا الاسم ترشيح لما دل عليه الوسم على العضو المخصوص من الإذلال ، والمراد سنيته في الدنيا ونذله غاية الإذلال . ولا شك أن هذا الأسلوب تعبير ساخر متهم ، فهذا الشخص القوي المتسلط ، صاحب المال والبنين ، والفكر والتقدير ، الذي يملأ قلوب أتباعه إعجابا وإكبارا بمظهره وجلاله ، تمسح سخرية القرآن هذا المظهر الكبير الجليل لتضع مكانه صورة ساخرة ، نرى فيها الوليد وقد شوه منه أبرز موضع في أكرم عضو من الإنسان ، على أننا لانراه في الصورة هو الوليد كما يعرفه الناس ، وإنما نراه أشبه بحيوان ذي خرطوم ، وقد وسم هذا الخرطوم بعلامة بشعة منفرة ، تشوه مظهره وتثير الضحك والسخرية منه (١) .

ومن ذلك ، هجاء المتنبي لكافور وسخريته منه ، يقول أبو الطيب : (٢)

ما كنت أحسبني أبقى إلى زمن يسيء بي فيه كلب وهو محمود

(١) انظر تفسير الكشاف ٤/ ١٢٧ ، ١٢٨ ، وأبو السعود ٩/ ١٤ ، وروح المعاني ٢٩/ ٢٨ ، ٢٩

والسخرية في القرآن الكريم ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) ديوان المتنبي ٢/ ٤٣ ، ٤٤

وَلَا تَوَهَّمَتْ أَنْ النَّاسَ قَدْ فَقِدُوا وَأَنْ مِثْلَ أَبِي الْيَضَاءِ مَوْجُودُ
وَأَنَّ ذَا الْأَسْوَدَ الْمُثْقُوبَ مَشْفَرُهُ تَطِيعُهُ ذِي الْعَضَارِيطِ الرَّعَادِيدُ

ويقول فيه أيضا : (١)

فَإِنْ كُنْتَ لَا خَيْرًا أَفَدْتَ فَإِنِّي أَفَدْتُ بِلَحْظِي مَشْفَرِيكَ الْمَلَاهِيَا

جعل المتنبي لهذا الأسود مشفرا كمشفّر البعير مثقوب ، يلهو به ويضحك عند رؤيته ، ويتساءل معجبا كيف لهذا الأسود العظيم المشافر أن يسود هؤلاء الذين حوله ! وكأن عظم المشافر ينافي السيادة ، فهذا المشفر المثقوب لم يثقب إلا ليقاد كما يقاد البعير عندما يربط مشفره المثقوب بالزمام ، فليس أهلا لأن يقود .

ويروى أن الفرزدق دخل على قوم يشربون عند رجل بالبصرة وفي صدر مجلسهم فتى أسود وعلى رأسه إكليل ، فلم يحفل بالفرزدق ولم يخف تهاونا ، فغضب الفرزدق من ذلك وقال : (٢)

جَلُوسُكَ فِي صَدْرِ الْفَرَّاشِ مَذَلَّةٌ وَرَأْسُكَ فِي الْإِكْلِيلِ إِحْدَى الْكِبَائِرِ
وَمَا تَطَفَّفْتُ كَأْسٌ وَلَا لَذَّةٌ طَعْمُهَا ضَرَبْتَ عَلَى حَافَاتِهَا بِالْمَشَافِرِ

فجعل له مشافر كريهة تفسد الشراب وتفقده لذته .

ومما مر نتبين أن هذا الأسلوب قوي رصين ، وشائع الاستعمال ، سواء كان عكساً للكلام ، أو من قبيل الاستعارة التمثيلية ، أو العنادية التهكمية ، أو كان استعارة في الأعلام ، أو استعارة لفظية باستعمال بعض الالفاظ لغير ما وضعت له ، كل ذلك جاءت منه أروع النصوص الساخرة شعرية ونثرية ، ورأينا الأمثلة القرآنية تستخدم هذا الأسلوب فتصور منه أروع السخریات .

(١) ديوان المتنبي ٢٩٦/٤ .

(٢) الأغاني ٣٧٥/٢١ .

الكناية الساخرة

الكناية عند أهل اللغة أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره ، يقولون : كنى به عن كذا يكنني ويكنُّو كناية ، ومنها العدول عن اسم الشخص إلى الكنية كأبي عبدالله وأم سليم (١) .

وهي كما عند البلاغيين المتأخرين : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته كقولك : فلان طويل النجاد ، أي طويل القامة (٢) .

فالكناية عدول عن لفظ إلى آخر يدل عليه ، وهو عدول لا يعني إخفاء اللفظ أو ستره كلياً ، ولا يعني أيضاً إبرازه واضحاً ، وإنما يعني التحول عنه إلى غيره ، فيكون اختفاؤه بقدر يحتاج معه إلى شيء من التمعن والتدقيق .

وقد أوضح عبدالقاهر الكناية بقوله : « المراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيومئ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه » (٣) .

وقد أجمع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح وليس معنى هذا أنك إذا كنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته ، فجعلته أبلغ وأكد وأشد (٤) .

(١) القاموس المحيط (كنى)

(٢) شروح التلخيص ٤ / ٢٣٧ .

(٣) دلائل الإعجاز ٦٦ .

(٤) المرجع السابق ٧٠ ، ٧١ .

والهجاء والسخرية إنما تفضل وتقوى بالكناية والتعريض وأبلغ الهجو «ما عترض بين التصريح والتعريض» (١) ذلك لاتساع الظن في التعريض ، وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً ، وقبلته يقيناً في أول وهلة ، فكان كل يوم في نقصان (٢) ومن استعمل في الهجاء الإيهام والتعريض والتلويح بقي له موضع يخرج منه إلى الاعتذار مع أن التعريض في الهجو أبلغ من التصريح لاتساع الظن في التعريض وشدة تعرض النفس بالكناية عنه ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته بخلاف التصريح (٣) .

وقد ذكر البلاغيون أنه لا يصار إلى الكناية والتعريض إلا لغرض يقصده المتكلم يرى أن الكناية عنه والتعريض به أولى من التصريح ، يقول ابن الناظم : « ولا يُترك التصريح بالشيء إلى الكناية عنه في بليغ الكلام إلا لتوخي نكتة كالإيضاح ، أو بيان حال الموصوف أو مقدار حاله ، أو القصد إلى المدح أو الذم ، أو الاختصار ، أو الصيانة ، أو التعمية والإلغاز ، أو التعبير عن الصعب بالسهل ، أو عن الفاحش بالظاهر ، أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن » (٤) .

وذكر ابن معصوم ستة من الأسباب التي يُعدل لأجلها من التصريح إلى الكناية وجعل منها قصد الذم (٥) .

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٢٤ .

(٢) العمدة ٢/ ٨٥٠ .

(٣) انظر جواهر الكنز ٣١١ .

(٤) المصباح ، لابن الناظم ١٤٧ .

(٥) أنوار الربيع ٣١١/ ٥ .

وبعد الجرجاني صاحب المنتخب من فوائد الكناية ، القصد إلى الذم بلفظ ظاهره المدح (١) وفي ذلك احتيال على المعنى ، وتكنية للألفاظ ، حيث يجد الساخر بغيته في هذا الأسلوب الذي يسلك به سبيل التعريض ويتعد عن التصريح .

ومن ذلك هذه الأقوال التي يمكن أن تلقى على سبيل التهكم والسخرية ، كقولهم : أرانيه الله أغرَّ محجلاً ، أي مخلوق الرأس مقيدا ، وقولهم : فلان صافي العيش حلوا الحياة ، يعنون به الجاهل ، وفلان حسن الظن يعنون به الغافل . وفلان سليم الصدر ، يعنون به الأبله ، ويقولون : ستره الله بستره أي رمى عليه حائطاً يستره (٢) .

وهذه كلها كنايات توهم سامعها أن معناها مدح إذ إن ظاهرها يغري بهذا الفهم ، بينما تحمل في حقيقتها ذماً ربما استعمل في السخرية بمن غفل عن مثل هذه المعاني البعيدة ، وهي كما يبدو كنايات شاعت وعرفت في وسط معين فأصبحت تستعمل في السخرية بمن لم يفطن إلى المقصود بها .

وكان بعض الظرفاء إذا أراد أن يسخر من شخص أو يتلاعب به قال له : أعددتُ لك مايؤنس المتوحش ، ويبسط المنقبض ، وينشط الكسلان ، ويضحك الثكلان . ويكني بكل هذا عن الصفع (٣) وفي هذا تهزل وتلاعب بالألفاظ وستر للمعاني ، إذ يوهم هذا المتكلم مخاطبه بالإكرام ، فإذا حقق في معناه ودقق في مراده وجده ذماً وسخراً .

ومن ذلك أيضاً أن أحدهم كان يقول ساخراً لبعض الناس : أنت مطبوع ألوف مطواع . يظهر له المدح وهو يكني به عن الكلب ؛ لأنه ليس في الحيوان ألف منه (٤) .

(١) المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء ٣ ، ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) انظر المرجع السابق ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء ٦٨ .

(٤) المرجع السابق .

والسخر بالكناية والتعريض أوقع في نفس المهجو « لأن في الإظهار تحديداً للمراد وقصراً للغاية ، وفي الإطلاق اتساعاً للخيال وسعة في التحليق والظن » (١) .

وربما استخدم الهجاء والساخر الكناية والتعريض حتى يسلم من عواقب هجائه وسخره خصوصاً إذا كان المهجو ذا مكانة أو سطوة أو سلطان فيلجأ إلى الكناية والتعريض .

وقد اشتهر عند العرب بعض الهجاء الذي قيل في ذم قبيلة أو أفراد فاشتهرت تلك الألفاظ والأشعار وسارت بين الناس فحفظوها « ولذلك تجنب الأشراف مازحة الشعراء خوف لفظة تسمع منهم مزحاً فتعود جداً » (٢) كما قال دعبل : (٣)

لا تعرضنَّ بمزح لا مرئى طبن ماراضه قلبه أجراه في الشفه
فرب قافية بالمزح جاريفة في محفل لم يرد إنماؤها غت
إني إذا قلت يتامات قائله ومن يقال له ، والبيت لم يمت

ومن ألفاظ الهجاء التي اشتهرت كلمة كانت تعير بها قريش وهي (سخينة) وهي حساء أو طعام رقيق ، وقيل إن قصياً كان إذا ذُبحت ذبيحة بمكة أتى بعجزها فصنع منها خزيرة - وهي لحم يطبخ ببر* - فيطعمه الناس ، فسميت قريش بها سخينة (٤) .

وقيل إن أول من عير قريشاً ولقبها بذلك خدأش بن زهير حيث يقول : (٥)

(١) الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية ٣١٩ .

(٢) العمدة ١/ ١٧٤ .

(٣) المرجع السابق ١/ ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٤) المرجع السابق ١/ ١٧٣ .

(٥) المرجع السابق .

ياشدة ما شددنا غير كاذبةٍ على سخينة لولا الليلُ والحرمُ

فسارت هذه على ألسنة الناس حتى كان بعضهم ربما كنى عن هذا اللفظ المشتهر حين يريد غمز قريش أو السخرية بقرشي ، كما حدث بين معاوية رضي الله عنه والأحنف بن قيس التميمي ، حين قال له معاوية : ما الشيء الملفف بالبجاد ؟ فقال له : السخينة ! أراد معاوية قول الشاعر :

إذا ما مات ميت من تميم فسرك أن يعيش فجئ بزاد

بخبز أو بلحم أو بتمر أو الشيء الملفف في البجاد

وكانت تميم تعبر بهذا ، والشيء الملفف بالبجاد هو وطب اللين أي سقاء اللين (١).

ومن ذلك أن رجلاً من بني محارب دخل على عبد الملك بن يزيد الهلالي بأر مينة وهو واليها فقال عبد الملك : ماذا لقينا الليلة من شيوخ بني محارب ما تركونا ننام ! وعنى بذلك الضفادع ، وأشار لقوله :

تكش بلا شيء شيوخ محارب وما خلتها كانت تريش ولا تبري

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر

فرد عليه المحاربي سخريته هذه بما هو أشد منها حيث قال : إنهم أضلوا برقعاً البارحة فكانوا ييغونه . فأشار لقول الشاعر : (٢)

لكل هلالٍ من اللؤم برقع ولا بن يزيد برقعٌ وجلال

(١) العمدة ١/ ١٧٤ .

(٢) كنايات الأدباء ٧٢ ، ٧٣ .

ومن هذه الكنايات الساخرة مايروي أن سناناً النمري كان يماشي عمرو بن هبيرة
الفزاري وهو على بغلة فتقدمت ، فقال عمرو : غض من بغلتك . فقال النميري :
أصلح الله الأمير إنها مكتوبة . أراد ابن هبيرة قول جرير :

فغض الطرف إنك من غير . فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وأزاد سنان النميري قول ابن دارة :

لا تأمن فزاريا خلوت به على قلوصلك واكتبها بأسيار

والأصل في الثاني أن بني فزاراة كانت تعير بإتيان الإبل (١)

ويقال إن أهجى بيت هجيت به قبيلة وفيه مافيه من الكنايات قول الأخطل في بني
يربوع رهط جرير : (٢)

قوم إذا استبح الأضياف كلهم قالوا لأهمهم : بولي على النار

وكان أهجى بيت لأنه جمع فيه ضرورياً من الهجاء : فنسبهم إلى البخل بوقود
النار لثلا يهتدي بها الضيفان ، ثم البخل بإيقادها للسايرين والسابلة ، ورماهم بالبخل
بالخطب ، وأخبر عن قلتها ، وأن بولة تطفئها ، وجعلها بولة عجوز ، وهي أقل من بولة
الشابة ، ووصفهم بامتهان أهمهم وابتذالها في مثل هذه الحال ، فدل بذلك على العقوق
والاستخفاف ، وعلى أن لا خادم لهم ، وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء (٣) .

ومن فوائد الكناية وأغراضها التحرز عن ذكر الفواحش السخيفة بالكنايات
اللطيفة ، وإبدال ما يفحش ذكره في الأسماع بما لا تنبو عنه الطباع (٤) والشاعر الساخر

(١) المنتخب من كنايات الأدباء ٧٤ .

(٢) العمدة ٢ / ٨٥٣ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المنتخب من كنايات الأدباء ٣ .

يحاول دائماً أن يتلمس أفضل السبل وأشدّها إيلاماً ، ويحاول أن يبتعد عن الفحش الظاهر ، فيعرض ويكني ولا يصرح في كثير من الأحيان ؛ لأن هذا التعريض ربما كان أشد وقعاً وإيلاماً وأكثر ذيوماً وانتشاراً ، فلكني يجد الساخر لقوله رواجاً ينبغي عليه أن يبتعد عن الألفاظ التي يظهر فيها الفحش فيكني عنها ، « ولذلك يستحب في الهجاء أن لا يكون ظاهره فحش يتحماه ذوو الدين والمروءة ، ولا يقبح إirاده في المحافل ولا يخشى غائلة الهجوه به » (١) .

واستعمل الشعراء كثيراً من الكنايات التي حاولوا باستخدامها أن يبتعدوا عن الفحش الظاهر ، فكنوا في سخرهم وهجائهم بألفاظ اشتهرت عندهم ، من ذلك أنهم كنوا عن المرأة الفاسدة (برقة الحافر) ومنه قول جحظة البرمكي : (٢)

أصبحت في معشر شنيئتهم	فرض من الله لازم واجب
منهم صديق عرسه عجب	إذا تأملت أمرها عاجب
تحسبها حرة وحافرها	أرق من شعر خالد الكاتب

فكنى عن هجائه لهذه المرأة برقة حافرها ، واستطرد إلى السخرية من شعر خالد الكاتب ، وكان رجلاً يعير برقة وبرود شعره .

وتقول العامة في الكناية عن ذلك أيضاً (فلان يستفرخ في برجه) أي فاسد النساء ، قال ابن الرومي : (٣)

أنت يا شيخ نائم فتبه	وانتصحتني فلست من غشاشك
لك أنثى تريف في كل برج	وتربي الفراخ في أعشاشك

(١) جوهر الكثر ٣١٠ .

(٢) المنتخب من كنايات الأدباء ١٢ .

(٣) المرجع السابق ١٢ ، ١٣ .

ويكنون عن الابن غير الشرعي (بابتن مطفئة السراج) قال الأقيشر الأسدي وقد سماه رجل بلقبه : (١)

أدعوني الأقيشر ذاك اسمي وأدعوك ابن مطفئة السراج
تاجي خدنها بالليل سرا ورب الناس يعلم ماتتاجي

ولاشك أن هذا كله فحش وسباب وإن جاء في صورة الكناية وترك الشاعر فيه سبيل التصريح وسلك طريق الكناية ، لأن الغاية التي يوصل إليها واحدة ، وإن كان بعض النقاد يرى أن التكنية عن المعنى - وإن أفحش - مقبولة غير معيبة ، حيث يرى بعضهم أن أبيات امرئ القيس : ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع . وقد عييت من جهة الفحش ، ولو استعار لمعناه الفاحش لفظ الكناية لسلم من العيب (٢) .

ومن الكنايات الساخرة ماجرى مجرى الأمثال ، وهذا كثير جارٍ في كلام العرب « وأكثر أمثالهم الفصيحة على مجاري الكنايات » (٣) من ذلك قولهم « عريض القفا » يقصدون أنه غبي ، لأن عرض القفا كناية عن الحمق ، وفي ذلك يصف أحد الشعراء بعض خصومه فيقول :

عريض القفا ميزانه في شماله قد انحص من حسب القرايط شاربه

فقوله (عريض القفا) كناية عن الحمق ، وقوله (ميزانه في شماله) كناية عن البله ، و (انحص من حسب القرايط شاربه) كناية عن البخل والشح والبلادة فهو دائم التنف لشاربه والعض لشفتيه عند الحسب والعد (٤) .

(١) المنتخب من كنايات الأدباء ١٣ .

(٢) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب ٢/ ٢٦٤ ، وتحرير التحبير ١٤٤ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ٢/ ٣٠٠ .

(٤) تفسير الكشاف ١/ ١١٦ .

(٥) انظر الأسلوب الكنائى نشأته وتطوره وبلاغته ، د. محمود شيخون ٧١ .

والكناية عند ابن قتيبة أنواع ، ولها مواضع : منها أن تكني عن اسم الرجل بالأبوة (١) وربما كانت هذه الكنية مشعرة بالذم كما في قوله تعالى : «تبت يدا أبي لهب وتب» (٢) ومعلوم أن اسم أبي لهب هو عبدالعزى ، ولكن العدول عن ذكر هذا الاسم إلى ذكر الكنية فيه كما يرى الزمخشري وغيره ثلاثة أوجه كلها مشعرة بالذم والإهانة ، ذلك أن هذه الكنية وافقت حاله إذ أن ماله إلى نار ذات لهب ، كما يقال للشير أبو الشر ، أو أنه أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ، وقيل كني بذلك لتلهب وجنتيه وتوقدهما (٣) فيجوز أن يذكر بذلك ذماً له وتهكماً به وبافتخاره بذلك .

وكان بعض الشعراء يحلو له أن يكني بعض مهجويه بكنى يخترعها بنفسه ويؤلفها ليسخر منهم ، من ذلك ما كان يفعله المتنبي مع بعض خصومه ، فنراه مثلاً يكني كافور الأخشيدي (بأبي البيضاء) فيقول : (٤)

ما كنت أحسبني أبقى إلى زمن يسيء بي فيه كلبٌ وهو محمود
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا وأن مثل أبي البيضاء موجود

يقول العكبري معلقاً على هذه الأبيات : « وكناه بأبي البيضاء سخريه به » (٥).

وكان ابن الرومي أيضاً مولعاً بمثل هذه الكنى الساخرة ، فنراه يكني إسماعيل ابن بلبل (بأبي الصقر) (٦) وأناى للبلبل أن يكون أباً للصقر ، لا يكون ذلك إلا في عبث ابن

(١) تأويل مشكل القرآن ٢٥٦ .

(٢) الآية (١) من سورة المسد .

(٣) انظر تفسير الكشاف ٤/ ٢٤٠ ، ٢٤١ ، وشرح المطول للسيالكوتي ١٤٠ .

(٤) ديوان المتنبي ٤٣/ ٢ ، ٤٤ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) ديوان ابن الرومي ١/ ٢٠١ .

الرومي وسخره حين يطعن في نسب ابن بلبل وأصله فيقول : (١)

جدك شيان العظيم الفخر

حقاً كما البلبل جد الصقر

نجر لعمرى بائن من نجر

ويفتن ابن الرومي في استعمال الكنى الساخرة فلا يتعب نفسه أحياناً في ابتداعها بل يعمد إلى كنية مهجوه فيشوهرها كما فعل مع أبي حفص الوراق ، حين حرف كنيته إلى (أبي حفصل) ثم أخذ يناديه بهذه الكنية المحرفة ويعبث بها وبصاحبها ، وذلك كما في هذه القصيدة الساخرة التي يقول في مطلعها : (٢)

وقائل : إن أبا حفصل أحقق محتاج إلى ضرب

ومما سبق يتضح جلياً أن أسلوب الكناية من الأساليب البيانية التي تساق لأغراض عديدة منها السخرية والتهكم ، وأن استخدامها في ذلك قد شاع وذاع حتى أصبح ظاهرة واضحة وعلامة بارزة في الأدب العربي شعره ونثره .

ويتضح أن اختيار الكناية أسلوباً للذم والسخر يضيف على القول قوة وجده ، ويجعل النفس دائمة التعلق به ، ويجعل هذا السخر حياً نابضاً ماثلاً للعيان ، إذ التعريض والكناية تشغل النفوس بالتدقيق فيها والتروي في معانيها .

(١) ديوان ابن الرومي ٣/ ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ١/ ٣١١ .

الفصل الثالث

السخرية في أساليب علم البديع

ويشمل

- الاستطراء الساخر .
- المبالغة الساخرة .
- السخرية والمجاء في معرض الدج .
- الإبهام الساخر .
- السخرية في الهزل الذي يراء به الجد .
- التجاهل الساخر .
- التعميم .
- الاقتباس والتضمين الساخر .

الاستطراد الساخر

والاستطراد من تلك الأساليب البديعية التي تصنف في المحسنات المعنوية ، وله علاقة وثيقة بالسخرية إذ هو يصلح أن يكون أسلوباً طريفاً من أساليبها .

وهو لغة : مصدر استطرد الفارس من قرنه في الحرب ، وذلك أن يفر من بين يديه يوهمه الانهزام ثم يعطف عليه على غرة منه ، وهو ضرب من المكيدة .

وفي الاصطلاح : أن تكون في غرض من أغراض الشعر توهم أنك مستمر فيه ثم تخرج منه إلى غيره لمناسبة بينهما ثم ترجع إلى الأول وتقطع الكلام ، ويشترطون فيه التصريح باسم المستطرد به والرجوع إلى الكلام الأول وقطع الكلام بعد المستطرد به (١) .

ومع أن معظم من كتبوا في الاستطراد يكادون يجمعون على تعريف واحد له (٢) إلا أن بلاغيا مثل ابن المعتز يسميه حسن الخروج من معنى إلى معنى (٣) بينما يرى العسكري أنه يقرب من باب حسن الخروج فلا يشترط فيه شرطاً ، ويرى أن له ضرباً آخر يوهم المتكلم فيه بالزهد وهو يريد غير ذلك (٤) .

والفرق بين الاستطراد والتخلص أشار إليه بعض البلاغيين ، يقول ابن حجة بعد تعريفه السابق للاستطراد : « وهذا هو الفرق بينه وبين التخلص ، فإن الاستطراد يشترط

(١) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب ١٠٢/١ .

(٢) انظر مثلاً العمدة ٦٢٨/١ ، والصناعتين ٤٤٨ ، وعروس الأفراح ٣١٥/٤ ، وأنوار الربيع ٢٢٨/١ ، وتحرير التحبير ١٣٠ ، والطراز ١٢/٣ ، ومنهاج البلغاء ٣١٦-٣١٨ ، والمصباح ٢٣٤ .

(٣) انظر البديع ٦٠ .

(٤) انظر الصناعتين ٤٤٨ ، ٤٥١ .

فيه الرجوع إلى الكلام الأول وقطع الكلام بعد المستطرد به ، والأمرا ن معدومان في المخلص ، فإنه لا يرجع إلى الأول ولا يقطع الكلام بل يستمر إلى ما يخلص إليه» (١) فالاستطراد خروج ثم عود أما التخلص فهو تمادي (٢) لأنك حينما تستطرد تستطرد فتذكر ماتريد ذكره وكأنك غير قاصد لذكره بالذات ، بل قد حصل ووقع ذكره بالعرض من غير قصد ، ثم تدعه وتتركه وتعود إلى الأمر الذي كنت فيه كالمقبل عليه وكالمغني لما استطردت بذكره (٣) بينما حقيقة الأمر أنك قصدت هذا الخروج ولكنك أردت أن يبدو سريعاً غفلاً من غير قصد ، تصيب به غرضاً ثم تعود إلى ما كنت فيه وكأن شيئاً لم يكن وكأنه جاء عفواً بينما أنت لم تقصد قصدك حقيقة إلا إليه (٤) .

وينسب القرطاجني إلى أهل البديع أنهم يسمون ما كان الخروج فيه بتدرج تخلصاً وما لم يكن بتدرج ولا هجوم ولكن بانعطاف طارئ على جهة الالتفات استطراداً (٥) .

فالاستطراد لا يكون التخلص فيه بتدرج وانتقال من الشيء إلى ما يناسبه ويشبهه ولكن « بالفتات الخاطر حيزاً من حيز ، وملاحظته طرفاً من طرف ، فيعطف إلى ما يريد التخلص إليه بما يكون مناقضاً له أو مخالفاً أو شك انعطاف ، من غير مقدمة تشعر بذلك أو واسطة تنظم بين الطرفين ، ولكن بالخروج من أحدهما والتخلي عنه دفعة إلى الآخر على جهات من المآخذ » (٦) .

وهذا الخروج ينبغي أن يكون له وجه « وذلك بأن يلاحظ في المتخالفين صفة يجتمعان فيها من حيث لا يشعر فيكون ذلك طريق النقلة من أحدهما إلى الآخر على

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١٠٢/١ .

(٢) انظر الطراز ١٢/٣ .

(٣) أنوار الربيع ٢٢٨/١ .

(٤) انظر العمدة ٦٣١/١ .

(٥) منهاج البلغاء ٣١٦ .

(٦) المرجع السابق ٣١٩ ، ٣٢٠ .

سبيل تشبيه أو محاكاة ، أو بأن يضرب عن أحدهما في مقصد ويعتد بالآخر فيه ، أو بأن يسلب عن أحدهما ما أوجب للآخر ، وقد يكون المأخذ في ذلك على غير هذه الأنحاء» (١) .

وهذا الفن دقيق المسلك يضيفي على الكلام طرافة وجدة ، وينقل نظر المتلقى من معنى إلى آخر يلفته إليه لفظة سريعة ثم يعيده إلى ما كان فيه وقد حقق غرضه من تلك اللفظة وأصاب هدفه من تلك اللمحة ، لذلك كانت هناك أمور يجب اعتمادها عند تعاظم هذا الفن ، منها التحرز من انقطاع الكلام ، ومن التضمين ، والحشو ، والإخلال واضطراب الكلام ، وقلة تمكن القافية ، والنقلة بغير تلطف ، والاضطرار في ذلك إلى الكناية عما يجب التصريح به والإبانة عنه ، والتلطف في ما يوقع الكلام أحسن مواقعه ويجريه على أقوام مجاريه من أضداد هذه الأشياء ، ومما يجب أيضاً اعتماده أن يجهد في تحسين البيت التالي لبيت التخلص ، حتى يصل به ما انقطع من معنى ، فلا يظهر اختلال في نسق الكلام ، فإن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن مشابه له ومتقلبة من معنى إلى معنى مناسب له ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما ، وجدت الأنفس في طباعها نفوراً من ذلك ونبت عنه (٢) .

ويكون الاستطراد في المدح كما يكون في الهجاء ، ولكنه في الهجاء أشهر وأكثر وقوعاً ، وهو باب واسع من أبواب السخرية وأسلوب فذ من أساليبها ، لذلك نرى الزركشي يعرفه بقوله : « هو التعريض بعيب إنسان بذكر عيب غيره » (٣) ، فالاستطراد عنده تعريض ومعايبة مع أنه يمكن أن يستطرده إلى غيرهما من المعاني إلا أن قوله ذلك فيما

(١) منهاج البلغاء ٣١٩ ، ٣٢٠ . .

(٢) انظر المرجع السابق ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٠٠ .

يبدو من قبيل التغليب « ذلك لأن الاستطراد أكثر مايجيء في الهجاء » (١)، فهو لمحة سريعة والتفاتة خفيفة يقضي بها الشاعر وطراً ثم يعود إلى ماكان فيه ، وهذا الملح والسرعة والالتفات أحد عناصر قوة السخرية ، لذلك كان هذا الفن والأسلوب باباً عظيماً من أبواب السخرية ، بينما يكون الشاعر آخذاً في معنى إذ به يفاجيء الجميع بالتفاتة سريعة أشبه ماتكون بالصق الكهربائي أو انقضاض البازي يصيب بها خصماً أو ينكي بها عدوا ، ثم هو مع ذلك يتظاهر بأنه لم يقصد هذا الالتفات وحقيقة الأمر أنه ربما لم ينظم القصيدة إلا من أجل ذلك .

وعنصر المفاجأة والتحول السريع هنا له دور كبير في إضفاء القوة على هذه السخرية ، وبإظهار الساخر في صورة المتعالي المترفع الذي لم يقصد السخرية من خصمه بل قعد الخصم في طريق قافيته ، ثم إن ذلك الهجاء وتلك السخرية يوردها الساخر وكأنها شيء مسلم به مما يضفي عليها قوة ادعاء تجعلها تبدو للقارئ صفة لازمة للمسخور منه .

ومما يزيد هذه السخرية أيضاً قوة ونكاية - مع اصطناع التغافل - التصريح باسم المستطرد إليه والمسخور منه ، ومفاجأته بهذا الالتفات والتصريح (٢) ، فيقفى البيت بهذا الاسم الصريح ، أو يكون في تضاعيفه ، وكلما أمكن وضع هذا الاسم في القافية كان أحسن موقعاً من النفس (٣) .

وقد أدرك بعض الشعراء ذوي المواهب الجليلة ، الذين يحسنون تصريح الكلام واستغلال كل كلمة أو لفظة في النيل من خصومهم والسخرية بهم أدركوا ما للاستطراد إلى السخرية من أثر قوي على خصومهم ، فضمنوه شعرهم بل وافتنوا فيه وتفكهوا به في

(١) انظر المصباح ٢٣٤ ، وشرح عقود الجمان ١٤٦/٢ ، وخزانة الأدب وغاية الأرب ١٠٢/١ وتحرير التحبير ١٣٠ .

(٢) تحرير التحبير ١٣٠ ، وخزانة الأدب وغاية الأرب ١٠٢ .

(٣) انظر منهاج البلغاء ٣١٨ ، ٣٢٠ .

مجالسهم ، أنشد أبو تمام البحتري يوماً لنفسه في صفة فرس واستطرد يهجو عثمان بن إدريس الشامي : (١)

وسابح ، هطل التعداء هتان على الجراء أمين غير خوان
أظمي الفصوص ، وما تظمي قوائمه فخل عينيك في ظمآن ريان
لو تراه مشيحاً ، والخصى زيم تحت السنايك من مشى ووحدان
أيقنت - إن لم تثبت - أن حافره من صخر تدمر ، أو من وجه عثمان
ثم التفت إلى صاحبه فقال : أتدري ما هذا من الشعر ؟ قال : لا أدري ، قال :
هذا الاستطراد ، أو قال : المستطرد (٢) .

فما وجه عثمان هذا ، وما الذي جاء به في هذا المكان ، إنه امتهان الشاعر لهذا الوجه ، وعبثه به .

وسلك البحتري هذا المسلك فقال يستطرد إلى السخرية من حمدوية الأحول : (٣)

وأغر في الزمن البهيم محجل قد رحت منه على أغر محجل
كالهيكل المبني إلا أنسه في الحسن جاء كصورة في هيكل
يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت صيداً ، ويتصبب انتصاب الأجدل
ما أن يعاف قذى ولو أوردته يوماً خلّاق حمدوية الأحول

(١) العمدة ١/٦٢٩ .

(٢) العمدة ١/٦٢٩ ، ٦٣٠ .

(٣) ديوان البحتري ٣/١٧٤٠ ، ١٧٤١ .

فمن هذا الأحوال العسر الذي قعد في طريق القافية ، ثم انظر إلى براعة هذا الشاعر وسرعة التفاته ليسخر من هذا الذي كان خصماً لمدوحه ، فبينما هو يصف فرساً إذا به يلتفت إلى هجاء خصمه والسخرية منه بشكل يظهر هذه السخرية وكأنها أمر مسلم يمثل به ، وكأنه هو لم يقصد لذلك ولا أرادته وإنما جرت القافية « ولو أقسم إنسان أنه ما بنى القصيدة منذ افتتاحها إلا على ذكره ولذلك أتى بها على روي اللام ، لكان صادقا » (١) .

ومن أول أمثله قول السموءل : (٢)

ونحنُ أناسٌ ، لا نرى القتلَ نُبَّةً إذا ما رأتهُ عامرٌ وسَلُولُ

فمدح نفسه وقومه ، واستطرد إلى هجاء عامر وسلول .

ومنه قول جرير :

لما وضعتُ على الفرزدقِ مِسْمِي وَضَعًا الْبَعِثُ ، جدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ

فهجا واحداً واستطرد باثنين (٣) .

ويروى أن الفرزدق وقف على جرير بالبصرة وهو ينشد قصيدته التي هجا فيها الراعي ، فلما بلغ إلى قوله :

(بها برصٌ بأسفل أسكتيها)

وضع الفرزدق يده على فيه ، وغطى عنقه ، فقال جرير :

(١) انظر أنوار الربيع ٢٢٩ / ١ .

(٢) العملة ٦٢٨ / ١ .

(٣) المرجع السابق .

(كعنفة الفرزدق حين شابا)

فانصرف الفرزدق وهو يقول : اللهم أخزه ، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير هذا ، ولكنني طمعت أن لا يأتي به ، فغطيت وجهي ، فما أغنى ذلك شيئا ، ويقال إن جريراً ما فطن لهذا المصراع إلا حين غطى الفرزدق عنفقه (١) .

ولبشار يسخر من أحمد بن هشام فيستطرد إلى ذكر عيه : (٢)

فما ذر قرن الشمس حتى كأننا من العي نحكي أحمد بن هشام

ومنه قول ابن المعتز يسخر من شعر ابن سعيد : (٣)

ولقد شربت مدامة كرخية مع ماجد طلق الدين حميد

علت بجاء بارد فكأنها علت ببرد قصيدة ابن سعيد

فبينما يصف الشراب ومجلسه إذ به يجد مناسبة يسخر فيها من خصمه فيستطرد إلى ذكر شعره الذي بدا فيه البرود وكأنه صفة أصيلة يشبه بها ، فهذا الادعاء وتلك الالتفاتة السريعة إلى قصيد ابن سعيد وعنصر المفاجأة ، كلها مقومات تجعل لهذه السخرية وقعا طريفاً في نفس القارئ ، وأليماً في نفس ابن سعيد .

ويبدو أن برود بعض الشعراء أغرى غير ابن المعتز بالسخرية به ، فأخذ يستطرد

قائلاً : (٤)

(١) معاهد التنصيص ٣٨٢/١ .

(٢) الصناعتين ٤٥٠ .

(٣) البديع في نقد الشعر ، لابن منقذ ١٢٤ .

(٤) المرجع السابق .

وشادن بالدلال عابني ومُنيتي في تدلُّ العاتب
وكان ردِّي عليه من خجلي أبرد من شعر خالده الكاتب (*)

وللسري الرفاء (**) في برود بعض الشعراء استطرادات ساخرة جميلة
يقول: (١)

لنا روضة بالدار صيغ بزهرها قلائد من حلّي الندى وشُوفُ
يطيف بنا فيها إذا ماتبسمت نسيم كعقل الخالديّ ضعيف
وماء، حكى أشعار حمدٍ بروده ولكنه يُخيّ، وتلك حُوفُ

استطرادات عجيبة ، فهذه الروضة الجميلة يطيف بها النسيم اللطيف الذي لا يدانيه في لطفه وضعفه ورقته إلا عقل الخالدي ، ويسري فيها الماء البارد الذي لا يشبهه في بروده إلا شعر حمد إلا أنه ماء حياة أما شعر حمد فزمهرير يمت النفوس ، انظر كيف استطرد إلى السخرية من عقل الخالدي وشعر حمد بينما هو يصف تلك الروضة الغناء .

والاستطراد يمكن أن يخرج إلى معان كثيرة ، ولكنه في الهجاء والسخرية أشهر وأكثر شيوعاً ، لذلك رأينا - كما سبق - بعض العلماء يجعله تعريضاً بالعيوب ، لأن الاستطراد أكثر مايجيء في الهجاء .

(*) خالد بن يزيد ويكنى أبا الهيثم . من أهل بغداد وأصله من خراسان اتصل بعلي بن هشام وإبراهيم ابن المهدي ، كانت بينه وبين بعض معاصريه من الشعراء مهاجاة مشتهرة ، وسوس في آخر عمره . الأغاني ٢٠ / ٢٧٤ .

(**) السري بن أحمد بن السري المعروف بالسري الرفاء ، شاعر مشهور ، مدح سيف الدولة والوزير المهلب ، توفي ببغداد سنة ٣٦٢ هـ . معجم الأدباء ١١ / ١٨٢ .
(١) البديع في نقد الشعر ١١٩ .

المبالغة الساخرة

المبالغة من الفنون البديعية التي كثر جدل النقاد والبلاغيين حولها « فالناس فيها مختلفون منهم من يؤثرها ويقول بتفضيلها ، ويراهها الغاية القصوى في الجودة ، ومنهم من يعيها وينكرها ويراهها عيباً وهُجْنة في الكلام » (١) .

والرأي الوسط في هذه المسألة ، والذي عليه أكثر علماء البلاغة المتأخرين ، أنهم يقبلون أنواع المبالغات كلها من تبليغ وإغراق ، أما الغلو فإنهم يقبلون منه ما اقترن به ما يقربه من الإمكان ، مثل : كاد ولو وما أشبههما ، أو ماتضمن نوعاً حسناً من التخيل أو ما كان خارجاً مخرج الهزل (٢) .

يذكر ابن رشيقي عدداً من المبالغات يصفها بأنها من أحسن المبالغات وأغربها ويستجيدها ولا يرى فيها إحالة للمعنى ثم يعقب بقوله : « فأما الغلو فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ويقع فيه الاختلاف لا ماسواها مما بينت ، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه ، وعيبت الاستعارة إلى كثير من محاسن الكلام » (٣) .

ومما يدل على قبول هذا الأسلوب جريانه وشيوعه حتى أصبح ظاهرة أسلوبية «شاع التعليل بها في تراثنا النقدي والبلاغي شيوعاً ضم الكثير من الصور البيانية من تشبيه ومجاز ، واستعارة ، وكناية ، والكثير من تنوع الأساليب من تقديم ، وأمر ، ونهي ونداء واستثناء ، والكثير من صور التوكيد ، وشمل كثيراً من أبواب البديع » (٤)

(١) انظر العمدة ١/٦٤٩ ، ٦٥٠ .

(٢) علوم البلاغة ، للمراغي ٣١٣ - ٣١٦ .

(٣) العمدة ١/٦٥٢ .

(٤) انظر المبالغة في البلاغة العربية تاريخها وصورها ، عالي القرشي ٢٩٥ .

والمبالغة هي أن يدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً ، لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف (١) .

وأنواعها ثلاثة : (٢)

أولها : التبليغ ، وهو إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة .

أما النوع الثاني فهو الإغراق ، وهو وصف الشيء الممكن البعيد وقوعه عادة .

أما الثالث ، فهو الغلو ، وهو وصف الشيء بما يستحيل وقوعه .

وتجيء المبالغة بأساليب وطرق كثيرة ، منها : صيغ المبالغة القياسية المعروفة :

فعال ، ومفعال ، وفعلول ، وفعليل ، وفعل ، والتي نظمها ابن مالك في ألفيته (٣) .

ومنها الصور البيانية من تشبيه ، ومجاز ، وكناية ؛ لأنه لا يعدل عن الكلام المجرد إلى التشبيه ولا عن الحقيقة إلى المجاز ولا عن التصريح إلى الكناية ، إلا لأغراض لا تؤديها هذه الأصول .

ومنها ترادف الصفات ، كما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا

إليه وفي ءاذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عملون ﴾ (٤) .

ومن هذه الأساليب ، تلك المعاني المخترعة التي تجود بها قرائح الشعراء ، وذوي الفطن .

ومنها الإيغال وهو ضرب من المبالغة إلا أنه في القوافي خاصة ، عرفه الأصمعي

(١) الإيضاح ٣٥٨/٤ ، ٣٥٩ .

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب ٨/٢ .

(٣) انظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١١١/٣ .

(٤) الآية (٥) من سورة فصلت .

بأنه ما يعمد إليه الشاعر عند انقضاء كلامه وقبل القافية ، فيستكمل بها بيته ويفيد بها معنى بديعاً (١) .

ومن أساليبها في علم البديع ، حسن التعليل ، وتجاهل العارف ، وتأکید المدح بما يشبه الذم (٢) .

والسخرية سبيلها المبالغة في إظهار العيوب والنقائص ، وتضخيمها وتكبيرها لالتقاط صورة مشوهة ومضحكة للمهجور ، تقوم هذه السخرية على المغالطة التركيبية المتخيلة للشخصية المهجوة أو المظهر الذي يراد انتقاده والسخرية منه . فالسخرية نوع من النقد يعتمد على المبالغة في تصوير العيب أو النقص ، ويبرز وجه التناقض على شكل مضحك . وهذه المبالغة في تضخيم العيوب وتشويه الصورة لا تتعارض مع الصدق الفني لدى الشاعر . وغلو الشاعر في السخرية وسيلة يتوسل بها للتعبير عن الأفكار التي تكاملت في ذهنه ، فالأسلوب الساخر يراد به كل نتاج يعمد إلى كتابة موضوع جدي بمنوال ساخر وذلك بالمبالغة ، والغلو في العرض ، ولا يراد السخر أو التهكم لذاته وإنما كان وما يزال طريقاً فنية معبرة يستخدمها الشاعر للإعلان عما تضخم في نفسه من أفكار وخواطر (٣) .

إن مقام الهجاء والسخرية اللاذعة يستدعي توفير أشنع صفات الذم للمذموم والمبالغة فيها حتى تكون السخرية أوجع ، وبمقياس المبالغة في صفات الذم تقاس السخرية علواً وإيجاعاً وقوة وإحكاماً (٤) .

(١) انظر العمدة ١/٦٥٤ ، والصناعتين ٤٢٢ .

(٢) انظر المبالغة في البلاغة العربية تاريخها وصورها ٢٦٣ - ٢٨٥ .

(٣) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦١ .

(٤) الصبغ البديعي ٤٨٥ .

وتتسع معاني الهجاء والسخرية للمبالغة والمغالاة فهما من الفنون التي تكون المبالغة في معانيها أمراً ليس مقبولا فحسب ، بل مطلوبا عند كثير من الساخرين ، فهذا جرير يوصي بنيه فيقول : إذا هجوتم فخالقوا ، ويقول : إذا هجوت فأضحك (١) فالمخالفة والإضحاك سبيلها المبالغة والإفراط في رسم الصور المضحكة . والسخرية شأنها في ذلك شأن بقية الفنون كالمدح والغزل مثلا ، فكثير من المديح بعيد عن الحقيقة ولكنه صورة للنموذج الذي يتخيله الشاعر في مدوحه الفاضل الكامل ، وكثير من الغزل فيه مغالاة ، ولكننا نتقبلها لأنها تعبر عن المعاناة التي يصورها لنا المحبون العاشقون فهؤلاء يبالغون تأكيداً لمعانيهم وتوضيحاً لها . ويحاول الساخر أن يسلب كل المثل والقيم الكريمة الفاضلة في مهجوه ، رامياً له بعيوب الدنيا كلها إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، يصدر في ذلك عن غضب وسخط وربما عن حقد أيضا ، وهذا كله يدفعه إلى أن يبالغ ويغالي فيما يرمي به مهجويه من رذائل ونقائص في مظهرهم أو مخبرهم وفي شكلهم أو باطنهم (٢) .

وهذه المبالغات التي تتبين للقارئ تستساغ حين يقدمها الشاعر في إطار فيه جمال وإحكام ، حتى وإن أفرطت في المبالغة ووصلت إلى حد الغلو ، خصوصا إذا أخرجت مخرجا يقربها من الإمكان أو تضمنت نوعاً حسناً من التخيل ، أو كانت خارجة مخرج الهزل والسخرية (٣) فإن الساخر لا يعبأ أن يعبت بمهجوه فيبالغ في تشويهه ورميه بكل نقیصة بل ويغلو في ذلك ويذهب إلى أبعد ما يمكن أن تسول له نفسه التي تحاول أن تشفى ما بداخلها ، فإن لم تبلغ الغاية ظلت تبحث عنها ، وفي قصة جرير حين هجا الراعي

(١) انظر العمدة ٢/ ٨٤٩ .

(٢) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

(٣) انظر علوم البلاغة ٣١٥ ، ٣١٦ .

النميري خير مثال ، حيث ظل يدور في بيته كالمجنون يقرض البيت تلو الآخر حتى إذا ما بلغ قوله : « فغض الطرف » استراح لأنه أحس أنه قد شفى ما بنفسه (١).

ومع اختلاف النقد القدامى في نظرهم إلى هذا الأسلوب ، إلا أننا نجد كتب الأدب والنقد مليئة بالأمثلة التي اتخذت من المبالغة سبيلاً إلى السخرية ، بل إننا نجد بعض أولئك النقاد قد أفرد للمبالغة باباً أو فصلاً في مؤلفه ، كما فعل قدامة في نقد الشعر وأبو هلال العسكري في الصناعتين ، وابن رشيق في العمد ، ولم أقصد استقصاء كل كتاب أفرد للمبالغة باباً أو فصلاً ، إنما أردت أن أؤكد أن هذا الأسلوب قد نال حظاً غير قليل من العناية والرعاية .

وسوف أنظر في الأمثلة التي أوردها قدامة وأبو هلال العسكري في كتابيهما وتعليقاتهما على هذه الأمثلة .

فقدامة أفرد فصلاً في كتابه نقد الشعر للمبالغة ، وحدها بقوله : « وهي أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ في ما قصد له » (٢) .

ولكن تطبيق هذا الحد على المبالغة يخرج منها ما يدل على المبالغة ابتداءً ، إذ إن قدامة في حده هذا يبين أنها تأتي تنمة أو تكملة بعد ذكر الشاعر الحال المجزية في المعنى ولهذا لا يدخل ما حمل المبالغة ابتداءً في هذا الحد ، وهذا يتضح من خلال الأمثلة التي مثل بها لمفهوم هذا الحد (٣) .

(١) انظر العمد ١/ ١٢٦ .

(٢) نقد الشعر ١٤١ .

(٣) انظر المبالغة في البلاغة العربية تاريخها وصورها ٣٣ .

فمن أمثلته التي جاء الأسلوب فيها مبالغة ساخرة ، قول الحكم الخضري(*) : (١)

وأقبح من قرد ، وأبخل بالقرى من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف

يعلق قدامة على هذا البيت بقوله : « فقد كان يجزئ في الذم أن يكون هذا المهجو أبخل من الكلب ، ومن المبالغة في هجائه قوله (وهو غرثان أعجف) . الغرثان : الجائع والأعجف : النحيف الذي ذهب سمته ، فالكلب بخيل على ما ظفر به ، وهو أشد بخلاً إذا كان جائعاً أعجف (٢) .

ومن ذلك أيضاً قول أوس بن غلفاء الهجيمي(**) : (٣)

وهم تركوك أسلح من حبارى رأيت صقراً ، وأشرد من نعام

ففي قوله : رأيت صقراً ، مبالغة (٤) .

وفي فصل آخر سماه قدامة نعت الهجاء ، بين فيه وجه الهجاء وطريقته ثم أخذ يضرب الأمثلة على ذلك ويعلق عليها ، وقد جاء بأمثلة بالغ فيها الشعراء في الهجو والسخرية من خصومهم ، وقدم لذلك بقوله : « ومنهم من يفرط في ذكر نقيصة واحدة كما يغلو عند المدح في فضيلة واحدة » (٥) .

(*) الحكم بن معمر الخضري شاعر إسلامي ، كثير السجع ، هجاء ، تهاجا وابن ميادة الشاعر زمناً طويلاً ثم اصطلحاً . معجم الأدباء ١٠ / ٢٤٠ .

(١) نقد الشعر ١٤١ .

(٢) المرجع السابق .

(*) أوس بن غلفاء الهجيمي التميمي من شعراء المفضليات عده الجُمحي في الطبقة الثانية من فحول الجاهلية . الأعلام ٣١ / ٢ .

(٣) نقد الشعر ١٤٣ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق ٩٩ .

فيرى أن بعض الشعراء قد بالغوا وأفرطوا في الهجاء والسخرية من خصومهم وذلك بتتبع عيب من عيوبهم والإفراط في ذكره والسخرية منه كما يقول في المثال الذي أورده للحطيئة : « فمن ذلك للحطيئة يغرق في ذكر البخل وحده : (١) »

كَدَدْتُ بِأَظْفَارِي وَأَعْمَلْتُ مَعُولِي فَصَادَفْتُ جُلُودًا مِنَ الصَّخْرِ أُمْلَسَا
تَشَاغَلَ لَمَّا جِئْتُ فِي وَجْهِ حَاجَتِي وَأَطْرَقَ حَتَّى قَلْتُ قَدْ مَاتَ أَوْ عَسَى
وَأَجْمَعْتُ أَنْ أَنْعَاهُ حِينَ رَأَيْتُهُ يَفُوقُ فُوقَ الْمَوْتِ حَتَّى تَنْفَسَا
فَقُلْتُ لَهُ : لَا بَأْسَ لِسِتِّ بَعَائِدٍ فَأَفْرَخَ تَعْلُوهُ السَّمَادِيرُ مُبْلَسَا

ولجريد في ذكر الجهل : (٢)

وَلَا تَتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّى يُصَيِّنَكُمْ وَلَا تَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدَبَّرَا

كما أن أبا هلال العسكري أفرد في كتابه الصناعتين لكل من المبالغة والغلو فصلا مستقلا ضمن فصول باب البديع ، وعرف كلا منهما ، فعرف الغلو بأنه « تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها » (٣) .

والمبالغة عنده ، هي أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر في العبارة عنه أدنى منازل ، وأقرب مراتبه » (٤) .

(١) نقد الشعر ٩٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الصناعتين ٣٩٤ .

(٤) المرجع السابق ٤٠٣ .

ومن خلال هذين التعريفين يتضح تفريقه بينهما ، حيث يرى أن الغلو فيه تجاوز للحد ، أما المبالغة فليس فيها هذا التجاوز ، وإنما هي البلوغ بالمعنى .

ثم أخذ أبو هلال يورد الأمثلة لكل فصل ، وقد لاحظنا أنه أكثر من ذكر الأمثلة التي هي عبارة عن صور هزلية ساخرة تقوم مقام الصور الكاريكاتورية المعروفة الآن فمن ذلك تمثيله بقول القائل : (١)

لقد مر عبدالله في السوق راكبا له حاجة من أنفه ومطرق
وعنت له في جانب السوق مخطئة توهمت أن السوق منها سيفرق
فأقذر به أنفا وأقذر بربه على وجهه منه كيف معلق

ومنه قول الآخر : (٢)

أنت في البيت وعريـ نك في الدار يطوف

ومنه أيضا ، قول الشاعر : (٣)

وتبكي السماوات إذا ماعى وتستغيث الأرض من سجدته
لما انتهى يوما لحوم القطا صرعها في الجو من نكهته

ويشير أبو هلال إلى بعض الصور الساخرة التي اتخذ فيها الشعراء من المبالغة في صفة من الصفات سيلا للسخرية ، فيقول : « وكما أفرطوا في صفة الطول كذلك أفرطوا في صفة القصر » (٤) .

(١) الصناعتين ٤٠٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ٣٩٩ .

(٤) المرجع السابق .

ثم يمثل على ذلك الإفراط بعدة أمثلة ، منها ما قاله بعض المحدثين في قصير: (١)

وقصيرٌ لا تعملُ الشمسُ ظلاً لقامتِه

يعثرُ الناسُ في السَّطْرِ به من دمامتِه

وقول أبي عثمان الناجم(*) : (٢)

ألا يا يندقَ الشَّـطْرُ نَجْـجَ في القيمةِ والقَامَةِ

ثم يذكر أبو هلال بعد ذلك رأيه في الغلو ، أو ما يسميه « بالإفراط الشديد » فيقول : « ومن الناس من يكره الإفراط الشديد ويعيبه ، وإذا تحرز المبالغ واستظهر فأورد شرطاً أو جاء بكاد وما يجري مجراها يسلم من العيب » (٣) .

ويورد بعد ذلك الأمثلة ، ومنها هذا المثال الساخر الذي بالغ فيه الشاعر وغالى في السخرية من بني أسد ، يقول الشاعر : (٤)

لو كان يخفي على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسدٍ

قوم أقام بدار الذل أولهم كما أقامت عليه جذمة الوتدِ

ومن المبالغة عند أبي هلال نوع آخر يعرفه بقوله : « هو أن يذكر المتكلم حالاً لو وقف عليها أجزأته في غرضه منها ، فيجاوز ذلك حتى يزيد في المعنى زيادة توكلده ويلحق

(١) الصناعتين ٣٩٩ .

(*) سعد بن شداد السمعاني أديب شاعر صاحب ابن الرومي وروى شعره توفي سنة ٣١٤ هـ .

معجم الأدباء ١١/١٩٣ .

(٢) الصناعتين ٣٩٩ .

(٣) المرجع السابق ٤٠١ .

(٤) المرجع السابق ، البيتان للطرماح بن حكيم كما في ديوان المعاني ١/١٧٦ .

به لاحقة تؤيده » (١) ثم يسوق لهذا النوع أمثلة ، منها قول الحكم الخضري في رجل : (٢)

وأقبح من قرد ، وابخل بالقرى من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف

ويرى أن حماد عجرد قد أخذ من هذا القول قوله في هجاء بشار والسخرية منه : (٣)

ويا أقبح من قرد إذا ما عمي القرد

إن كثرة هذه الأمثلة الساخرة التي بالغ فيها الشعراء في السخرية من مهجويهم ووفرتها في كتب النقد والأدب ، وكثرة التمثيل بها في الكتب التي أفرد مؤلفوها أبوابا أو فصولا للمبالغة ، يدل على أن هذا الأسلوب شائع مستساغ مشهور عندهم ، فالسخرية نخط من الهجاء إلا أنه هجاء ضاحك ، تكون مقبولة ما ابتعدت عن الغلو الذي ليس له حدود ، أو ذاك الذي لا يرعى لأي شيء حرمه ، لا يكون هم الشاعر فيه إلا أن يوقع بمهجوه كل رذيلة ، ويلصق به كل خسيسه ، يدفعه إلى ذلك غضب وسخط قد امتلأت به نفسه ، فيأتي بالغلو المرفوض غير المقبول المستساغ ، ومن ذلك مثلا أبيات لابن الرومي أفرط فيها في التشهير والطعن والإفحاش على الشاعر ابن الجبازة ، يقول : (٤)

كل فحل أبوك عدلا من اللـه — وعيسى بلا أب كاليتيم

كثرت موبقات بوران حتى ضاق عنها عفو الغفور الرحيم

(١) الصناعتين ٤٠٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ديوان ابن الرومي ١١٤ / ٦ .

فهذان البيتان من جملة أبيات على مافيهما من مبالغة في الذم والتجني ، فإنها مبتذلة المعاني بذية العبارة يأبأها الذوق وتعافها النفس ، إذ كان فيها الشاعر بذيثاً إلى أبعد حدود البذاءة ، متكلفاً الخوض في قاع الدنس والرذيلة ، حاشداً لصور العهر والفجور في مغالاة مفرطه (١) .

ولعل من المبالغات الساخرة البديعة المقبولة ، قول دعبل في بخيل : (٢)

إن هذا الفتى يصون رغيماً	ما إليه لناظر من سيل
هو في سفرتين من أدم الطا	نف ، في سلّين ، في منديل
خُتِمَتْ كُلُّ سَلَّةٍ بِرصاص	وسُيُورٍ قُدِّدْنَ من جلد فيل
في جرابٍ في جوف تابوت موسى	والمفاتيح عند ميكائيل

ومن المبالغات الساخرة ، وهو أبلغ ما قيل في الاحتقار ، والتقليل ، والجن على رأي أبي هلال العسكري ، قول الطرماح بن حكيم في هجاء (تميم) والسخرية منهم : (٣)

تيمم بطرق اللؤم أهدى من القطا	ولو سلكت سبل المكارم ضلّت
ولو أن حرقوصاً على ظهر غلة	تشدّ على صفّي تيمم لوّلت
ولو جمعت يوماً تيمم جموعها	على ذرة معقولة لا شتقلت
ولو أنّ أم العنكبوت بنت لها	مظلتها يوم الندى لاستظلت
ولو أنّ برغوثاً يرفق مسكه	إذا نهلت منه تيمم وعلّت

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤٠٦ .

(٢) شعر دعبل ١٧٤ .

(٣) ديوان المعاني ١٧٥/١ .

لقد بالغ الطرماح في السخرية من هؤلاء القوم ، وأخرج كلامه مخرج
الهزل والعبث ، ووصل إلى الغاية التي أراد وهي السخرية والتهكم بهم .

وبعد فإن مقام السخرية والتهكم يستدعي حشد كل الوسائل التي توصل إلى
هذه الغاية ، وإن الشاعر أو غيره حينما يسخر يحاول أن يوفر لسخريته أشنع
الصفات حتى تكون في أثرها أوجع ، فنراه يسلك إلى المبالغة الطريق حتى يصل إلى
الغاية التي يريد .

السفوية والهجاء في معرض المدح

هذا النوع من البديع من الأنواع التي سلمت لابن أبي الإصبع وعد من اكتشافاته يقول ابن حجة : « هذا النوع من مستخرجات ابن أبي الإصبع » (١) . وسلم له بذلك الشيخ صفى الدين الحلبي ، وابن معصوم المدني (٢) .

وقد عرفه ابن أبي الإصبع بقوله : « هو أن يقصد المتكلم إلى هجاء إنسان فيأتي بألفاظ موجهة ، ظاهرها المدح وباطنها القدح ، فيوهم أنه يمدحه وهو يهجو » (٣) .

ومثل له بقول بعضهم في بعض الأشراف : (٤)

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقاً عليه لغيره وهو الرسول

يقول ابن أبي الإصبع : « فأما ألفاظ البيت الأول على انفرادها فلا تكاد تصلح إلا للمدح ، ولا يفهم منها غيره ، وأما البيت الثاني لو انفرد أيضاً لما فهم منه مدح ولا هجاء وكان إلى باب من الأبواب أقرب من هذين البابين ، لكنه لما اقترن بالأول أهل نفسه وأخاه للهجاء ، وعدل بألفاظهما عن الثناء وحصل من اجتماعهما ما ليس لكل منهما على انفراده » (٥) .

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ٢٦١ .

(٢) أنوار الربيع ٣/ ٦٠ .

(٣) تحرير التحرير ٥٥٠ .

(٤) الشاعر هو أبو عاصم المدني ، واسمه محمد بن حمزة الأسلمي ، وقاله في الحسن بن زيد بن

الحسين بن علي « رضي الله عنهم » انظر العمدة ٢/ ٨٤٨ ، ٨٤٩ .

(٥) تحرير التحرير ٥٥٠ .

وهذا ذم فيه عدول وتعريض ، وقد روي أن شاعراً مدح الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فأجزل عطيته ، فعوتب على ذلك فقال : أتروني خفت أن يقول : لست ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ولا ابن علي بن أبي طالب ؟ ولكن خفت أن يقول : لست كرسول الله ﷺ ، ولست كعلي ، فيصدق ويحمل عنه ويبقى مخلداً في الكتب ومحفوظاً على السنة الرواة . فقال الشاعر : أنت والله يا بن رسول الله أعلم بالمدح والذم مني (١) .

ومن أمثلة ابن أبي الإصبع ، قول عبدالصمد بن المعذل (*) أو أبي العميثل (**) في أبي تمام ، وقد كانت في لسانه حبسة : (٢)

يا نبي الله في الشعر — روي عيسى بن مريم
أنت من أشعر خلق الله ما لم تكلم

ومن أمثلته أيضاً مثال يرى أنه نمط غير النمط الأول الذي قدمه ، ويرى أنه من لطيف التوجيه . وهو قول السعيد بن سناء الملك (***) في صاحب له : (٣)

(١) العمدة ٨٤٨/٢ .

(*) عبدالصمد بن أبي عمرو المعذل شاعر فصيح ظريف ، من فحول المحدثين توفي سنة ٢٤٠ هـ .
فوات الوفيات ٥٧٥/١ .

(**) أبو العميثل عبدالله بن خليل كاتب عبدالله بن طاهر وشاعره ، كان مكثراً من نقل اللغة ومجيداً لها ، توفي سنة ٢٤٠ هـ . وفیات الأعيان ٨٩/٣ .

(٢) تحرير التحبير ٥٥٠ ، ٥٥١ .

(***) هبة الله بن جعفر السعدي المصري المعروف بابن سناء الملك ، أديب شاعر ، صنف كتاب روح الحيوان وله ديوان موشحات وديوان رسائل وديوان شعر ، مات بالقاهرة سنة ٦٠٨ هـ .
معجم الأدباء ٢٦٥/١٩ .

(٣) تحرير التحبير ٥٥٠ ، ٥٥١ .

لي صاحب أفديه من صاحب حلو التأني حسن الإحتيال
لو شاء من رقّة ألفاظه ألف ما بين الهدى والضلال
يكفيك منه أنه ربما قاد إلى المهجور طيف الخيال

ويعجب ابن أبي الإصبع بهذا النمط ، بل ويتشبت به فينظم على غرارهِ فيمن
ادعى الفقه والكرم وهو ممن يتهم ، فيقول : (١)

ابن فلانٍ أكرم الناس لا يمنع ذا الحاجة من فلسه
وهو فقيه ذو اجتهادٍ وقد نصّ على التقليد في درسه
يستحسن البحث على وجهه ويوجب الدّخل على نفسه

ثم يعلق على هذا النمط بقوله : « وكل توطئة وقعت في هذا النمط الثاني صالحة
للمدح البحث ، فإذا اقترنت بأبيات المعاني انقلب ماكان فيها مدحا تهكما ، وصارت هي
بنفسها هجاء » (٢) .

فابن أبي الإصبع يرى أن الهجاء في معرض المدح ، نمطان مختلفان : النمط
الأول ، وهو الذي مثل له بالمشالين الأولين ، وهذان المشالان اذا انفرد البيت الأول في كل
منهما كان مدحا محضاً ، وإذا اجتمعا صارا هجواً بحثاً فالشق الثاني من المثال هو بيت
القصيد ، وهو الذي يؤهل الكلام لأن يكون هجواً ، فالمثال الأول كأن فيه مقابلة غير
متكافئة تؤدي إلى تفضيل يزري بالمفضول ويظهره في صورة مذمومة . ولكن ألفاظ هذا
النمط خالية من أي إشارة إلى ذم أو هجاء .

(١) تحرير التحبير ٥٥٠ ، ٥٥١ .

(٢) المرجع السابق .

أما المثال الثاني فإن ثاني أبياته هو أيضاً الذي أهل ما قبله لأن ينقلب ذماً بعد أن كان مدحاً ، ثم إن ألفاظه لم تخل مما يشعر بالذم والهجو ، لذلك يرى ابن أبي الإصبع أن ثاني الآخرين مخالف لثاني الأولين .

أما النمط الثاني من أنماط الهجاء في معرض المدح فإنه يخالف النمط الأول بخلو توطئته من الذم ، فهي صالحة للمدح البحت ، حتى إذا ما قرنت بأبيات المعاني انقلب ما كان فيها مدحاً إلى تهكم ، فالدلالة على الهجاء والتهكم فيه أخفى منها في النمط الأول (١) .

هكذا يتناول ابن أبي الإصبع الهجاء حين يكون في معرض المدح ، وينقل ابن حجة الحموي (٢) وكذلك الدسوقي (٣) وابن معصوم (٤) التعريف نفسه الذي ذكره ابن أبي الإصبع ، ومثلوله بقول الحماسي : (٥)

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفَرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِحَشِيَّتِهِ سِوَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانًا

فظاهر هذا الكلام المدح بالحلل ، والعفة ، والخشية ، والتقوى ، وباطنه المقصود أنهم في غاية الذل وعدم المنعة ، والكلام جاء على طريقة التوجيه يوهم أنه مدح وهو هجاء .

(١) تحرير التحبير ٥٥٠ ، ٥٥١ .

(٢) انظر خزائن الأدب وغاية الأرب ٢٦١/١ .

(٣) انظر حاشية الدسوقي ٤٧٣/٤ .

(٤) انظر أنوار الربيع ٦٠/٣ .

(٥) الحماسة ٥٧/١ ، والشاعر هو قُرَيْطُ بْنُ أَثِيفٍ ، شاعر إسلامي من بلعنبر ، ولعلهم بنو العنبر ابن تميم .

وقريب من ذلك تلك الأبيات المشهورة التي هجا بها الشاعر النجاشي (*) بني العجلان ، فجاءوا يستعدون عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عمر : وما قال لكم ؟ قالوا : إنه قال :

قبيلة لا يغدرون بذمة . ولا يظلمون الناس حبة خردل .

فقال عمر : ليتني منهم ، أو قال : ليت آل الخطاب كذلك ، أو كلاماً يشبه هذا . قالوا فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أقل للكأك ، يعنى الزحام .

قالوا : فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب وعوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه (١) .

وهكذا كلما جاءوا يبيت وجد له عمر تخريجاً ومحملاً ووجهاً حسناً ، ولكن لو لم يكن في هذه الأبيات توجيه وإيهام لما استطاع عمر أن يخرجها على هذا النحو ، ومن يقرأ هذه الأبيات يظن أنها مدح ، حتى إذا ما حقق النظر فيها ودقق تكشف له عن سخرية مرة دعت بني العجلان يهرعون إلى عمر ، وعمر رضي الله عنه من أبصر الناس بما قال النجاشي ، ولكنه ربما أراد أن يدرأ الحد بالشبهة .

(*) قيس بن عمرو من بني الحرث بن كعب أدرك عمر وكان يمدح علياً فجلده لشربه الخمر فهرب إلى الشام وتوفى بلحج . الإصابة ٥٨٢/٣ .

(١) انظر العمدة ١/١٣٠ ، ١٣١ .

ومن أمثلة هذا الفن التي ذكرها ابن الأثير الحلبي ، قول المتنبي في وصف كافور :

ولله سر في علاك وإنما كلام العدى ضرب من الهديان

ثم يعلق عليه بقوله : « فهذا مدح موجه يحتمل أن يكون مدحا ، بحكم أن علاك فيه سر لله لم يهبه لغيرك ، ويحتمل أن يكون هجواً ، أي أنك غير مستحق للعلی وإنما لله تعالى سر في تقديم من يصلح للتقديم ولا يكون أهلاً للكرامة » (١) .

من خلال هذه الأمثلة وتلك التعليقات يظهر أن أسلوب الهجاء في معرض المدح لا يختلف عن ما يسمى بأسلوب التوجيه بل إن ذلك منصوص عليه في ألفاظ التعريف التي ننقلها ، يقول ابن أبي الإصبع : « هو أن يقصد المتكلم إلى هجاء إنسان فيأتي بألفاظ موجهة » (٢) ، ويقول معلقاً على أحد الأمثلة : « هذا من لطيف التوجيه » (٣) ، ويقول ابن الأثير الحلبي معلقاً على بيت المتنبي السابق : « فهذا مدح موجه » (٤) . ويقول الدسوقي : « وهذا يدخل في قسم التوجيه » (٥) .

والحق أن أسلوب الهجاء في معرض المدح لا يوافق التوجيه موافقة كاملة ، فمنه ما يكون موجهها يحتمل المدح والذم فيكون أكثر إبهاماً ، ومنه ما يكون الذم فيه أوضح وإن جاء في معرض المدح ، ويتضح هذا في الأمثلة التي ذكرها ابن أبي الإصبع وفي تقسيمه إياها إلى نمطين .

أما من حيث الفرق بين أسلوب الهجاء في معرض المدح والتهكم ، فقد تعرض ابن أبي الإصبع لذلك فقال : « والذي أفرد هذا الباب بنفسه عن باب التهكم مع أن الذي

(١) جوهر الكثر ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٢) التحرير والتحيير ٥٥٠ .

(٣) المرجع السابق ٥٥١ .

(٤) جوهر الكثر ٣٠٦ .

(٥) انظر عروس الأفراح ٤/٤٧٤ .

فيه من المدح تهكم ، هو أن التهكم لا تخلو ألفاظه من لفظة من اللفظ الدال على نوع من أنواع الذم أو لفظة يفهم من فحواها الهجو ، وألفاظ المدح في هذا الباب لا يقع فيها شيء من ذلك ، ولا تزال مفرقة ومجتمعة تدل على مجرد المدح حتى يقترن بها ما يصرفها عن ذلك ، وشواهد التهكم لا تخلو من ألفاظ التهكم في أبيات التوطئة وأبيات المعاني ، وما يقع في هذا الباب من التهكم إنما يقع في التوطئة دون أبيات المعاني « (١) .

معنى ذلك أن الهجاء في معرض المدح أكثر إبهاماً ونزاهة من ألفاظ التهكم إذ ليس في ألفاظه ما يشعر بالذم سواء كانت مجتمعة أو متفرقة حتى يقترن بها ما يصرفها عن ذلك .

أما التهكم فإنه لا يخلو من ألفاظ تشعر بالهجو والسخرية ، فكأن قرينة الذم والسخرية في أسلوب الهجاء في معرض المدح معنوية ، أما في أسلوب التهكم فالقرينة لفظية .

ومن طريف هذا النوع قول أبي محمد الحسن الحريري الشاعر في الشريف أبي السعادات هبة الله بن الشجري (*) : (٢)

ياسيدي والذي يُعيدُك من نظم قريضٍ يَصْدَا به الفِكْرُ
مَالِكَ من جدك النبي سَوَى أنك لا ينبغي لك الشِّعْرُ

(١) التحرير والتحبير ٥٥١ ، ٥٥٢ .

(*) هبة الله بن علي بن محمد الحسن بن المعروف بابن الشجري إمام في اللغة وأشعار العرب فصيح صنف الأمالي وغيره توفي في ٥٤٢ هـ . وفيات الأعيان ٤٥ / ٦ .

(٢) أنوار الربيع ٦٥ / ٣ .

لقد قسا الحريري وسخر من أبي السعادات من حيث بدا أنه يمدحه ، فجرده من الشاعرية ، ومن كل فضيله ، فأعاده من نظم القريض لأن شعره يصيب الفكر بالعطب وقد أبدى الشاعر الجد والصدق في مخاطبته ، فبدأ كلامه بنداء سيده ، فأوهم السامع أنه يمدح مع أنه في الحقيقة بسخر ، وكأنه يقول للشجري إذا لم تستطع شيئا فدعه ، وما أدهى مخاطبته لخصمه بقوله «ياسيدي» التي توهم ولا شك بالمدح والثناء ، فإذا أكمل البيتان تكشف المعنى عن سخرية قاسية .

وهذا دعبل الخزاعي ، استضافه قوم فلم يطعموه حتى غلبه النوم فهجاهم بأسلوب ظاهره مدح وثناء وحقيقته هجو وسخرية ، يقول : (١)

هَنَاكُمْ أَنْكُمْ قَوْمٌ كِرَامٌ وَأَنْ النَّوْمَ بَيْنَكُمْ طَعَامٌ
أَتَاكُمْ زَائِرٌ فَأَجَعْتُمُوهُ فَلَمَّا نَامَ أَشْبَعَهُ الْمَنَامُ

من يسمع هذا الكلام يظن أن دعبلأ يمدح هؤلاء القوم ، فإذا ما دقق النظر ، تبين أنه تهكم وسخرية بهؤلاء اللثام الذين أجاجوا ضيفهم من القرى وأشبعوه نوما .

ومنه قول حمدان بن أبان اللحقي في بخيل : (٢)

قَدْ رَأَيْنَا حَسَنَ سَابَا طِكَ وَالدَّارَ الطَّوِيلَةَ
وَعَلِمْنَا أَنَّ فِيهَا كُلَّ مَا تُلْفِي الْقِيلَةَ
غَيْرَ أَنَّ الْجَنْنَ لَا تُحْسِنُ فِي حُبْرِكَ حِيلَةَ

يوهمك حسن الساباط والدار الطويلة والخيرات التي عمر بها هذا البخيل بيته أنه بيت كرم ، غير أنك سرعان ما تصدم بأن هذه السعة ليس فيها لطالب من نوال ، بل إنك

(١) شعر دعبل الخزاعي ١٨٠ .

(٢) أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق ، للصولي ٥٥ ، عني بجمعه ج . هيوارث دن .

مهما احتلت لتصيب منها شيئاً فلن تفلح فهي في حصون منيعه ، لا تصل إليها حتى
عفاريت الجن .

ومنه لابن الرومي يلمز نسب إسماعيل بن بلبل : (١)

جَدُّكَ شِيَانُ الْعَظِيمِ الْفَخْرِ
حَقًّا كَمَا الْبَلْبُلُ جَدُّ الصَّقْرِ
نَجْرٌ لِعَمْرِي بَائِنٌ مِنْ نَجْرِ
لَمْ تُظْلَمِ الدُّنْيَا بِأَمِّ دَفْرِ
وَأَنْتَ فِيهَا مِنْ وَلَاةِ الْأَمْرِ
لَوْلَا دَلِيلُ كِيَاضِ الْفَجْرِ
يُشْرَحُ بِالْإِيمَانِ كُلِّ صَدْرٍ
لَقُلْتُ بِالْدهْرِ كَأَهْلِ الْدهْرِ
مِمَّا أَرَى مِنْ سُوءِ هَذَا الْقَدْرِ
وَلَيْسَ لِي فِي عَاجِلٍ مِنْ صَبْرِ

يسخر ابن الرومي من ابن بلبل ، ومن ادعائه العربية فينسبه إلى شيبان ، ثم ينفيه
عنها بطريقة ماكره ، فكما لا يكون البلبل جداً للصقر فشيبان لا تكون أصلاً لإسماعيل
وهذه النسبة ماهي إلا سخرية الشاعر وإظهاره الثناء الكاذب ثم إذا اطمأن خصمه إذا به

ينتقل إلى هجاء يكشف ما يبطنه في نفسه من تهكم ، يرينا المدح أولاً ثم إذا به يتحول عنه إلى الهجاء .

ولابن الرومي في السخرية والعبث بأبي حفص الوراق : (١)

وقائل : إن أبا حفصلٍ أحقُّ محتاجٌ إلى ضَرْبٍ
لم يتزوّجَ حَدَثًا ناشئاً يهتزُّ مثل الغُصْنِ الرُّطْبِ
حتى إذا صار إلى حالةٍ تجمعُ ضَعْفَ الباهِ والكسْبِ
تزوِّجُ المائقُ لاسيما في مثلِ هذا الزمنِ الصَّعْبِ
أحوجَ ما كان إلى كاسبٍ يُجدي عليه جاءَ بالأدبِ
زاد على عَيْلَتِهِ زوجةً يالك من نكْبٍ على نكْبِ
يحملُ كلاً وهو من ضُرِّهِ كَلٌّ فيالله من خَطْبِ
فقلتُ لا تَعَجَّلْ على شيخنا باللومِ والتعيفِ والعُتْبِ
لعل ما تحسبُ من أمرِهِ وأمرِها بالعكسِ والقلبِ
هو الذي يرتعُ في كسبها فافطن له يانائِمُ القلبِ
مامثلُهُ من ساءَ تديُّرُهُ هيهات ، إن الشيخَ ذو إزْبِ
لما رأى أعلامَهُ أصبحتْ ترعى رياضَ المحلِّ والجَدْبِ
تزوِّجُ المسكينُ ليلةً أضحي بها في الرِّفهِ والحِصْبِ
فمن رأى مثل أبي حفصلٍ في السبِّ أو مثلي في الذبِّ
أقومُ عنه بمعاذيرِهِ وهو يحوِّكُ الشعرَ في سَتِي

يحتال ابن الرومي لنفسه في هجاء هذا الأحقق والسخرية منه ، فيجرد من نفسه شخصاً آخر يتولى قذف أبي حفص بالتهم والتفائض ، ثم يدير حواراً بينه وبين هذه الشخصية المجردة المتخيلة ، يتبنى دور المدافع الناصح في هذا الحوار الماكر ، فيدافع عن أبي حفص ويعتذر عن بعض أفعاله التي عيب من أجلها ويبررها تبريرات خبيثة ، فأبو حفص ليس ممن ساء تدبيره بل هو ذو أرب وعقل راجح لجأ إلى ذلك لما رأى أقلامه قد أصبحت ترعى رياض المحل ، وهذا تعبير عن الكساد الذي أصاب حرفته ومهنته إذ هو وراق ، ومن إمعانه في السخرية من خصمه نراه يحول كنيته من « أبي حفص » إلى « أبي حفصل » ، ثم يتعجب ويستفهم في مكر ودهاء ، فهو يذب عن أبي حفص بمثل هذا الشعر ، وأبو حفص يحوك الشعر في سبه .

ومنه قول مخلد الموصلي يسخر من ادعاء أبي تمام النسب العربي : (١)

أنت عندي عربي	أصل مافيك كلام
عربي عربي	أجئي ماترام
شعر فخذيك وساق	ك خزامي وثمان
وضلوع الشلو من صد	رك نبع وبشام
وقذى عينيك صمغ	ونواصيك ثغام
لو تحركت كذا لاند	جفلت منك نعام
وظباء مخصبات	ويرايع عظام
أنا ما ذنبي وإن خا	لفني فيك الأنعام

(١) أخبار أبي تمام ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

وأنت منك سجايا نبطيات لئام
وقفا يحلف أن ما عرقت فيك الكرام
ثم قالوا جاسمي من بني الأنباط خام
كذبوا ما أنت إلا عربي ما تضام
بيته ما بين سلمى وحواليه سلام
أنت عندي عربي عربي والسلام

يسخر مخلد من أبي تمام ويهزأ منه بطريقة ماكرة ذكية ، فهو عنده عربي الأصل لاشك في عروبه ، بل هو عربي من أعرق قبائل العرب ، كيف لا يكون هذا وهو الذي يشهد كل شيء فيه بهذه العروبة الأصيلة ! فشر فخذيه وساقيه من نبت تلك الصحراء التي عاش فيها ! بل إن نبات البرية قد ظهر على ضلوعه وصدره ، فعيناه صمغ ، أما نواصيه فتغام بل إنه لو تحرك لانجفلت من تحته نعام وظباء ويرابيع كثيرة ، وهذا كله مبالغة ماكرة ذكية من مخلد يحشد لها ليبرهن على صدق دعواه في عروبة أبي تمام ، لكن هذا الأعرابي الأصيل تغلت منه أحياناً بعض السجايا النبطية ، ويفضحه أحياناً بعض حركات جسمه مما يجعل بعض الناس يشكون في عربيته فيقولون إنه جاسمي من بني الأنباط خام ولكن مخلداً ينبري لهؤلاء مدافعا في مكر ودهاء عن أبي تمام ، فيكذبهم فيما ادعوا ، فما أبو تمام سوى عربي لا ينكره أحد ، فبيته ما بين جبلي سلمى ، وحياته حياة الأعراب في البادية بين أشجار السلم والنخيل ، فهو عربي عربي ليس فيه كلام ، وهذا التكرار مما يزيد في السخرية والتهكم إذ هو تأكيد ساخر ، سرعان ما ينقل من الإثبات إلى النفي لأنه قد قصد السخرية والهزاء .

ويدخل في هذا الأسلوب ما يسمى بتأكيد الذم بما يشبه المدح ، وهو مصطلح بديعي يشتمل على ضربين ، أحدهما : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم ثابتة له ، بتقدير دخول صفة الذم في صفة المدح ، كقولك : فلان لا خير فيه إلا أنه يتصدق بما يسرق .

والسبكي له في هذا الضرب نظر دقيق ، إذ يرى أن الاستثناء في هذا الضرب يقدر فيه الاتصال ، ولا بد أن يكون فيه مناسبة بين الخصلة المستثناة والخصال المحمودة (١) .

لذلك نراه يستدرك على الخطيب القزويني في المثال الذي أورده ، فيقول : « ومثله المصنف بقوله : « فلان لا خير فيه إلا أنه يسيء إلى من أحسن إليه » وفي المثال نظر فالإساءة لمن أحسن إليه ليس فيها شيء يشبه الخير ، وعلاقة المضادة هنا بعيدة الاعتبار فينبغي أن يمثل بما صورته صورة الإحسان » (٢) .

والتأكيد في هذا الضرب من وجهين ؛ ذلك لأنه كدعوى الشيء ببينه ، وهو هنا نفى الخيرية عنه بالمرّة ، وذلك لتعليق وجود الخيرية في فلان على المحال ، وهو كون التصديق بما يسرق خيراً ، وذلك مبني على تقدير الاتصال في الاستثناء ؛ ذلك لأن الأصل في الاستثناء الاتصال يشعر بأن المتكلم طلب الأصل ، وهو استثناء المدح ليقع الإتصال ، فلما لم يجده استثنى ذماً ، فجاء ذم على ذم (٣) .

وليس وجود الاستثناء شرطاً في تحقق ماهية هذا النوع ، وإنما هو من جملة صور تحققه ، فلذلك مثل له بقول ينسبه المرشدي لابن أبي الإصبع : (٤)

(١) عروس الأفراح ٣٩٦/٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) حاشية الدسوقي ٣٩٦/٤ .

(٤) انظر شرح عقود الجمان ١٢٦/٢ . والبيت لابن الرومي من قصيدة طويلة يعاتب فيها ابن نوبخت . الديوان ٣١٤/١ .

خير ما فيهم ولا خير فيهم أنهم غير مؤثمي المغتاب

وثاني الضريين : أن يثبت للشيء صفة ذم تعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى كقولك : فلان فاسق إلا أنه جاهل . أو أن يعقب صفة الذم أداة استدراك ، كقولك : (فلان جاهل لكنه ذو ظلم) (١) لأن الاستدراك هنا كالأستثناء ، إذ الاستثناء المنقطع كالأستدراك ، فإذا قلت : « فلان بخيل لكنه كاذب » ، كان من تأكيد الذم بما يشبه المدح (٢) .

وهذا الضرب يفيد التأكيد من وجه واحد ، وذلك من جهة أن الاستثناء لما كان الأصل فيه الاتصال ، فالعدول عنه إلى الانقطاع يشعر بأن المتكلم طلب استثناء المدح فلم يجده ، فأتى بالذم على الذم فكان تأكيداً له (٣) .

وهناك ضرب ثالث لهذا الأسلوب ينسبه السيوطي في شرحه لعقود الجمان إلى ابن جابر الأعمى (*) ويرى أنه أبلغ من الضريين السابقين لما فيه من التهكم والاستهزاء ، يقول :

« وزاد ابن جابر الأعمى ضرباً ثالثاً وهو أن تأتي بصفة ذم مثبتة ، ثم بصفة بعدها توهم رفع صفة الذم ، ثم تعلق بها ما يبين أنها ذم ، فتكون ذماً بعد ذم ، وهو أبلغ من الأولين لما فيه من التهكم والاستهزاء .

(١) شرح عقود الجمان ١٢٦/٢ .

(٢) مواهب الفتاح ٣٩٦/٤ .

(٣) حاشية الدسوقي ٣٩٦/٤ .

(*) محمد بن أحمد الأندلسي عالم بلاغي وفقه مالكي ، ناظم بديعية العميان توفي سنة ٧٨٠ هـ . تاريخ علوم البلاغة ١٤٧ .

ثم مثل له بقوله : « رأيت عتق زيد عاطلاً فحليته بالصفع » ، أثبت أولاً صفة ذم وهي كونه عاطلاً ، ثم أثبت تحليته فأوهم رفعة ، فلما قال « بالصفع » ، تبين أن هذه التحلية ذم آخر « (١) » .

ومن أمثلة هذا الضرب ، قول دعبل الخزاعي يذم مالك بن طوق (*) ويسخر منه : (٢)

لا خير فيك سوى كلام طيب ومواعيد تدني ، وفعل يعد
وأبوة في تغلب لو أنها للكلب ، كان الكلب فيها يزهد

لقى مالك من دعبل شتى أصناف السخرية ، وهاهو ذا دعبل في هذه الأبيات يفتن كعادته في السخرية بمهجوه ، فيبدأ هجاءه لابن طوق بنفي الخير عنه ، ثم يستثنى فتفرج أسارير وجه ابن طوق لهذا الاستثناء ، فالمستثنى صفة مدح وهي طيب الكلام ولكن سرعان ما يتبخر هذا الأمل ويختفي ، إذ يعطف على المستثنى صفات ذم متتالية فتلك الصفة الحسنة والكلام الطيب ليست سوى مواعد كاذبة وأفعال بعيدة ، مثل لؤم نسب صاحبها في تغلب ، وهذا من أشد أنواع التهكم والسخرية ، إذ أوهم دعبل خصمه حينما استثنى من صفة الذم الأولى صفة مدح ولكنه سرعان سرعان ما نقضها بصفات ذم متعاقبة ، حولت بذلك الأمل إلى سراب ، وهنا مكن القوة في هذه السخرية « لذلك فضل ابن

(١) شرح عقود الجمان ١٢٧/٢ .

(*) مالك بن طوق التغلبي شريف فارس جواد ، بنى الرحبة وتولى إمرة دمشق للمتوكل ، توفي

سنة ٢٥٩ هـ . فوات الوفيات ٢/٢٩٤ .

(٢) شعر دعبل ٩٤ ، ٩٥ .

جابر الأعمى هذه الطريقة في الذم ؛ لما فيها من التهكم والاستهزاء « (١) .

ومثله قول الشاعر : (٢)

يا زاعماً أنك لي ناصحٌ إني بهذا غير مغرورٍ
لما بدأ قُبْحَ الذي قُلْتَهُ حسَّنتَ ذاك القولَ بالزُّورِ

فقوله « حسنت » أوهم السامع أن الشاعر ربما تراجع عن التمادي في ذمه ، إلا أنه سرعان ماتيين أن الأمر ليس سوى هزء وسخرية ، فما ذلك التحسين إلا رمياً بقول الزور .

ومن أمثلة الذم بما يشبه المدح ، قول ابن الرومي في أناس رفعهم الدهر وهم أهل ضعة : (٣)

أتراني دون الأولى بلغوا الآ مال من شُرْطَةٍ ومن كُتَّابٍ
وتجَّارٍ مثل البهائمِ فازوا بالمتى في النفوسِ والأحبابِ
فيهم لُكْنَةُ النَّبِيطِ وَلَكِنْ تحتها جاهليةُ الأعرابِ
خيرٌ ما فيهم ولا خيرَ فيهم أنهم غيرُ آثمِي المَغْتَابِ

لقد أوهم الشاعر في البيت الأخير أنه يريد أن يمدح فإذا به يستثنى ، فينفي الخير عن هؤلاء القوم إلا خيراً واحداً وهو أنهم غير مؤثمي المغتاب ، فهم أهل لكل طعن وغيبه لأنهم أهل لؤم وفسق .

(١) انظر شرح عقود الجمان ١٢٦/٢ .

(٢) المرجع السابق ١٢٧/٢ .

(٣) ديوان ابن الرومي ٣١٤/١ .

ومن أمثلته ، قول الشاعر في ذم شخص : (١)

خلا من الفضل غير أني أراه في الحمق لا يجارى

وقول الآخر في آخر : (٢)

لئيم الطباع ، سوى أنه جبان يهون عليه الهوان

في هذين البيتين ذم أشبه المدح ، بدئ بنفي لصفة المدح ثم استثنى منها صفة ذم فكان ذما على ذم ، ففي البيت الأول صفة مدح منفية ، حيث نفى الفضل عن المهجو ثم استثنى من نفي الفضل هذا صفة كان المتوقع أن تكون صفة مدح ، لكنها ليست سوى ذم فجاء ذما على ذم ، وفي البيت الثاني كان البدء صفة ذم مثبتة فاستثنى منها ، فأوهم السامع أنه يستثنى صفة مدح ، فإذا بها صفة ذم ، فهذا اللئيم ليس سوى جبان يهون عليه الهوان ، وهذا الإيهام وتلقي السامع بما لم يتوقع يجعل لهذا الأسلوب أثر قوي ويمنحه جدة وطرافة .

ومن أمثلته التي ساقها العباسي في معاهد التنصيص قول الشاعر في قوم

لثام : (٣)

بيض المطابخ لا تشكو ولا تدهم طبخ القدور ولا غسل المناديل

لا تأكل النار في مغني يوتهم إلا فتائل سرج أو قناديل

في البيت الأول كناية عن اللؤم والبخل ، فمطابخ هؤلاء القوم بيض كناية عن أنها لا تستخدم في قرى الأضياف وإكرامهم ، ونساؤهم في راحة وكسل ، فهن لا

(١) جواهر البلاغة ٣٨٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) معاهد التنصيص ١١١/٣ .

يشكين طبخاً ولا غسلاً ، لأن النار لا توقد في هذه البيوت إلا لشيء واحد وهو إيقاد السرج والقناديل ، وهذا الاستثناء بعد ذلك الذم يوهم أن الشاعر سيستثنى صفة مدح من ذلك الذم فإذا به يتمادى في ذمه ، فيسخر من تلك النار الموقدة ليست لقرى الأضياف ولكن لقرى السرج والقناديل .

ومن ذلك قول أحد الشعراء في شخص يهجو ويرميه باللؤم وعدم الوفاء يقول: (١)

هو الكلب إلا أن فيه ملالة وسوء مراعاة ، وما ذاك في الكلب

لقد بالغ الشاعر في ذم خصمه فشبهه بالكلب ، ولم يكتف بهذا بل أوهم السامع بهذا الاستثناء الذي جاء به وكأنه سيذكر صفة محموددة في هذا الخصم ، فإذا به يرميه بالملالة وسوء المراعاة ، ولم يزل به حتى جعل الكلب أفضل منه ؛ لأن الكلب يضرب به المثل في الوفاء ، أما هذا الرجل فعلى أنه يشبه الكلب في بعض الصفات الخسيسة إلا أنه ليس فيه وفاء الكلب .

ومما سبق يتضح أن هذا الضرب من السخرية يعتمد على البناء اللفظي للنص الأدبي ، أكثر من اعتماده على أي شيء آخر ، ثم إن عنصر المفاجأة التي يحدثها ذلك الاستثناء غير المتوقع ، يجعل من تلك السخريات ذات وقع وأثر بعيد في نفس السامع . والتصرف والتلاعب بالألفاظ أمر رئيس في مثل هذه الأساليب البديعية التي تبعث على السخرية والهزء ، ومن العناصر الرئيسة أيضاً في هذا الأسلوب ، عنصر المفارقة والتناقض ، فبينما يريك الشاعر أنه يمدح إذا به يفاجئك بالهجو والسخر ، وبينما تراه يستثنى من صفة ذم أو صفة مدح منفية صفة أخرى ، يتوقع السامع أنها مدح إذا هي ذم آخر على الذم القائم ، فالمفاجأة ، والتناقض ، والتلاعب بالألفاظ ، عناصر رئيسة في تكوين هذا الأسلوب .

الإبهام الساخر

الإبهام بباء موحدة ، وهو أن يقول المتكلم كلاما مبهما يحتمل معنيين متضادين ، لا يتميز أحدهما عن الآخر ، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ، بل يقصد إبهام الأمر فيهما (١).

وله عدة تسميات ، فقد سماه السكاكي « التوجيه » وعرفه بقوله : « هو إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين » (٢) . وسماه ابن الأثير : « الموجه » وعرفه بأنه « دلالة اللفظ على المعنى وضده » (٣) .

أما العلوي فإنه يسميه « التوجيه » ويعرفه بقوله : « وأما في مصطلح علماء البيان فهو أن يكون الكلام له وجهان » (٤) ولكنه يدخل فيه تأكيد المدح بما يشبه الذم والادماج . ويسميه بعضهم « محتمل الضدين » (٥) .

ولا شك أن تسمية هذا النوع البديعي بالإبهام أليق من تسميته بالتوجيه ، ومطابقة التسمية فيه لاتخفي على أهل الذوق ، والذي تخير هذه التسمية هو ابن أبي الإصبع (٦) فالأساس الذي يقوم عليه هذا الأسلوب هو الإبهام ؛ بحيث يكون الكلام محتملا للضدين وهما المدح والهجاء ، فهما الغرضان اللذان يدور حولهما هذا الأسلوب ولكن

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/١٧٨ .

(٢) مفتاح العلوم ٤٢٧ .

(٣) المثل السائر ١/٦٤ ، ٦٦ .

(٤) الطراز ٣/١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٥) انظر شرح عقود الجمان ٢/١٢٩ .

(٦) المرجع السابق ٢/١٣٢ ، وتحرير التحبير ٥٩٦ .

مع وجود هذا الاحتمال للغرضين إلا أن المقصود من هذا الأسلوب هو الهجاء والسخرية والاحتمالان يستويان ما لم ينظر إلى قرائن الأحوال والقائل والمقول فيه ، فإذا جُرد من هذه القرائن ولم ينظر للقائل والمقول فيه كان احتمالهما للمعنيين على السوية (١) ولكن يضل الهجاء والسخرية هما الغرض المقصود ، فالمديح قد لا يكون الكلام فيه محتملاً للضدين إذ لا حاجة للمادح أن يبهيم كلامه لأن مثل هذا الأسلوب إذا وقع في المدح كان قبيحاً (٢) . أما الذي يهجو أو يسخر فإنه يضطر إلى أن يبهيم كلامه إذا كان يخشى أن تناله عقوبة ، كما فعل أحد الشعراء حين جاء يهنئ الحسن بن سهل (*) - باتصال ابنته بالمأمون - مع من هنأه ، فأثاب الناس كلهم وحرمه ، فكتب إليه : إن تماديت على حرمانى ، عملت فيك بيتاً لا تعلم مدحتك فيه أو هجوتك ، فاستحضره وسأله عن قوله فاعترف ، وقال : لا أعطيك أو تفعل ، فقال :

بارك الله للحسن ولبوران في الحقتن

يا إمام الهدى ظفرت ولكن بنت من ؟

فلم يعلم ما أراد « بنت من ؟ » في الرفعة أو في الصغر ؟ (٣) .

وقد لا يخشى الشاعر عقوبة ، ولكنه يقصد الهزء والعبث بمهجوه ، كما كان يفعل بشار إذ كان كثير العبث بهذا النوع ، اتفق أنه فصل قباء عند خياط أعور اسمه زيد ، فقال له الخياط على طريق العبث به : سأتيك به لاتدري أقباء هو أم دواج ، فقال له الشاعر :

(١) انظر أنوار الربيع ٥/٢ .

(٢) روضة الفصاحة ، محمد بن أبي بكر الرازي ٢٥٠ ، تحقيق د. أحمد شعله .

(*) الحسن بن سهل السرخسي ، تولى وزارة المأمون ، وتزوج المأمون ابنته بوران ، وكان يجزل العطاء للشعراء ، توفي سنة ٢٣٦ هـ . وفيات الأعيان ٢/١٢٠ .

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/١٧٨ .

إن فعلت ذلك ، لأعملن فيك بيتا لا يعلم أحد ممن سمعه أدعوت لك أم دعوت عليك
ففعل الخياط ، فقال الشاعر :

خاط لي زيد قباء ليت عينه سواء

فما علم أحد أن الصحيحة تساوي السقيمة أو بالعكس (١) .

يقول ابن حجة : « ولم يتفق للمتأخرين ولا للسلف من قبل في هذا الإبهام غير
البيت المتعلق بالخياط زيد ، والبيت المتعلق بالحسن بن سهل » (٢) .

ولكن ابن الأثير حين تناول الإبهام ، أورد له أمثلة كثيرة مع أنه قرر في بداية
كلامه عنه « أنه قليل الوقوع جدا » (٣) ، إلا أنه عاد فقال : « وكثيرا ما كان يقصد المتنبي
هذا القسم في شعره ، وأكثر ما كان يستعمله في قصائده الكافوريات [ثم يروي عن
الفتح ابن جني أنه] قال : قرأت على أبي الطيب ديوانه إلى أن وصلت إلى قصيدته التي
أولها :

أغالب فيك الشوق ، والشوق أغلب

فأتيت منها على هذا البيت ، وهو :

وما طربي لما رأيته بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

فقلت له : يا أبا الطيب ، لم تزد على أن جعلته أبا زنة (أي قرداً) فضحك لقولي » (٤)

(١) خزائن الأدب وغاية الأرب ١/ ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) المرجع السابق ١/ ١٧٩ .

(٣) انظر المثل السائر ١/ ٦٤ .

(٤) انظر المرجع السابق ١/ ٦٥ ، ٦٦ .

ثم يتابع ابن الاثير سرد الأمثلة ويعلق عليها ، فيرى أن قول المتنبي في قصيدة
يمدح بها كافور : (١)

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب

يجري على هذا النهج ، فالبيت يستخرج منه معنيان ضدان ، أحدهما أن المنعم
عليه يحسد المنعم ، والآخر : أن المنعم يحسد المنعم عليه .

وكذلك ورد قوله أيضا من قصيدة يوههم أنه يمدحه : (٢)

فإن نلت ماأملت منك فرجما شربت بماء يعجز الطير ورده

فإن هذا البيت يحتمل مدحا وذما ، وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله فإنه
يكون بالذم أولى منه بالمدح ؛ لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ ، وصدر البيت
مفتتح بإن الشرطية ، وقد أجيب بلفظة « رب » التي معناها التقليل ، أي : لست من
نوالك على يقين فإن نلته فرجما وصلت إلى مورد لا يصل إليه الطير لبعده ، وإذا نظر إلى
ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذي قبله .

ومن ذلك قوله في كافور أيضا : (٣)

ومالك تعنى بالأسنة والقنا وجدك طعان بغير سنان

فإن هذا بالذم أشبه منه بالمدح ، لأنه يقول لم تبلغ مابلغته بسعيك واهتمامك بل
بجد وسعادة ، وهذا لا فضل فيه ؛ لأن السعادة تنال الخامل والجاهد ومن
لا يستحقها (٤) .

(١) ديوان المتنبي ١ / ١٨٥ .

(٢) المرجع السابق ٢ / ٢٨ .

(٣) ديوان المتنبي ٤ / ٢٤٧ .

(٤) المثل السائر ١ / ٦٥ .

وقد لمح أبو العباس الجرجاني(*) مثل ذلك في مدائح المتنبي لكافور في مثل قوله
فيما ظاهره مدح : (١)

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمران

قال : « فإنه يحتمل المدح ويحتمل الهجاء بأن يكون معناه ، أنت ساقط دنيء
والساقط لا يعاديه إلا مثله ، فإذا كان معاديك مثلك فهو مذموم بكل لسان كما أنك كذلك
ولو عاداك الشمس والقمر لسقطا بمساجلتها إياك ، يدل عليه قوله بعده : (٢)

ولله سر في علاك ، وإغما كلام العدى ضرب من الهذيان

فإنه في الهجاء أظهر ، بأن يكون مراده في بلوغك هذه المنزلة التي لا تستحقها
ولا تستوجبها سر لله تعالى غير مطلع عليه أحد ، وله وجه في المدح بأن يكون مراده أن
الله تعالى ما بلغك هذه المنزلة إلا وأنت تستحقها فيما بينك وبينه » (٣) .

والحق أن المتنبي لم يكن يمدح كافور ، بل يهجوّه ويسخر منه ، فهو الذي كان
يقول : « لو قلبت مدحي فيه كان هجاء » ، فمع أنه في مقام المدح وبين يدي أمير إلا أنه
كان يشعر أنه يمدح من لا يستحق ، ولكنه يخشى إن هو أظهر ما في نفسه أن يصيبه أذى
كافور ، فهو تحت سلطانه ، لذلك عمد إلى الإبهام وأخرج كلامه على وجهين ، يقول أبو
الفتح ابن جني معلقاً على قول المتنبي : « عدوك مذموم . . » : « هذا المدح ينعكس

(*) أحمد بن محمد الجرجاني قاضي البصرة وشيخ الشافعية في عصره ، له المنتخب في الكنايات
وله تصانيف في الفقه ، توفي سنة ٤٨٢ هـ . طبقات الشافعية ٧٤ / ٤ .

(١) انظر ديوان المتنبي بشرح العكبري ٢٤٢ / ٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء ، لأبي العباس أحمد بن محمد الجرجاني ٧١ .

هجاء» ويقول في البيت الثاني ، « لله سر في علاك . . . » : « يجوز فيه أن ينقلب هجاء لأنه يجوز أن يصرف إلى أن يغيظ به الأحرار » وقال الواحدي : « هذا إلى الهجاء أقرب لأنه نسب علوه على الناس إلى قدر جرى به من غير استحقاق ، والقدر قد يوافق بعض الناس فيعلو ويرتفع على الأقران وإن كان ساقطا باتفاق من القضاء (١) .

وأقول : لم تكن تلك القصيدة بكل أبياتها - خلا بيتين أو ثلاثة - إلا هجاء وسخرية من كافور ، افتن فيها المتنبي فأخرج معظم كلامه على وجهين ، يحتمل المدح ويحتمل الهجاء ، وإن كنا نعلم أن المتنبي لم يكن يمدح كافور عن قناعة ولكن رغبة في أن ينال منه حاجات طالما كتمها في نفسه ، فلما أحس أن العبد يماطله ويلهو به أراد أن ينتقم لنفسه فمدحه وتمادى في مدحه حتى شفى نفسه ، بمثل قوله : (٢)

وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكاً للعراقين واليا

فظاهر البيت أن من رأى كافور أفاد منه كسب المعالي ، وباطنه أن من رآه على ما به من النقص وقد صار إلى الملك ، ضاق صدره أن يقصر عما بلغه وأن لا يتجاوز ذلك إلى كسب المكارم ، وكذلك إذا رآه راجل لا يستكثر لنفسه أن يرجع واليا على العراقين (٣) .

ومثل قوله أيضا : (٤)

وَيَغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ
وَأَيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ مَعَدُّ بَنِ عَدْنَانَ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ

(١) انظر ديوان المتنبي ١/١٨٦ ، ٤/٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق ٤/٢٩٠ .

(٣) انظر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. مطلوب ١/٤١ .

(٤) ديوان المتنبي ١/١٨٦ .

فإنه يحتمل المدح ، ولكنه سخرية واستهزاء : أي أنه لا نسب لكافور ، وليس هذا مما يمدح به وليسما الملوك ، لأنه أشبه بنفي النسب عنه ، ثم أتى بقول لا يصح معناه ، يقول : أي قبيل يستحق أن تنسب إليه وأنت فوق كل أحد ، وهذا تهزؤ منه ، وقد كان المتنبي يقول : لو قلبت مدحي فيه كان هجاء (١) . ونكتفي من المتنبي بهذا ، فحسبه وضوحا وجلاء على ما أردنا أن نمثل له .

ومن أمثلة هذا الفن مارواه الزمخشري من أن اليهود كانوا يلوون ألسنتهم بالكلام أمام النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون له قولاً ذا وجهين يحتمل الذم وغيره ، وذلك على سبيل السخرية والهزاء به عليه الصلاة والسلام ، والآية هي قوله تعالى حكاية عن اليهود : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا وأسمع غير مسمع ، وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ (٢) .

قال الزمخشري : « قولهم (غير مسمع) حال من المخاطب أي اسمع وأنت غير مسمع ، وهو قول ذو وجهين ، يحتمل الذم أي اسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت ، لأنه لو أجيب دعوتهم عليه لم يسمع فكان أصم غير مسمع ، قالوا ذلك اتكالا على أن قولهم لا سمعت دعوة مستجابة ، أو اسمع غير مجاب إلى ماتدعو إليه ، ومعناه غير مسمع جواباً يوافقك فكأنك لم تسمع شيئاً ، أو اسمع غير مسمع كلاماً ترضاه فسمعك عنه ناب .

(١) انظر ديوان المتنبي ١/ ١٨٦ ، ١٨٧ ، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١/ ٤١ .

(٢) الآية (٤٦) من سورة النساء .

ويجوز على هذا أن يكون « غير مسمع » مفعول اسمع أي اسمع كلاما غير مسمع إياك لأن أذنك لاتعيه نبوا عنه ، ويحتمل المدح أي اسمع غير مسمع مكروها ، من قولك : اسمع فلان فلاناً ، إذا سبه .

وكذلك قولهم (راعنا) يحتمل راعنا نكلمك ، أي ارقبنا وانتظرنا ، ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها ، وهي (راعينا) فكانوا سخرية بالدين وهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمونه بكلام محتمل ، ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام » (١) .

ومن ذلك مارواه المرتضى في أماليه قال :

« قال أبو جعفر محمد بن علي عليهما السلام لكثير : امتدحت عبد الملك بن مروان ؟ فقال : لم أقل له (يا إمام الهدي) إنما قلت : (يا شجاع) والشجاع حية (ويا أسد) والأسد كلب (ويا غيث) والغيث موات ، فتبسم أبو جعفر عليه السلام » (٢) .

ولا شك أن هذا معنى بعيد ، وهو معنى مدسوس في بطن الشاعر ، فتشبيه الممدوح بالحية والأسد والغيث أمور عرفها الشعراء وكثرت في باب المدح ، وإن كان عبد الملك بن مروان نفسه قد كره مثل هذه التشبيهات ، فقد دخل الأخطل عليه مرة فقال : يا أمير المؤمنين ، قد امتدحتك ، فاستمع مني ، فقال : إن كنت شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي بمدحك . . . وقال يوما وقد اجتمع الشعراء عنده : تشبهونا بالأسد والأسد أبخر ، وبالبحر والبحر أجاج ، وبالجبل والجبل أوعر (٣) .

(١) تفسير الكشاف ٢٧١ / ١ ، ٢٧٢ .

(٢) انظر أمالي المرتضى ٢٨٧ / ١ ، تحقيق محمد أبو الفضل .

(٣) انظر ديوان المعاني ٢٥ / ١ - ٢٧ .

ومن ذلك أيضاً ما حكاه الجرجاني في المنتخب ، وهو مما يحتمل الضدين ، ييهم المتكلم كلامه حتى يستطيع أن يفلت من تبعته ، وحتى يضحك من خصمه ، من ذلك قولهم :

أرانيه الله أغر محجلاً ، أي مخلوق الرأس مقيداً . وفلان صافي العيش حلوا الحياة يعنون به الجاهل . وفلان حسن الظن ، يعنون به الغافل . وفلان سليم الصدر ، يعنون به الأبله . ويقولون : سترك الله بستره ، أي رمى عليك حائطاً يستر (١) .

ومن ذلك ما رواه صاحب الأغاني في أخبار أبي دلالة ، قال : خاصم رجل أبا دلالة في داره ، فارتفعا إلى « عافية القاضي » فأنشأ أبو دلالة يقول :

لقد خاصمتي دهاة الرجال وخاصمتها سنة وافية
فما أدحض الله لي حجة ولا خيب الله لي قافية
ومن خفت من جوره في القضاء فلست أخافك يا عافية

فقال له عافية : أما والله لأشكونك إلى أمير المؤمنين ، ولأعلمنه أنك هجوتني . قال : إذا يعزلك ، قال : ولم ؟ ، قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء ، فبلغ ذلك المنصور ، فضحك وأمر لأبي دلالة بجائزة (٢) .

ويظهر من خلال هذا التناول أن الإبهام أسلوب تعبيري يلجأ إليه الشاعر أو غير الشاعر لنكتة يقصدها كما رأينا ذلك في الأمثلة المختلفة ، فيجد فيه بغيته ، ويقضي به وطره ، وينال به حاجته ، وأنه في الهجاء أشهر وأعرف والحاجة إليه أمس لأن الهجاء والساخر يحاول كثيراً أن يفلت من تبعة ما يقول خصوصاً إن علم أنه سيجني من وراء ذلك المتاعب .

(١) انظر المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) الأغاني ١٠ / ٢٥٧ .

السخرية في الهزل الذي يراد به الجد

كان الجاحظ يذكر بعض الفصول من الهزل استنشاطا للقارئ (١) وكان يقول في معرض حديثه عن البلاغة والخطابة حينما نقل كلاما لإبراهيم بن هانئ - : « وقال إبراهيم ابن هانئ - وكان ماجنا خليعا وكثير العبث متمردا ، ولولا أن كلامه هذا الذي أراد به الهزل يدخل في باب الجد ، لما جعلته صلة الكلام الماضي » (٢) .

ومن أوائل من تكلم في هذا الفن ابن المعتز في كتابه البديع حيث عدّه من محاسن الكلام فقال : « ومنها هزل يراد به الجد » (٣) ومثل له بأربعة أمثلة (٤) أولها قول أبي العتاهية :

أَرْزِيكَ أَرْزِيكَ بِسْمِ اللَّهِ أَرْزِيكَ من بخل نفسٍ لعلَّ اللهَ يشفيكَ
ما سِلْمُ نَفْسِكَ إِلَّا مِنْ يَتَارِكُهَا وما عَدُوُّكَ إِلَّا مَنْ يُوجِّحُكَ
وقول أبو نواس :

إذا ما تيممّي أتاكَ مفاخرًا فقل عدّ عن ذا ، كيف أَكُلُّكَ للضبِّ
وقوله أيضا للفضل بن الربيع :

ولي حُرْمٌ فلا تنغطَّ عنها لتدفعَ حقّها دَفْعَ الغريمِ
تغافلُ لي كأنّك واسِيطِيٌّ ويُنْكَ بين زمـزم والحطيمِ

(١) انظر الحيوان ٥ / ٣ .

(٢) البيان والتبيين ٩٣ / ١ .

(٣) البديع ٦٣ .

(٤) المرجع السابق .

وقول الآخر :

من رأى فيما رأى رجلاً تيهه مرب على جدته
يتباهى راجلاً ولله شاكري في قلنسوته

ولم يتعرض ابن المعتز لتعريف هذا الفن إلا أن ابن أبي الإصبع أفرد له باباً وعرفه بقوله : « هو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه ، فيخرج ذلك المقصود مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب » (١) ومثل له بأقوال أصحاب النوادر كأشعب وأبي دلالة وأبي العيناء(*) ومزبد ، ثم ساق حكاية عن أشعب وهي أن أشعب حضر إعدارا صنعه بعض ولاية المدينة وكان مبخلاً ، فدعا الناس ثلاثة أيام وهو يجمعهم على مائدة عليها جدي مشوي ، فيحوم الناس حوله ولا يمسه منهم أحد لعلمهم ببخله ، وأشعب في كل يوم يحضر ويرى الجدي ، فقال في اليوم الثالث : زوجته طالق إن لم يكن عمر هذا الجدي بعد أن ذبح وشوي أطول منه قبل ذلك (٢) . ولا شك أنها سخرية بالغة ألبسها أشعب ثوب الهزل .

ويتابع شهاب الدين الحلبي ابن أبي الإصبع في تعريفه (٣) . وكذلك ابن الأثير الحلبي في تعريفه إلا أنه يجعل هذا الباب من نعوت الألفاظ (٤) . ويمثل له

(١) تحرير التحبير ١٣٨ .

(*) محمد بن القاسم بن خلاد الهاشمي بالولاء الضرير مولى أبي جعفر المنصور ، من الحفاظ الفصحاء الظرفاء النبهاء توفي ببغداد سنة ٢٨٣ هـ . وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٣ .

(٢) تحرير التحبير ١٣٨ .

(٣) حسن التوسل إلى صناعة الترسل ٢٣٢ .

(٤) جوهر الكثر ٢١١ .

بحادثة وقعت لأبي دلامة حينما خرج في جنازة عمه المنصور وجلس على القبر ينتظر مواراتها فقال له المنصور : ما أعددت لهذه الحفرة ؟ فقال : عمه أمير المؤمنين !

ولا أرى في هذه الإجابة أي نكتة بلاغية ، إذ أنها إجابة باردة لم يراع فيها أبو دلامة مقتضى الحال والمقام . ثم إن ابن الاثير الحلبي يناقض تعريفه حين يسوق هذه الواقعة مثالا على الهزل الذي يراد به الجد ، فهو يعرفه بقوله : « أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه فيخرج ذلك مخرج المجون » (١) فأين المدح أو الهجاء في هذه الإجابة .

وأما القزويني فإنه لم يعرفه وعده في المحسنات المعنوية وتبعه في ذلك شراح التلخيص (٢) .

أما العلوي فقد ألحقه بتجاهل العارف ، فبعد أن تكلم عن تجاهل العارف قال : « وما يلحق بأذيال هذا الصنف ويجيء على أثره الهزل الذي يراد به الجد (٣) وهو يرى أن بينهما تماثلاً وإن كان بينهما تفرقة ظاهرة ، يقول : ومثاله قول بعضهم :

إذا ما تميمي أتاك مفاخرراً فقلّ عدّ عنّ ذا كيف أكلك للضبّ

فلا استفهام جامع لهم جميعاً ، لكنه أوردته على جهة التهكم به والهزاء والسخرية والغرض به الجد ، والمعنى في هذا « عد عن المفاخرة التي أنت تطلبها فإنها مرتبة عالية سنية ولكن حدثني عن أكلك للضب كما هي عادتك ، فهو يماثل التجاهل كما ترى وإن كان بينهما تفرقة ظاهرة » (٤) .

(١) جوهر الكنتز ٢١١

(٢) شروح التلخيص ٤٠٢/٤ .

(٣) الطراز ٨٢/٣ .

(٤) المرجع السابق .

فيرى العلوي أن الجامع بينهما هو الاستفهام ، وكأنه فهم أن هذا الفن الذي هو الهزل الذي يراد به الجدل لا يأتي إلا عن طريق الاستفهام كما في المثال الذي ذكره ، وهذا لاشك أنه فهم غير صحيح ، فالهزل الذي يراد به الجدل يأتي من الاستفهام وغيره .

ومن الذين تابعوا ابن أبي الاصبغ في تعريفه ابن حجة الحموي فنقل تعريفه وأمثله وزاد عليها أمثلة تناقض ذلك التعريف الذي نقله ، فهو يعرف الهزل الذي يراد به الجدل بقوله « أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه ، فيخرج ذلك المقصد مخرج الهزل والمجون اللائق بالحال » (١) ، ثم يتبع ذلك بأمثلة بعضها يناقض هذا القصر الذي نقله في تعريفه لهذا الفن ، وهو (قصد المدح أو الهجاء) حيث قصر الغرض من هذا الفن عليهما وذلك في مثل قوله : « ومن أظرف ما وقع في هذا الباب ، أنه حصل لي بالديار المصرية جرب أشرفت منه على التلف ، فوصف لي الحكيم بطيخا ، وهو عزيز الوجود في تلك الأيام ، فبلغني أنه أهدي إلى مولانا المقر الأشرف القاضي الناصري محمد بن البارزي صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية - عظم الله تعالى شأنه - بطيخ فكتبت إليه :

مولاي عاقبني الزمان بجربة وقد انقطعت بجسمي المسلوخ

وعميت من حزني على ما تم لي لكن شممت روائح البطيخ

[ثم يعلق قائلا] « فالكناية على طلب البطيخ سبكت في أحسن قوالب الهزل مع

حسن التضمين » ومثله قلبي :

جاء الشتاء فرأسي والجسم صاراً شماته

بطيلسان ابن حرب وفروة ابن نباته

[ويقول] في طيلسان ابن حرب وفروة ابن نباتة مع مافيهما من الهزل الظاهر كنايةتان عن الفقر الذي تزايد حده « (١) » .

أين المدح أو الهجاء في مثل هذين المثالين ، إنه يصف حاله وفقره ، ويستعطف حتى ينال حاجته ، فهو في موقف جد لكنه جعل السبيل إلى ذلك مسبوكا في قالب من الهزل .

والحق أن هذا الفن ليس مقصورا على غرضي المدح أو الهجاء ، بل ليس له غرض معين ، فكل غرض سلك به صاحبه هذا المسلك فهو من هذا الفن ، وقد سبق ابن معصوم المدني إلى هذا الرأي وفطن إليه وقرره في أول تناوله لهذا الفن بقوله :

« هذا نوع من البديع لطيف المسلك ، رقيق المأخذ ، وهو عبارة عن أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه فيخرج مقصوده مخرج الهزل المعجب ، والمجون المطرب هكذا قالوا . وأرى أنه لا يختص بالمدح والذم ، بل كل مقصد أخرجه المتكلم هذا المخرج عُدَّ من هذا النوع ، سواء كان مدحا ، أو ذما ، أو غزلا ، أو شكوى ، أو اعتذارا ، أو سؤالا ، أو غير ذلك » (٢) .

ثم يتبع ابن معصوم كلامه هذا بأمثلة لهذا الفن ، يقسمها حسب الأغراض فيقول مثلا : « وشاهده في الهجو . . . وشاهده في غير الهجو . . . وقول أبي نواس في النسيب . . . » (٣)

وهكذا يصحح ابن معصوم ما وقع فيه غيره من التناقض ، فيقرر أن هذا الفن لا يقتصر على غرض بعينه ، ثم يأتي بالأمثلة المتنوعة التي تؤكد وجهة نظره هذه .

(١) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٢٧ .

(٢) أنوار الربيع ١٦٦/ ٢ .

(٣) المرجع السابق ١٦٦/ ٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ .

ومن الأغراض التي يسلك بها صاحبها طريق الهزل الذي يراد به الجدل السخرية وهي غرض يناسبه الهزل والضحك والعبث ، يقول القاضي الجرجاني : « فأما الهجو فأبلغه ماخرج مخرج التهزل والتهافت » (١) لذلك كثيراً ما يلجأ الساخر إلى إضفاء جو من الفكاهة والضحك حتى يخفف من حدة سخريته ، أو حتى يستطيع أن يمرر سخرياته تلك دون دوي يكون له أثر رجعي ، فيعمد إلى إظهار كلامه في صورة الهازل وهو جاد كل الجدل ، لذلك رأينا جريراً يوصي كل هاج وساخر ، فيقول : « إذا هجوت فأضحك » (٢) .

والسخرية في ظاهرها تثير الضحك في هزل أو غير هزل ؛ لأنها كثيراً ما توحى الجدية رغم ظاهرها الضاحك ، فتخفي تلك الجدية خلف ذلك الظاهر ، فتحاول بذلك أن تتخلص من الانفعال الظاهر حتى تبدوا كأنها لاتنبعث عن عاطفة ما عند قائلها لأنها تخاطب العقل وتسعى إلى أن يسود الهدوء ويكون الجو حولها مشبعاً بالإدراك والوعي حتى تستطيع أن تثير الضحك السريع ، لتسلط ضوءاً أكثر سرعة على الأشياء التي لا تناسب الحياة والتي يمكن أن نصفها بأنها لاتليق بالفرد أو الجماعة ، وهي عندما تسلط هذا الضوء السريع تخدم فكرة عميقة ، ولكنها تريد لها أن تكون عابرة ، حتى يمضي كل شيء في خفة ونشاط (٣) .

والمثال العمدة الذي يتداوله البلاغيون في كتبهم لهذا الفن ، هو قول أبي نواس من قصيدة يهجو بها تيمماً وأسداً ، ويفتخر بقحطان ، والشاهد فيها قوله : (٤)

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٢٤ .

(٢) العمدة ٨٤٩/٢ .

(٣) انظر السخرية في أدب المازني ١٦ ، ١٧ .

(٤) ديوان أبي نواس ٥١٠ .

إذا ما قيمي أذاك مفاخرأ فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضبّ

وبعده :

تفاخر أبناء الملوك سفاهة وبولك يجري فوق ساقك والكعب

يسخر النواصي من هذا البدوي الذي جاءه مفاخرأ ، ولكنه لا يرد عليه فخره ، بل يذكره بأمر اعتاد عليه هو وقومه ، وهو أكل الضب الذي تعافه أشراف العرب ، فيخرج كلامه مخرج الهزل ، وكأنه يقول لهذا الذي جاء مفتخرا : دعنا من افتخارك هذا ولكن قل لنا كيف تصنع حين تأكل الضب ! وكيف لك أن تفاخر وهمتك تنتهي عند أكل الضب ! ، فلا يجاريه في مفاخرته بل يأتيه من حيث لا يتوقع فيسأله أمام الملاء عن هذا الفعل الغريب ، وهذا الأسلوب أوجع في الهجوم وأبلغ في السخرية ، حيث يتكلم الرجل جادا ومفاخرأ فيعترض عليه غيره بأسلوب هزلي يطفى به ذلك التوتر والحماس .

ومن أمثله قول أبي العتاهية : (١)

أرقبك أرقبك باسم الله أرقبكا من بخل نفسك علّ الله يشفيكا
ما سلم كفك إلا من يناولها ولا عدوك إلا من يرجيكا

إنها رقبيا ، ولكنها ساخرة ، يرقيه من ماذا ؟ من ذلك الداء العضال الذي استفحل ! من بخل نفسه ، لعل هذه الرقبيا أن تنفعه فيشفيه الله من هذا البلاء ! لم يقل له أنت بخيل لا تحب العطاء بل تعادي من يسألك وإن كان أقرب الناس إليك ، وتسالم من يعطيك ولو كان أبعدهم منك ، لم يقل له كل ذلك جادا جازما بل أخرج كلامه في صورة الناصح المتماجن الذي يبذل مساعيه ليخلص صاحبه من ذلك الداء فيرقيه من بخل نفسه

وما قصد أن يرقيه أو ينصحه بل قصد أن يقول له البخل فيك جبلة ، فأخرج كلامه مخرج الهزل وهو جاد في السخرية من هذا الطبع المشين .

وكثيرا ما يسخر الشعراء ويعبثون بالبخلاء ، فيشنعون على هذه الصفة الذميمة وعلى أصحابها ، ويقسون ويغلظون القول أحيانا ، ولكنهم يلينونه أحيانا كثيرة وخاصة إذا كان هذا البخيل ممن يرجى برؤه ، أو كان صاحباً أو صديقاً يخشى هجره ، فيخرج الشاعر عندها كلامه في قالب هزلي يسخر فيه من هذه الصفة ويدم من يبالغ فيها ، فمن ذلك قول ابن حجة الحموي في صاحب له : (١)

وصاحب تسمع لي نفسُه بغدوةٍ لـكـن إذا ما انتشَى
يضحكُ سنِّي للغدا عنـدَه لكنتي أقلعُ ضرسِي للعشَا

ومنه قول القاضي كمال الدين بن النبيه (*) : (٢)

ألا ياربَّ هَبْ لي منك عَمَراً كليلةٍ كلِّ ضيفٍ باتَ عنـدَه
فكم أعطى كدَهْنُ اللّوزِ لفظاً وكم مَخَضَ الكلامَ بغير زُبـدَه
وسقّني سفوفَ الريحِ منـه ولعقني لعوقَ المائِ عنـدَه

ومنه قول أبي العتاهية : (٣)

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/١٢٨ .

(*) كمال الدين على بن محمد بن النبيه شاعر رقيق مزح متين السبك له غزل وموشحات ومدائح توفى سنة ٦١٩ هـ . فوات الوفيات ٢/١٤٣ .

(٢) معاهد التنصيص ٣/١٥٩ .

(٣) أنوار الربيع ٢/١٦٩ .

أصابت علينا جودك العينُ يا عمرُ فنحن لها نبغي التَّمايمَ والنَّشَرَ
سَرِّيكَ بالأشعارِ حتى تملَّها فإنَّ لم تَفَقْ منها رَقِيَّكَ بالسَّوَرِ

وكان رقيا الأشعار هي هذه السخرية اللاذعة والهزل الذي أريد به الجد .

ومنه قول أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن الحجاج (*) ، وقد حصل في دعوة رجل فأخَّر طعامه إلى المساء وجعل يجيء ويذهب في داره : (١)

يا ذاهباً في داره جائئاً بغير ما معني ولا فائدة
قد جُنَّ أضيافُك من جوعهم فاقراً عليهم سورة المائدة

والسخرية تخرج مخرج الهزل في الغالب إذا كان المقصود بها صديقا ، أو شخصا ليس بينه وبين الساخر عداوة ظاهرة ، فلا يستطيع الساخر أن يجاهره بالعداوة والسخر ، فيحتال لذلك ويخرج كلامه متهزلا متماجنا .

فمن ذلك سخرية ابن الرومي من إسماعيل بن بلبل ومن دعواه العربية وقد كثر في زمانه أولئك الذين يدعون النسب العربي وهم أعاجم ، فيحاولون تقليد الأعراب في كلامهم ولباسهم وطريقة حياتهم ، إلا أن كل ذلك التدليس سرعان ما ينكشف للعارفين بحقائق الأمور .

يقول ابن الرومي (٢) :

(*) الحسين بن أحمد الكاتب المعروف بابن الحجاج ، شاعر شيعي مغلق ، وجلُّ شعره مجنون وسخف ، توفي سنة ٣٩١ هـ ببغداد . معجم الأدباء ٢٠٦/٩ .

(١) أنوار الريع ١٦٩/٢ ، ١٧٠ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٣٤٣/١ ، ٣٤٤ .

عجبتُ من معشرٍ بعقوتِنَا باتُوا نَيْطًا وأصبحُوا عَرَبَا
 مثلَ أبي الصقرِ ، إِنَّ فِيهِ وَفِي دَعَاهُ شِيَانُ آيَةٍ عَجَبَا
 بَيْنَاهُ عُلْجًا عَلَى جِلَّتِهِ إِذْ مَسَّهُ الْكِيْمَاءُ فَانْقَلَبَا
 عَرَبُهُ جَدُّهُ السَّعِيدُ كَمَا حَوَّلَ زَرْنِيخَ جَدِّهِ ذَهَبَا
 وَهَكَذَا هَذِهِ الْجُدُودُ لَهَا إكْسِيرُ صَدَقٍ يُعَرِّبُ النَّسَبَا
 بِذَلِكَ الدَّهْرُ يَا أَبَا الصَّقْرِ مِنْ خَالِكَ خَالَا ، وَمِنْ أَيْكَ أَبَا
 فَهَلْ يَرَاكَ الْإِلَهُ مُعْتَرِفَا بِشُكْرِ نِعْمَائِهِ الَّتِي وَهَبَا
 يَا عَرَبِيًّا أَبَاؤُهُ نَبَاطُ يَنْبَعَةٌ كَانَ أَصْلُهَا غَرَبَا
 كَمْ لَكَ مِنَ الْوَالِدِ وَالْوَالِدَةِ لَوْ غَرَسَا الشُّوكَ أَثْمَرَ الْعَنَبَا
 بَلْ لَوْ يَهْزَانِ هَزَةً نَثَرْتُ مِنْ رَأْسِ هَذَا وَهَذَا رُطْبَا
 لَمْ يَعْرِفَا خِيْمَةً وَلَا وَتِيْدًا وَلَا عَمُودًا لَهَا وَلَا طُبَا

يعجب ابن الرومي من حال هؤلاء العجم المستعربون ، يسمي الرجل منهم نبطيا ويصبح عربيا ، إنها آية العجب !

وهذا أبو الصقر واحد من هؤلاء ، علج أعجمي مسته الكيمياء فانقلب أعرابيا خالصا ، وهذا تعليل هازئ ماكر ، كيمياء تقلب العلوج أعرابا ، وجدود سعيدة تحول الزرنيخ ذهبا ، فأى إكسير هذا الذي عرب هذا النسب ، ثم يلتفت إلى ابن بلبل فيكنيه بأبي الصقر ، وأنى للبلبل أن يكون أبا للصقر ، ولكن لا عجب فابن بلبل عربي أباه نبط كنبعة من جذر غرب ، فهو مختلط النسب لا صلة له بالعرب لا من قريب ولا من بعيد .

ويتضح مما سبق أن التهزل في الهجاء من أبداع الأساليب الساخرة ، وهو مذهب فحول الشعراء الهجائين الساخرين ، لذلك نرى جريرا يوصي فيقول : « إذا هجوت فأضحك » (١) .

التجاهل الساخر

التجاهل هو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه به ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم ، أو ليدل على شدة التذلل في الحب ، أو لقصد التعجب ، أو التقرير ، أو التوبيخ (١).

وقد اختلف في تسميته وتعريفه وحده ، فالسكاكي يسميه (سوق المعلوم مساق غيره) ويكره تسميته بالتجاهل (٢) . ويتحدث عنه في مبحث تنكير المسند إليه ، فيعد من الحالات التي تقتضي تنكير المسند إليه كون المقام غير صالح للتعريف إما لأن المتكلم لا يعرف حقيقة المسند إليه أو أنه قصد تجاهله ، ويجعل منه ما يحكيه الله عز و علا عن الكفار في حق النبي ﷺ ، في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد » (٣) كأن لم يكونوا يعرفون منه إلا أنه رجل ما ، ويجعل منه أيضا قول الخارجية : (٤)

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

ويسميه العسكري (تجاهل العارف ومزج الشك باليقين) ويجعل الغرض منه التأكيد ويتجاهل بقية الأغراض ، يقول أبو هلال : « هو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيدا » (٥) .

(١) تحرير التحبير ١٣٥ .

(٢) مفتاح العلوم ٤٢٧ .

(٣) الآية (٧) من سورة سبأ .

(٤) مفتاح العلوم ١٩١ ، ١٩٢ .

(٥) الصناعتين ٤٤٥ .

وينسب ابن أبي الإصبع إلى من جاء بعد ابن المعتز أنه يسمي هذا الفن بالإعنات (١) ، والإعنات شيء آخر ، يسميه تجاهل العارف ، ويذكر له أمثله المعروفة (٢) .

ويقسم ابن أبي الإصبع تجاهل العارف إلى قسمين ، قسم يكون الاستفهام فيه عن شيئين أحدهما واقع والآخر غير واقع ، وقد ينطق بأحد الشيئين ويسكت عن الآخر لدلالة الحال عليه ، وهو على قسمين : موجب ، ومنفي ، ثم يأتي بالأمثلة على هذا القسم فيجعل من الموجب قوله تعالى : ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه﴾ (٣) وهو عنده خارج مخرج التعجب ، ومنه أيضاً قوله سبحانه وتعالى على لسان قوم شعيب : ﴿أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشؤا﴾ (٤) وهو عنده خارج مخرج التوبيخ مع أنه تهكم واضح ، ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ (٥) وقوله ﴿أأنت فعلت هذا بالهتاء يا إبراهيم﴾ (٦) وهذان الموضعان عنده خرجا مخرج التقرير ، ومنه ما جاء في المدح كقول بعض المحدثين :

بدا فراع فؤادي حسن صورته فقلت هل ملك ذا الشخص أم ملك

ومن المنفي ما جاء للذم كقول زهير بن أبي سلمى :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

(١) انظر تحرير التحيير ١٣٥ .

(٢) البديع ٦٢ .

(٣) الآية (٢٤) من سورة القمر .

(٤) الآية (٨٧) من سورة هود .

(٥) الآية (١١٦) من سورة المائدة .

(٦) الآية (٦٢) من سورة الأنبياء .

ومنه ما دل على التدله في الحب كقول العرجي :

بالله يا ظيأت القاعِ قلنَ لنا لَيَلَايَ منكنَّ أم ليلى من البشرِ

وأما القسم الثاني فإنه لم يذكر له تعريفا بل قال : ومما جاء من القسم الثاني في الكتاب العزيز قوله تعالى : « ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » (١) واعجب بفصاحة النسوة حيث شبهنه بالملك والعرب تشبه كل من راعهم حسنه بالجن (٢) .

ويرى ابن أبي الإصبع أن هناك نوعاً من التشكيك التبس على بعض المؤلفين حتى أدخله في باب تجاهل العارف ، وهو أن يرى المتكلم شيئاً شبيهاً بشيء فيشكك نفسه فيه لقصد تقريب المشبه من المشبه به ، ثم يعود عن المجاز إلى الحقيقة ، فيزيل ذلك التشكيك فإن لم يعد إلى الحقيقة فهو تجاهل العارف وإن عاد فهو التشكيك المحض (٣) .

أما ابن الأثير الحلبي فإنه يجعل له اسمين ، أحدهما تجاهل العارف ، والآخر يقال له (الإعانات) فأما الأول فيطلق على ما يأتي من نوعه في النظم والنثر ، وأما الثاني فيطلق على ما يأتي من هذا النوع في الكتاب العزيز أدباً مع الآيات الكريمة (٤) .

ولا شك أن التأدب مع الآيات الكريمة وتعظيمها من تقوى القلوب ولكن تسمية ما يأتي من هذا النوع في الكتاب العزيز (بالإعانات) لاشك أنه خطأ ، لأن الإعانات فن آخر يتعلق بالقوافي بأن يعنت الشاعر نفسه في القوافي فيلزمها ويتكلف ما ليس له (٥)

(١) الآية (٣١) من سورة يوسف .

(٢) انظر تحرير التحبير ١٣٥ - ١٣٧ .

(٣) تحرير التحبير ٥٦٤ .

(٤) انظر جوهر الكنز ٢٠٨ .

(٥) البديع ٧٤ .

وأفضل من هذه التسمية تسمية السكاكي حيث كره أيضا تسميته بالتجاهل فسماه (سوق
المعلوم مساق غيره) (١) .

ويقسم الحلبي هذا النوع إلى أقسام ، فيجعل الأغراض أقساما ، منها ما يخرج
مخرج المدح أو الذم ، ومنها ما يخرج مخرج التقرير ، ومنها ما يخرج مخرج
التوبيخ (٢) .

وتجاهل العارف قد يكون الغرض منه الذم والسخرية ، فيأتي قويا حسنا لأن
الكلام فيه إخراج مخرج التشكك والتجاهل والتهافت والتهزل ، واعتراض بين التصريح
والتعريض ، وما يدل على صحة ذلك إعجاب الحذاق من العلماء وفرسان الكلام بقول
زهير في تشككه وتهزله وتجاهله فيما يعلم :

وما أدري ، وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

فإن تكن النساء مخبات فحق لكل مخصنة هذاء

فإن هذا عندهم من أشد الهجاء وأمضه (٣) .

وحقيقة هذا الباب أن المتكلم إذا كان آخذا في كلامه وهو عالم بحقيقة ما هو
متكلم فيه ثم يسأل عن بعضه وهو يعلم حقيقته ليخرج كلامه إلى مخرج آخر تجاهلا بما هو
عارف به تلعبا بالفصاحة (٤) .

(١) انظر مفتاح العلوم ٤٢٧ .

(٢) انظر جوهر الكنز ٢٠٨ .

(٣) انظر العمدة ٨٤٦/٢ .

(٤) جوهر الكنز ٢٠٨ .

واستعمال هذا الأسلوب في الهجاء والسخرية كثير عند الشعراء ، من ذلك قول جرير يهجو « التيم » ويسخر منهم (١) :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودٌ
لِئَامِ الْعَالَمِينَ كِرَامُ تَيْمٍ وَسَيِّدُهُمْ وَإِنْ زَعَمُوا مَسُودٌ
وَإِنَّكَ لَوَلَقِيتَ عَيْدَ تَيْمٍ وَتَيْمًا قَلْتَ أَيُّهُمْ الْعَيْدُ !

أكثر جرير من السخرية بالتيم والاستخفاف بهم ، وفي هذه الأبيات الثلاثة نراه يكرر لفظ التيم أربع مرات ، والتكرار هنا استخفاف بهذا الاسم ، ثم ينفي عنهم الكرم فليس فيهم سيد كريم بل هم دوما مسودون لا تفرق بينهم وبين عبيدهم .

وأفضل منه في هذا الباب قول البحتري في حاجب لأحد الوزراء (٢) :

وَأَظْلَمْتَ حِينَ لَبَسْتَ السَّوَا دَ ظِلَامَ الدُّجَى لَمْ يَسِرْ رَاكِبُهُ
وَلَمَّا حَضَرْنَا لِأَذْنِ الْوَزِيِّ رَ ، وَقَدْ رُفِعَ السُّتْرُ أَوْ جَانِبُهُ
ظَلَّلْنَا نُرْجَمَ فِيكَ الظَّنُونَ : أَحَاجِمُهُ أَنْتَ أَمْ حَاجِبُهُ

فالبحتري يعرف أنه الحاجب ، ولكنه تجاهل وأخرج كلامه مخرج التشكك والتهزل بقصد التهكم والسخرية من هذا الحاجب الثقيل .

والمتنبي في هجائه المرّ لكافور يتساءل في تغافل وتجاهل مقصود عمن علم هذا الأسود المكارم (٣) :

(١) ديوان جرير ١/ ٣٣٢ .

(٢) ديوان البحتري ١/ ٢٧٢ .

(٣) ديوان المتنبي ٢/ ٤٦ .

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْخَصِيَّ مَكْرَمَةً أَقَوْمُهُ الْيَضُّ أُمَّ أَبَاؤُهُ الصَّيْدُ

وهو أدرى الناس بقوم كافور وآبائه ، ولكنه أراد أن يسخر بكافور .

ويسلك دعبل قبلهم هذا الأسلوب في سخريته من بني وهب فيقول : (١)

إِذَا رَأَيْتَ بَنِي وَهَبٍ بِمَنْزِلَةٍ لَمْ تَذَرِ أَيُّهُمْ الْأَنْثَى مِنَ الذَّكَرِ
قَمِيصٌ أَنْثَاهُمْ يَنْقُدُّ مِنْ قُبْلِ وَقُمُصُ ذَكَرَانِهِمْ تَنْقُدُّ مِنْ دُبْرِ
مُحَنِّكُونَ عَلَى الْفَحْشَاءِ فِي صَغَرٍ مُحَنِّكُونَ عَلَى الْفَحْشَاءِ فِي كِبَرٍ
مُحَنِّكُونَ وَلَمْ تُقَطَّعْ قَمَائِمُهُمْ مَعَ الْفَوَاطِمِ وَالذَّايَاتِ بِالْكِبَرِ

أفحش دعبل على بني وهب ، وسلك مسلك زهير بن أبي سلمى قبله في آل حصن ، إلا أن زهيراً كان أعف منه لساناً ، ورماهم بالفحشاء ، واستفهم في تجاهل وتغافل ليقول إن الناظر إليهم لا يستطيع أن يفرق بين إناثهم وذكرانهم .

وبعد ، فإن أسلوب التجاهل فن بديعي يأتي منه أغراض عدة ، أبرزها التهكم والسخرية ، وهو كما نرى أسلوب يتناسب مع طبيعة السخر ، فالساخر يتغافل ويتجاهل ويتهزل .

أسلوب التهكم

التهكم في اللغة يقال : تهكمت البئر تهدمت ، وتهكم عليه من شدة الغضب مثل تهدم عليه ، وتهكم به : تهزأ به وقال ذلك على سبيل التهكم (١) .

وهو عند البلاغيين : الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير ، والبشارة في موضع التحذير ، والوعد في مكان الوعيد ، والعذر في موضع اللوم ، والمدح في معرض السخرية ، ونحو ذلك (٢) .

والتهكم كظاهرة أسلوبية هي موضوع بحثنا ، أما التهكم هنا فهو مصطلح بديعي اجتمعت فيه عدة أساليب ، فالخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير ، وبالبشارة في موضع التحذير ، وبالوعد في مكان الوعيد ، وبالعذر في موضع اللوم ، هذه الأساليب كما يظهر ترجع إلى أصل واحد وهو ما أسماه الزمخشري « بالعكس في الكلام » عند كلامه على قوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم » (٣) .

يقول الزمخشري : « وأما « فبشرهم بعذاب أليم » فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه ، كما يقول الرجل لعدوه : أبشر بقتل ذريتك ، ونهب مالك » (٤) .

(١) أساس البلاغة (هكم) .

(٢) أنوار الربيع ١٨٥/٢ .

(٣) الآية (٣٤) من سورة التوبة .

(٤) تفسير الكشاف ٥١/١ .

وأما المدح في معرض السخرية فمبحث من مباحث البديع أفرد له البلاغيون بابا مستقلا من أبواب البديع ، وإن كان بعض البلاغيين يجعل بينه وبين التهكم فرقا (١) .

ويبدو أن عقد البلاغيين للتهكم بابا في البديع يجمعون فيه بين هذه الأساليب المتفرقة ناتجة عن الشعور بأن التهكم أسلوب شائع يمكن أن يأتي من عدة فنون كالتشبيه ، والاستعارة والاستفهام والأمر وغيرها ، وهذا الشعور يعزز الفكرة التي قام عليها هذا البحث .

ومن أوائل من أشار إلى هذا المصطلح الزمخشري ، يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ (٢) : « وقيل المعقبات الحرس والجلالوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله ، أي من قضاياه ونوازله ، أو على التهكم به » (٣) .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ﴾ (٤) وضع بشر مكان أخبر تهكما بهم (٥) .

وينقل ابن حجة عن ابن أبي الإصبع قوله إن هذا النوع من مخترعاته (٦) وربما قصد أنه أول من أفرد له بابا في البديع ، أما أن يكون أول من فطن إليه فالزمخشري كما رأينا وغيره قد أشاروا إليه من قبله .

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢١٧/١ .

(٢) الآية (١١) من سورة الرعد .

(٣) تفسير الكشاف ٢٨٢/٢ .

(٤) الآية (١٣٨) من سورة النساء .

(٥) تفسير الكشاف ٣٠٥/١ .

(٦) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢١٦/١ .

ومن أمثلة التهكم في وضع البشارة موضع التحذير بقصد السخرية والتهكم قوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (١) .

ومن الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير قوله تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ تحقيرا لأبي جهل وتهكما به وتعبيرا له على قوله ﴿ أنا العزيز الكريم ﴾ (٢) فيخاطب يوم القيامة وهو في غمرة العذاب بخطاب التكريم والإجلال هذا ، تهكما به وسخرية من قوله .

ومن الوعد في موضع الوعيد قوله تعالى : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ (٣) . وفيه تهكم ، فقد وضع الوعد وهو (يغاثوا) مكان الوعيد تهكما بهم .

ومن أمثلة وضع العذر موضع اللوم بقصد السخرية والتهكم ، قول أحد الشعراء في الوزير أبي القاسم الجرجاني ، وكان أقطع اليدين من المرافق : (٤)

وأقمت نفسك في الثقات وهبك فيما قلت صادق

فمن الأمانة والتقوى قطعت يداك من المرافق

يصدقه ويقبله في الثقات ، ثم يقلب له ظهر المجن فيجعل الأمانة والتقوى اللذين عرف بهما سببا في قطع يديه من المرافق ، ولا تقطع اليد إلا في حد السرقة ، فيبدو في البيت الأول كأنه يعذره ، ولكنه سرعان ما يتهكم به .

(١) ورد هذا الجزء من الآية في ثلاث سور : آل عمران (٢١) ، التوبة (٣٤) ، لقمان (٧) ،

الجاثية (٨) ، الانشقاق (٢٤) .

(٢) انظر تفسير الكشاف ٤٣٤ / ٣ .

(٣) بعض الآية (٢٩) من سورة الكهف .

(٤) أنوار الربيع ١٨٧ / ٢ .

ومن أمثلة المدح في معرض السخرية التي كررها بعض البلاغيين (١) أبيات لابن الذروي في صديق له أحذب ، قالوا إن ظاهرها مدح لكنه جاء في معرض السخرية وقصد به التهكم ، ولا رائحة للتهكم في هذه القصيدة ، ومن أراد أن يخرج بحكم صحيح على أبياتها فليقرأ القصيدة كاملة ، فليس فيها لفظة واحدة يفهم منها التهكم إنما هو مدح خالص وتزيين لهذا الحذب كعادة الشعراء في التزيين ، يقول ابن الذروي(*) : (٢)

يا أخي كيف غيَّرتنا الليالي	وأحالت ما بيننا بالمخال
حاش الله أن أصافي خيلاً	فيراني في ودّه ذا اختلال
زعموا أني نظمت هجاءً	مُعرباً فيك عن شنيع المقال
كذبوا إنما وصفت الذي حزر	ت من الفضل والبها والكمال
لا تظننّ حذبة الظهر عيباً	وهي في الحسن من صفات الهلال
وكذا القسيّ محدود بات	وهي أنكى من الظبا والعوالي
وإذا ما علا السنام ففيه	لقروم الجمال أي جمال
وأرى الانحناء في مقلب البازي ولم يعد مقلب الرئبال	
كون الله حذبة فيك إن شئت من الفضل أو من الأفضال	

(١) انظر التحرير والتحبير ٥٦٩ ، وخزانة الأدب وغاية الأرب ٢١٦/١ ، وأنوار الربيع ١٨٧/٢ .

(*) القاضي الوجيه على بن يحيى المعروف بابن الذروي شاعر مجيد توفي بمصر . فوات الوفيات

١٨٨/٢ .

(٢) أنوار الربيع ١٨٧/٢ ، ١٨٨ .

فَأَتَتْ رُبُوعًا عَلَى طُودٍ عِلْمٍ وَأَتَتْ مَوْجَةً يَحْرُرِ نَوَالِ
 مَا رَأَتْهَا النَّسَاءُ إِلَّا تَمَنَّتْ أَنَهَا حَلِيقَةٌ لِّكُلِّ الرَّجَالِ
 وَأَبُو الْغَصَنِ أَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ وَهُوَ رَبُّ الْقَوَامِ ذُو الْإِعْتَدَالِ
 عُدَّ إِلَى وَدَّانَا الْقَدِيمِ وَلَا تَضَعُ لِقِيلٍ مِنَ الْوَشَاةِ وَقَالَ
 وَتَذَكَّرَ لِيَالِيًّا حِينَ وَلَّتْ أَوْدَعَتْ حَسَنَهَا عُقُودَ اللَّالِي
 أَتَرَى بِالرَّجَاءِ يَجْمَعُ شَمْلِي أَمْ رَجَائِي مَخِيبٌ وَابْتِهَالِي
 وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْهَجْرِ بُدٌّ فَعَسَى أَنْ تَرَوْرَنَا فِي الْخِيَالِ

ولكن ابن معصوم يذكر قصيدة أخرى في أحذب وهي لأبي الفتح بن دانيال (*)
 ويفضلها على القصيدة السابقة ويرى أن الاستشهاد بها أعقد من تلك في هذا النوع
 والقصيدة هي قوله : (١)

قَسَمًا بِحَسَنِ قَوَائِمِكَ الْفَتَّانِ يَا أَوْحَدَ الْأُمَرَاءِ فِي الْحَدَبَانِ
 أَنْتَ الْحَسَامُ زَهَا بِرُوتِ حِدْبَةٍ فَزَهَا عَلَى الْخَطِيئَةِ الْمِرَانِ
 يَامُخْجِلًا شَكَلَ الْهَلَالَ بِقَدِّهِ حَاشَاكَ أَنْ تُعْزَى إِلَى نُقْصَانِ
 وَمُمَايَلًا قَدَّ الْقَضِيبَ إِذَا مَشَى مِنْ حَدَبَتَيْهِ يَمِيسُ كَالرِّيَانِ
 مَا عَابَ قَامَتَكَ الْحَسُودُ جِهَالَةً إِلَّا أَجَبْتَ مَقَالَهُ بَبِيَانِ

(*) محمد بن دانيال الموصللي أديب شاعر عمل بخيال الظل واشتهر بالدعابة والهزل ، توفي سنة

٧١٠ هـ . فوات الوفيات ٢ / ٣٨٣ .

(١) انظر أنوار الربيع ٢ / ١٨٩ ، ١٩٠ .

هل يحسنُ الجوكانُ إلا أن يرى مع أَكْثَرِه في حلبةِ الميدانِ
 أو هل يزينُ المتنُ إلا رَدْفُهُ حسناً فكيف بمنْ له رَدْفَانِ
 والعودُ أحْدَبُ وهو أَلْهَى مطربِ ولقد سمعتُ بنغمةِ العيدانِ
 وكذا سفينُ البحرِ لولا حدة في ظَهْرِه لم يقوَ للطوفانِ
 وإذا اكتسى الإنسانُ قيل تمثلاً في المدح قامتْ حدة الإنسانِ
 يفديك في الحدبانِ كل مكوبِجٍ يمشي الهويناً مشيةَ السرطانِ
 متجمعُ الكتفينِ أَقْنَصَ قد بَدَا في هيبةِ المتجشعِ الصفعانِ

فهذا مدح في معرض السخرية واضح كل الوضوح ، فمن هذا الذي هو أوحَد
 الأمراء في الحدبان ؟ ومتى كان للحدبان أمير ! إنه العبث والسخرية ، ثم لم يزل يعبث
 حتى جعل هذه الحدة ردفا زائدا ، والزيادة خير ! ثم شبه مشيته بمشية السرطان وهي مشية
 عجيبة ، وشبه شكله وحده بصورة من تجمع ينتظر الصفع لينزل على قفاه .

ومن التهكم قول ابن الرومي : (١)

فياله من عملٍ صالحٍ يرفعهُ اللهُ إلى أسفلٍ

تلاعب بالألفاظ كعادة ابن الرومي ، وسخرية بهذا العمل الذي سماه « صالحا »
 وهو يقصد في الحقيقة أنه « باطل » ، قدم له بلغة تشعر بالتعظيم « فياله ! » ثم أخبر عنه
 بأنه مرفوع ولكن إلى أسفل ، والرفع لا يكون إلا إلى أعلى ، ولكنه عكس الشاعر للكلام
 بقصد السخرية والتهكم .

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢١٦/١ .

ومن أظرف أمثلته كما عند ابن حجة قول حماد عجرد في ابن نوح وكان يدعي العربية وهو أعجمي (١) :

فيا ابنَ نُوحٍ يا أخا الجَلْسِ ويا ابنَ القَتَبِ
ومَنْ نَشَأَ والدَّهُ بين الرُّبَى والكُتُبِ
يا عربي يا عـربي يا عربي يا عربي

يتظاهر الشاعر بمدح ابن نوح فينسبه إلى أخوة المجلس ، وبنوة القتب ، أما أبوه فهو الذي نشأ بين الربي والكتب ، وإنما يقصد أن يعرض بعربيته الأصيلة ، فهو عربي عربي عربي ، وهذا التكرار مع النداء هو خاتمة هذه السخرية العابثة في قصيدة كلها تهكم تخفى في ثوب المدح فالعربي لا يحتاج إلى من يثبت عربيته ويدافع عنها .

ومما سبق يتضح لنا أن التهكم مصطلح بديعي يجمع تحته عدة أساليب الغرض والقصد منها السخرية والهزء ، وهو أسلوب شائع ورد في القرآن الكريم ، ودار على السنة الشعراء والأدباء .

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢١٦/١ .

الاقتباس والتضمين الساخر

وكان بعض الساخرين يلجأ في سخرياته إلى الاقتباس أو التضمين بأن يقتبس شيئاً من القرآن أو الحديث « ولا ينبه عليه للعلم به » (١) أو يضمن شعره شيئاً من شعر غيره مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً (٢) .

واختلفوا في جواز تغيير المقتبس إذا كان من القرآن ، فمن البلاغيين من منع (٣) ومنهم من أجاز تغييراً يسيراً (٤) ، وحجة المانعين هي التورع وتنزيه القرآن عن هذا التغيير والتبديل ، والأظهر أن هذا النص المقتبس ليس المقصود به القرآن « بل هو كلام وجد نظمه في القرآن وأريد به غير القرآن ، فلو أخذ مراداً به القرآن كان ذلك من أقبح القبيح ومن عظام المعاصي » (٥) ولذلك عرف صاحب الإيضاح الاقتباس بقوله : أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه (٦) . فهو ليس بقرآن حقيقة بل كلام يماثله بدليل جواز نقله عن معناه الأصلي ، وذلك في القرآن لا يجوز (٧) .

وقد أثر مثل هذا التغيير في النص المقتبس في شعر بعض شعراء الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين الذين تأثروا بالقرآن عند نزوله فضمنوه بعض أشعارهم وهم من هم في

(١) حسن التوسل ٣٢٣ .

(٢) بغية الإيضاح ١٣٤/٤ .

(٣) انظر البديع من المعاني والألفاظ ، د. عبدالعظيم المطعني ١٤٩ .

(٤) انظر مثلاً بغية الإيضاح ١٣٣/٤ ، وجواهر البلاغة ٤١٤ .

(٥) عروس الأفراح ٥١٠ ، ٥٠٩/٤ .

(٦) الإيضاح ٥١٠ ، ٥٠٩/٤ .

(٧) أنوار الربيع ٢١٩/٢ .

الورع والتقى ، يقول النابغة الجعدي رضي الله عنه : (١)

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

المولج الليل في النهار وفي الليل نهاراً يفرج الظلما

اقتبس الآية الكريمة : «يولج اليل في النهار ويولج النهار في اليل» (٢)

وقول حسان رضي الله عنه يصف النبي ﷺ وحاله مع قومه : (٣)

عزيز عليه أن يحدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

ضمنه قوله تعالى : «عزيز عليه ما عتتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم» (٤)

والاقتباس كما عند البلاغيين ثلاثة أقسام : مقبول ، ومباح ، ومردود فيجعلون من الأول ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ، والثاني ما كان في الغزل والرسائل والقصص ، والثالث على ضربين : أحدهما مانسبه الله تعالى إلى نفسه ، ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه ، كما قيل عن أحد بني مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية من عماله : «إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم» والآخر تضمين آية كريمة في معنى الهزل . (٥)

والأقرب للصواب أن الاقتباس قسمين ، مردود ومقبول ، فما كان في معنى هزل أو سخرية أو مجون أو نحو ذلك فإنه مردود ، وما كان غير ذلك مما لا يتنافى مع جلال القرآن والسنة وقدسيتهما فهو مقبول .

(١) شعر النابغة الجعدي ١٣٢ ، جمعه عبدالعزيز رباح .

(٢) بعض الآية (٦) من سورة الحديد .

(٣) شرح ديوان حسان بن ثابت ١٤٩ ، عبد الرحمن البرقوقي .

(٤) بعض الآية (١٢٨) من سورة التوبة .

(٥) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب ٤٥٥ / ٢ .

وفي ذلك لابن الرومي اقتباس ظريف في السخرية من ذلك الذي مدحه فلم ينل منه مايرضيه ، فقال فيه : (١)

لئن أخطأتُ في مدحك ما أخطأتُ في منعي
لقد أنزلتُ حاجاتي بوادٍ غير ذي زرع

والمعنى المقتبس هنا من الآية الشريفة «ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم» (٢) ، فنقل عن معناه الأصلي بناء على أنه ليس بقرآن حقيقة فقد كني به عن الرجل الذي لا تنفع لديه ، والمراد به في الآية الشريفة مكة شرفها الله (٣) .

ومن الاقتباسات الساخرة قول الأبيوردي في معنى قريب من معنى ابن الرومي السابق : (٤)

وقصائدٍ مثلُ الرياضِ أضعتُها في باخلٍ ضاعتَ به الأحسابُ
فإذا تناشدها الرواةُ وأبصروا الممدوحَ ، قالوا ساحرٌ كذابُ

ما أبدع هذا العذر والطف هذه الحيلة التي استطاع الشاعر بها أن يتبرأ من تلك القصائد التي دبَّجها في ذلك الباخل اللثيم ، فهو لم يمدح بإرادته بل كان مسلوب الإرادة فإذا مارأى الناس ذلك الممدوح وسمعوا المدح فيه أيقنوا إنما هو ساحر كذاب .

(١) أنوار الربيع ٢/٢١٩ .

(٢) الآية (٣٧) من سورة إبراهيم .

(٣) انظر أنوار الربيع ٢/٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٤) معاهد التنصيص ٤/١٤٠ .

ومن ظريف التضمين الساخر ماحكي أن الحيص يبص (*) الشاعر قتل جرو كلب
وهو سكران ، فأخذ أبو القاسم القطان الشاعر كلبه وعلق في رقبتها قطعة وأطلقها عند
باب الوزير ، فأخذت القطعة من عنقها وأدخلت على الوزير ، فإذا فيها مكتوب : (١)

يا أهل بغداد إن الحيص يبص أتى بخزية أورثته العار في البلد
أبدى شجاعته بالليل مجترئاً على جري ضعيف البطش والجلد
فأنشدت أمه من بعد ما احتسبت دم الأيلاق عند الواحد الصمد :
أقول للنفس تأسأء وتعزية إحدى يدي أصابتي ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

البيتان الأخيران لامرأة من العرب قتل أخوها ابناً لها فقالتا تسلية لنفسها (٢).
وقد أحسن الشاعر في الثأر لجروه ، فألبس الحيص يبص عاراً لن يفارقه أبداً ، وها نحن
بعد مئات السنين نروي هذه السخرية من الحيص يبص وفعلته التي أورثته العار .

ومن التضمين الساخر البديع أبيات لأحد شعراء مصر في القرن السابع الهجري
حيث الفكاهة والسخرية وجدت حظها الوافر ، ضمن الشاعر أيدير المحيوي (**) أبياتاً
لامرئ القيس فجعلها أعجازاً لقصيدته التي يسخر فيها من أحد البخلاء ، يقول : (٣)

(*) سعد بن محمد بن سعد المعروف بحيص يبص الفقيه الأديب الشاعر من أعلم الناس بأخبار
العرب وسمي بذلك لأنه رأى الناس في أمر شديد فقال ما للناس في حيص يبص فبقي عليه
هذا اللقب ، توفي ٥٧٤ هـ . معجم الأدباء ١١/ ١٩٩ .

(١) معاهد التنصيص ٤/ ١٦٢ .

(٢) انظر شرح الحماسة للتبريزي ١/ ١١٠ .

(**) علم الدين أيدير المحيوي شاعر تركي ، وكان مملوكاً فأعتق ، كان واسع المعرفة بعلوم عصره
وله ديوان شعر وموشحات ، توفي نحو ٦٥٠ هـ . فوات الوفيات ١/ ١٤٠ .

(٢) جوهر الكثر ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

ترى ضيفه المسكين جوعاً كأنه لدى سمرات الحي ناقف حنظل
 فما مطعم الأضياف من منزلي سوى نسيم الصبأ جاءت برّياً القرنفل
 ولو ذقت لي خبزاً لفاضت مدامعي علي التخر حتى بلّ دمي محملي
 ألت تراني كيف غطيت سفرتي بشق وتحتي شقها لم يحول
 وكم رمت منها كسرة فتعدّرت علي وآلت حلفة لم تحلل
 فيالك من رُغفان خبز كأنما بكل مغار القتل شدت يذبل
 أخف من اليقطين رأساً كأنه كجلمود صخر حطه السيل من عل

مسكين هذا الضيف الذي يظل يومه لدى سمرات الحي واقفا يبكي حظه الذي
 رماه على هذا الباخل اللثيم ، الذي يقري أضيافه نسيم الضبا ؛ لأن عينيه لا تصبران على
 رؤية خبزه وهو يؤكل ، وهو من لؤمه يحاول إخفاء طعامه بغطاء ولكن هذا الغطاء
 لا يغطي السفرة كلها فلا يتوانى هذا الباخل عن الجلوس على بقية الطعام حتى يغطيه عن
 أعين أضيافه ، إنها صور بديعة مضحكة هذا الذي يجلس على الطعام حتى لا يرى وتلك
 الرغفان التي شدت وأوثقت ، وذلك الضيف المسكين الذي يظل نهاره لدى سمرات الحي
 يندب حظه .

ومن أكثر من استخدام الاقتباس والتضمين في السخرية الشاعر الحمدوني الذي
 اشتهرت سخرياته من شاة سعيد وطيلسان ابن حرب (١) ، ويعتمد في تهكمه بالشاة أو
 سخريته بصاحبها سعيد على المبالغة في وصفها بالهزال ، وجعلها تتغنى دائماً - كأنها
 عاشقة - بحبيبها ألا وهو العلف الذي حرمت منه فحينما يراه تتحرك عواطفها وتجيئ

(١) انظر طبقات الشعراء ، لابن المعتز ٣٧٠ ، تحقيق عبدالستار فراج .

فتتغنى بيت يضمن من إحدى الأغاني المشهورة في عصره ، فيظهر الشاة كأنها عاشقة مدنفه ، ولهذا فهي مهزولة دائماً وليست إلا جلدأ أو عظاما (١) .

ومن ذلك قوله يخاطب أبا سعيد ساخرأ به ويشاته : (٢)

أبا سعيد لنا في شـاتك العبر	جاءت وما إن لها بول ولا بعر
وكيف تبعر شاة عندكم مكثت	طعامها الأيضان الشمس والقمر
لو أنها أبصرت في نومها علفاً	غنت له - ودموع العين تنحدر :
يامانعي لذة الدنيا بأجمعها	إني ليقنعني من وجهك النظر

ومن تضميناته الشهيرة قوله في هذه الأضحية التي أهداها إليه سعيد بن أحمد بن

جوسبنداد : (٣)

أسعد قد أهديتني أضحية	مكثت زمانا عندكم ما تطعم
نضوا ، تغامزت الكلاب بها وقد	شدوا عليها كي تموت فيقضوا
فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهم	لا تهزءوا بي ، وارحموني ترحموا
مرت على علف ، فقامت لم ترم	عنه ، وغنت - والمدامع سجم :
وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي	متأخر عنه ولا متقدم

(١) انظر السخرية في الأدب العربي ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ، جمع د. نعمان طه ٢٥٩ ، ضمن كتاب السخرية في الأدب العربي .

(٣) المرجع السابق ٢٦١ .

هذه كلها تضمينات ساخرة أخرجها الحمدوني على لسان تلك الشاة التي أصبحت مثاراً للسخرية ، أكثر الشاعر من التهكم والتهزؤ بصاحبها حتى صارت نقمة عليه .

ومثل ذلك أيضاً سخرياته من طيلسان ابن حرب ، وكان من المنعمين عليه المحسنين إليه ، وكان الحمدوني يستخدم التضمين في سخرياته تلك ، من ذلك قوله : (١)

وهبت لنا ابن حرب طيلسانا	يزيد المرء ذا الضعة اتضاعا
يسلم صاحبي فيقد شـبرا	به ، وأقد في ردي ذراعاً
أجيل الطرف في طرفيه طولاً	وعرضاً ، ما أرى إلا رقاعاً
فلست أشك أن قد كان قدماً	لنوح في سفينه شـراعاً
فقد غيت إذ أبصرت منه	جوانبه على بدني تداعى :
قفي قبل التفرق يا ضـباعاً	ولا يك موقف منك الوداعاً

سخرية كان قوامها هذه اللغة الهازلة ، والمبالغة في تصوير رثالة هذا الطيلسان الذي ينقد عند أدنى حركة حتى كأنه من قدمه كان شراعاً لسفينة نوح ، ثم ختم سخريته بهذا التضمين البديع الذي يظهر فيه الشاعر الجد وهو يتماجن ويتباكى فيصور موقف وداع يضمه شعره وإنما قصده العبث والسخرية .

ويكثر الحمدوني في سخرياته من الاقتباس من القرآن ، فابن سعيد يصيح من وراء الحجرات كشاعر بني تميم الذي صاح بالنبي ﷺ أن يخرج إليه لمنافرته ومفاخرته (٢)

(١) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٩ ، والبيت المضمن للشاعر القطامي .

(٢) المرجع السابق ٢٥٩ .

ويذكر قصة أصحاب الجنة (١) والسامري الذي عبد العجل (٢) ويستخدم آيات كثيرة :
 ﴿الروح من أمر ربي﴾ (٣) ﴿كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ (٤)
 ﴿أءذا كنا عظماً نخرة﴾ (٥) ، وهناك مقطوعة رائية أقامها على تضمين خمس آيات
 من سورة القمر (٦) فمن هذه الاقتباسات الساخرة قوله : (٧)

صاح بي ابن سعيد	من وراء الحجرات
قرب الناس الأضاحي	فأنا قربت شأتي
شاة سوء من جلود	وعظام نخرات
كلما قدمته للـ	لذبح قالت : واحياتي !

فقد لمز ابن سعيد بتضمينه الآية الكريمة : ﴿إن الذين ينادونك من وراء
 الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ (٨) .

ومن ذلك سخريته من طيلسان ابن حرب بقوله : (٩)

أيا طيلسانني أعيت طيبي أسل بجسمك أم داء حب ؟

(١) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ٢٦٣ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٦) المرجع السابق ٢٦٦ .

(٧) المرجع السابق ٢٥٩ .

(٨) الآية (٤) من سورة الحجرات .

(٩) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٣ .

ويأريح ، صيرتني أثقيلك وقد كنت لا أتقي أن تهبي
ومستخبر خبر الطيلسان فقلت له : الروح من أمر ربي
فهو طيلسان عجيب لا يعلم كنهه أحد ، كالروح لا يعلم وصفها أحد .
ومنه قوله : (١)

قل لابن حرب طيلسا . نك قوم نوح منه أحدث
يودي إذا لم أرفه وإذا رفوت فليس يلبث
كالكلب إن تحمل عليه — الدهر أو تتركه يلهث
اقتبس الآية الكريمة : « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه
يلهث » (٢) .

ومن ذلك هذه المقطوعة التي ضمنها الحمدوني عدة آيات من سورة القمر يسخر
فيها من ابن حرب وطيلسانه ، فيقول : (٣)

طيلسان ابن حرب جاءني خلعة في يوم نحس مستمر
فإذا ما صحت فيه صيحة تركته كهشيم المحتظر
وإذا ما الريح هبت نحوه طيرته كالجراد المنتشر
مهطع الداعي إلى الرافي إذا مارآه قال : ذا شيء نكر
وإذا رفاؤه حاول أن يتلافاه تعاظي فقمر

(١) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٣

(٢) بعض الآية (١٧٦) من سورة الاعراف .

(٣) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٦ .

كما اقتبس الشعراء من الحديث الشريف فضمنوه أشعارهم وربما كان ذلك في موضع سخرية من خصومهم ، فوظفوا ذلك النص الشريف وما له من قيمة تاريخية و قدسية وشيوع حتى يكون ذلك أقوى في الإدعاء ، ويظهر الساخر وكأنه يستند إلى حجة لها من القوة والتصديق والطرافة ما يجعل السامع يسلم له بدعواه .

من ذلك قول أبي الحسن علي بن المفرج المنجم لما احترقت دار الوجيه ابن صورة بمصر: (١)

أَقُولُ وَقَدْ عَايَنْتُ دَارَ ابْنِ صُورَةٍ وَلِلنَّارِ فِيهَا مَارِجٌ يَتَضَرَّمُ
كَذَا كُلِّ مَالٍ أَصْلُهُ مِنْ نَهَاوِشٍ فَعَمَّا قَلِيلٍ فِي نَهَابٍ يُعَدُّ
وَمَا هُوَ إِلَّا كَأَنَّ طَالَ عَمْرُهُ فَجَاءَتْهُ لَمَّا اسْتَبْطَأَتْهُ جَهَنَّمُ

سخرية مرة ، وشماتة حارة صيها أبو الحسين على هذا المنكوب الذي لم يكفه ما أصابه حتى سلخه الشاعر بهذه السخرية التي يلزمه فيها بأكل الحرام ، فما نبت من سحت فالتار أولى به ولكنها نار مستعجلة بل عقوبة معجلة ، وضمن الشاعر أبياته الحديث الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أصاب مالا من نهاوش ، أهلكه الله في نهاير » والنهاوش المظالم ، والنهاير المهالك (٢) .

ومن الاقتباسات الساخرة التي ضمن فيها الحديث الشريف هذه المقطوعة للحمدوني في طيلسان ابن حرب ، يقول : (٣)

(١) خزنة الأدب وغاية الأرب ٢ / ٤٧٢ .

(٢) كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ٢ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ . قال الألباني : « ضعيف » في ضعيف الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير) لمحمد ناصر الدين الألباني ٥ / ١٦٦ .

(٣) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٨ .

وطيلسان إن تأملتُه قددته بالطول والعرض
 كأن إشفافي عليه إذا غدوت إشفافي على عرضي
 لو أننه بعض بني آدم كان أسير الله في الأرض

أبداع في تصوير رقة هذا الطيلسان الذي ينقد من مجرد التأمل ، والذي بلغ من رفته وراثته أن صاحبه يراعيه ويشفق عليه كما يشفق ويراعي أغلى الأشياء عنده ، وهو في القدم كالشيخ الطاعن المعمر ، وقد ضمن الشاعر سخريته هذه ماجاء في حديث طويل أن الرجل المسلم « إذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وسمي أسير الله في الأرض » (١) .

وقد شاع في العصور العباسية المتأخرة استخدام المصطلحات العلمية واقتباسها للشعر والكتابة شيوعاً قوياً (٢) . وكان لابن سنان الخفاجي رأي وجيه غاب عن بعض الدارسين (٣) فأخذ أحدهم يسطر ما سماه ثورة ابن سنان على استخدام المصطلحات العلمية في الشعر واعتبر ذلك وضعاً للألفاظ في غير موضعها ، ثم رأى هذا الباحث أن ابن سنان كان موفقاً في إنكاره هذا الصنيع من أدباء عصره ، فالشعر العربي شيء والعلم شيء آخر ، ثم يلوي إلى ابن الأثير فينكر عليه ترويح هذا المسلك ، ويرجع هذا الترويح إلى استخدام المصطلحات عند ابن الأثير إلى فساد الذوق والتأثر بالرطانات التي طبعت نقاد عصره بطابعها (٤) .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ٥٦٢٠/٢ ، والحديث بروايتين إحداهما موقوفة وهي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ورقمها ٥٦٢٠ ، والأخرى مرفوعة إلى النبي ﷺ وهي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقمها ٥٦٢١ .

(٢) انظر الصبغ البديعي ٣٦٥ .

(٣) انظر المثل السائر ٢١٢/٣ .

(٤) انظر الصبغ البديعي ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

والأظهر أن رأي ابن سنان ليس كما فهموا أو ذهبوا، فهو لم ينكر على تضمين الشعر بعض المصطلحات العلمية إنكاراً مطلقاً بل أنكر وعاب وضع هذه المصطلحات في غير موضعها والتكلف والإفراط في استعمالها وضرب على ذلك عدة أمثلة أظهر أن التكلف هو الذي أفسدها ولكنه عندما بلغ عند شعر ظريف للشاعر الواق الذي كان موصوفاً بالخلاعة والمجون والذي كان ينظم أشعاراً في حائك وإسكاف وصائغ ومن يجري مجراهم ، يستعمل ألفاظ تلك الصناعة ومعانيها في ذلك الشعر - عندما بلغ قول الواق في غلام إسكاف - : (١)

إِنْ سَنَّ بِالْهَجْرَانِ شَفْرَتَهُ لِقَدْ قَلْبِي قَدْ مُجْتَهِدٌ
فَلَأَصْبِرَنَّ كَصَبْرٍ تَجْتَجِعُ مُتَمَسِكاً بِمُحَلِّ الْعَقْدِ

علق عليه بقوله : « وهذا - أي تضمين المصطلحات - إنما يسوغ على هذا السبيل من الهزل والخلاعة ، فأما في باب الجحد فليس يحسن أن يستعمل في كل موضع منه إلا الألفاظ اللاتقة به » (٢).

فتضمن المصطلحات إذا كان على سبيل الهزل والسخرية والخلاعة والتماجن فهو سائح ، أما إذا كان تقعراً وتفلسفاً بمناسبة وبدون مناسبة فهو مرفوض ، وكما قال ابن الأثير : « هذا النوع إذا استعمل على الوجه المرضي كان حسناً ، وإذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحاً » (٣).

ومن التضمن البديع الساخر للمصطلحات العلمية قول أبي الطيب المتنبي يصف حاسديه : (٤)

(١) سر الفصاحة ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المثل السائر ٣/٢١٥ .

(٤) ديوان المتنبي ٤/٢١٠ .

حولي بكل مكانٍ منهم حَلَقٌ تُخْطِي إذا جئتَ في استفهامها بمن

هذا اقتباس من علم النحو . ينصحك أبو الطيب : إذا استفهمت عن مثل هؤلاء الأقسام ألا تستفهم بمن ؛ لأن من لمن يعقل وهؤلاء عنده بمنزلة مالا يعقل ، فحقهم أن يستفهم عنهم بما (١) .

ومنه قول ابن عنين(*) في رجل ولي ثم عزل : (٢)

فلا تغضبَنَّ إذا ما صُرِفَتْ فلا عدلَ فيكَ ولا معرفةً

وهذا أيضاً من التضمين من علم النحو فالصرف والعدل والمعرفة كلها مصطلحات نحوية وظفت هنا أحسن توظيف فجاءت دلالتها ساخرة ، فهذا المعزول إنما صرف عن منصبه لأنه ليس صاحب عدالة وليس من أصحاب الجاه والمعرفة .

ومن هذا قول بعضهم : (٣)

وفتَى مَنْ مَازَنٍ فَاقَ أَهْلَ البَصْرَةِ
أَمُّهُ مَعْرِفَةٌ وَأَبُوهُ نَكْرَةٌ

استخدم الشاعر هذين المصطلحين المعرفة والنكرة في قذف هذا الفتى بطريقة فيها سخرية مرة وخفة وعبث .

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ٤٧٥/٢ .

(*) محمد بن نصر بن الحسين بن عنين ، خاتمة الشعراء في عصره ، اغزير المادة مطلع على معظم أشعار العرب ظريف وتولى الوزارة بدمشق في أواخر دولة الملك المعظم ، توفي سنة ٦٣٠ هـ بدمشق . وفيات الأعيان ١٤/٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المثل السائر ٢١٥/٣ .

وكذلك ورد من هذا النوع في شعر بعض العراقيين يهجو طبيباً ، قال : (١)

قال حمارُ الطيب يوماً لو أنصفوني لكنتُ أركبُ
لأنني جاهلٌ بسيطٌ وراكبي جهله مرَّكبُ

فهذا تضمين لمصطلحات منطقية ، الجهل البسيط ، والمركب .

وخلاصة القول إن الاقتباس والتضمين فن بديع يصلح أن يكون أسلوباً جميلاً من أساليب السخرية حيث يوظف الساخر الموهوب تلك النصوص التي يقتبسها أو يضمونها في السخرية من خصومه ، ويستعين بما لهذه النصوص المضمنة من شهرة ووقع وأثر في النفوس فيستغله حتى تبدو سخريته قوية ومؤثرة .

**ملخص البحث
وأهم نتائجه**

ملخص البحث وأهم نتائجه

هذا البحث الذي تقدم دراسة تناولت فيها أساليب السخرية في البلاغة بالدراسة والتحليل والتطبيق ، وقد كان في ثلاثة فصول رئيسة سبقها مقدمة وتمهيد ، وكان التقسيم وفق منهج اقتضته طبيعة الدرس البلاغي وطبيعة موضوع البحث ، وقد أشرت في المقدمة إلى أهمية هذا الموضوع في الدراسات الأدبية والنقدية . وأوضحت الأسباب التي دعيتني لاختياره ، ثم تحدثت عن الجوانب الرئيسية التي تناولها البحث بالدراسة ، ثم فصلت القول حول المراجع الأساسية للبحث وبعض الدراسات الحديثة التي أفاد منها ، ثم أوضحت المنهج العلمي الذي قامت عليه هذه الدراسة .

وانتقلت بعد ذلك إلى التمهيد فجعلته في عنوانين رئيسين ، يتحدث الأول منهما عن السخرية بين المدلول اللغوي والاستعمال الفني . ولا شك أن أي دراسة جادة لابد أن تبدأ بدراسة المصطلحات المهمة ذات الصلة بموضوع البحث . وللموضوع الذي نتناوله بالبحث عدة ألفاظ في العربية ، فالسخرية ، والتهكم والاستهزاء ، والاستخفاف ، والتندير ، والضحك ، والإهانة ، والاحتقار ، كلها ألفاظ تدور حول معنى معين ، لكن دلالتها على هذا المعنى ليست بدرجة واحدة فالألفاظ الأربعة الأولى تفسر في المعاجم بمعنى واحد هو ما اصطلاح على تسميته (بالسخرية) ، أما بقية الألفاظ ، فالتندير والضحك قد تستعمل بمعنى السخرية وغيرها ، أما الإهانة والاحتقار فقد اكتسبا دلالتها على السخرية من الاستعمال الغالب لهما بهذا المعنى في كتب الأدب والنقد والبلاغة ، ولأنهما يكادان يلزمان السخرية ملازمة تامة .

ثم تحدث البحث عن تعريف السخرية والصعوبة التي يواجهها المتصدي لهذا العمل ، فرغم كثرة استخدام لفظة السخرية وجريانها على الألسنة وورودها في القرآن الكريم في عدة آيات قرآنية إلا أنها لم تحظ بتعريف جامع مانع . وقد قام البحث بتتبع أشهر التعريفات التي تعرضت لهذا المصطلح . ثم بدأ الحديث عن جوانب الاستعمال الفني للسخرية وعلاقتها ببعض الفنون التي تشترك وتتداخل معها بروابط أساسية ترجع إلى طبيعة التكوين ، وهذه الفنون هي الهجاء والفكاهة والضحك . وقد تحدث البحث تحت هذا العنوان الأول من عنواني التمهيد عن طبيعة السخر وبعض خصائصه .

أما العنوان الثاني في هذا التمهيد فيتتبع المصطلح والظاهرة في التراث البلاغي ، وبدءاً ينبغي أن نعلم أنه لم يكن لموضوع السخرية والتهكم في كتب الأقدمين - فيما أعلم - مصنف مستقل ، بل كانت مباحثه وأساليبه وأمثله مبعثرة في كتب البلاغة والنقد والأدب ودواوين الشعر ، فمن هذه الكتب ما تناول مجموعة من أساليبه ومباحثه ، ومنها ما اكتفى بالحديث عن مبحث أو أسلوب واحد ، بل ومنها ما أشار مجرد إشارة عابرة إلى أن هنا تهكم أو أن هناك سخرية .

وكان من أوائل هذه الإشارات والأمثلة الساخرة ما نجده في كتب الجاحظ (البيان والتبيين والحيوان والبخلاء) وفي بعض رسائله ، ومن أوائل من تناولوا بعض جوانب هذا الموضوع عبدالله بن المعتز في أول مصنف بلاغي وهو كتاب (البديع) ومنهم قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) والآخر المنسوب إليه المسمى (بنقد النثر) وبعد قدامه يأتي أبو هلال العسكري فيتناول بعض جوانب هذا الموضوع في كتابيه (الصناعتين وديوان المعاني) ومن الذين تناولوا بعض مسائل هذا الأسلوب أبو الحسين أحمد بن فارس في كتابه (الصاحبي) ومنهم ابن رشيق

القيرواني في كتابه (العمدة) ويأتي بعده ابن سنان الخفاجي وكتابه (سر الفصاحة) ويأتي بعد هؤلاء إمام البلاغين عبدالقاهر الجرجاني فيتناول في كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) كثيراً من المسائل المتفرقة مما يتصل بموضوع هذا البحث ، ويعقب الحديث عن جهود عبدالقاهر الحديث عن مدرسة التلخيص وشروحه ومدى استفادة البحث والدرس البلاغي منها ، ويأتي بعد ذلك ضياء الدين ابن الأثير الذي يعد كتابه (المثل السائر) نموذجاً للتأليف القديمة التي مزجت بين البلاغة والنقد والأدب ، وقد تناول بعضاً من مسائل هذا الأسلوب ، وبعده ابن أبي الإصبع الذي تناول في كتابه (تحرير التحبير) كثيراً من المسائل التي خطا بها البديع خطوات واسعة ، ويأتي بعده ابن الأثير الحلبي صاحب (جوهر الكنز) ، ويحيى بن حمزة العلوي الذي جمع في كتابه (الطراز) كثيراً من المسائل مما له علاقة بموضوع بحثنا هذا ، وكان آخر من وقف بنا المطاف عندهم ابن حجة الحموي صاحب البديعية الشهيرة وشرحها الذي سماه (خزانة الأدب وغاية الأرب) وهو مجموع أدب جيد تناول فيه كثيراً من أساليب السخرية .

ومن المصنفات التي تناولت هذا الموضوع كتب التفسير ، حيث كان يشيع الحديث عن السخرية والتهكم ويكثر عند المفسرين ، فيتناولون كثيراً من الأساليب الساخرة في القرآن الكريم بالتحليل ، نجد ذلك خصوصاً عند الزمخشري في (الكشاف) وأبي السعود في تفسيره المسمى (بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) وعند الألوسي في (روح المعاني) .

وبعد هذه الجولة السريعة في رياض كتب الأقدمين بدا واضحاً ما لأساليب السخرية من شيوع وانتشار واسع في كتب التراث ، وإن كانت لم تفرد بكتاب إلا أنها تمثل ظاهرة واسعة مبثوثة في كثير من كتب الأدب والنقد وشروح الدواوين

وكتب المفسرين ، وفي معظم أبواب البلاغة على اختلاف فنونها ، وهذا ما توضح جليا في تناولنا للفصول الثلاثة التي يتكون منها هذا البحث وهي السخرية في علم المعاني وفي البيان والبديع .

وأول هذه الفصول يتحدث عن السخرية في أساليب علم المعاني وأول مباحثه (السخرية باستعمال الكلمات غير الفصيحة) فمن شروط الفصاحة عند البلاغيين خلوص الكلمة من تنافر الحروف والغرابة ، وخلوها من الكراهة في السمع ، وخلو الكلام من تنابع الإضافات .

وقد يكون استعمال هذه الألفاظ غير الفصيحة باعثاً على السخرية . فهناك ألفاظ غير فصيحة في المعجم اللغوي استعملت في مواضع التشويه أو الذم والسخر .

من ذلك ما جاء عند ابن فارس تحت باب (زيادات الأسماء) لغرض الذم والتشويه والتقبيح ، وما أورده الثعالبي في كتابه فقه اللغة من أسماء غريبة لبعض العيوب الجسمية ، كالسمن فرجل سمين وبلندح وعكوك ، وامرأة رضراضة وعركركة ، وكالقصر ، فرجل قصير ودحداح وبحتر وحنشار ، كل هذه أسماء غريبة ذات أصوات عجيبة إذا أطلقت على شخص أثارت السخرية به ، وأشاعت الضحك حوله .

ومن القضايا المتعلقة باستعمال غير الفصيح ما يتناوله العسكري في الصناعتين حيث يرى أن للكلام طبقات ومنازل ينبغي أن تقسم على طبقات الناس ومنازلهم ، فإذا اختل ذلك كان مدعاة للتهكم والسخرية ؛ لأن العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك وزرئ عليك . وفي الصناعتين وغيره أمثلة كثيرة لبعض

من غلب عليهم سوء الرأي ، وقلة العقل فيخاطبون السوقي والمملوك والأعجمي
بالفاظ أهل نجد ومعاني أهل السراة ، ومن هؤلاء أبو علقمة النحوي الذي روي
على لسانه كثير من ذلك .

ومن ذلك أيضاً أمثلة تنقلها كتب البلاغة ، بعضها عن أبي علقمة نفسه
حينما سقط عن حمارة فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكأكم علي تكأكم
على ذي جنة ، افرنقوا عني .

ومنها ما روي عن أعرابي أنه سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهعخع .
فما الهعخع ، لقد استشنعها الخليل بن أحمد وأنكر تأليفها كما سئل عنها الثقات
من علماء اللغة فأنكروها ، ولصاحب بغية الإيضاح في هذه الحادثة نظر دقيق حيث
يرى أن جواب الأعرابي هذا قد يكون معاية لا أصل لها ، والمعاية هي أن تأتي
بكلام لا يهتدي له . والأغلب أن الأعرابي إنما قصد التهكم بأولئك الذين جاءوا
يهرعون إليه .

ومن الشعراء الهجائيين من برع في استعمال الغريب والوحشي وربما في
تأليف بعض العبارات التي لا أصل لها ورزقوا إلى جانب ذلك معرفة بطرائق
الهجاء وأساليبه وعبقرية في الحس اللفظي تلتئم فيها الألفاظ بالصور التثاماً
عجيباً .

ومن أكثر الشعراء براعة في هذا جرير بن عطية ، فهجاؤه يستفز القارئ
للضحك قبل أن يروي في معناه ويحقق . وكثيراً ما كان يستعمل الألفاظ التي تدل
على الاستخفاف والسخرية لإيهامها وموسيقاها ، فكثير في هجائه الكلمات
الغريبة المتنافرة الحروف مثل : جوخي ، وخجخج ، والنخوار ، والجيثلوط

وخضاف ، وخيصف ، وقذام ، ووقبان ، وضوطر ، ورغوان ، والجلوبق .
ونلاحظ جلياً ماتشيعة هذه الألفاظ بموسيقاها ورنينها وغرابتها من إحساس
بالهزء .

وبهذا يصبح استعمال الغريب والوحشي والمتنافر في هذه السياقات من
الأساليب العالية التي تؤدي من المعاني البلاغية مايعجز عنه غيرها .

وثاني مباحث المعاني التي تأتي منها السخرية (التعريف) ، فالمسند إليه
يأتي معرفة ويأتي نكرة ولكل منهما مقام يستدعيه وسياق يقتضيه .

والغرض الرئيس من التعريف كمال التعيين وتمام الفائدة ، ثم هناك
أغراض أسلوبية أخرى وأسرار بلاغية . منها قصد السخرية والتهكم .

فإذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بأحد أنواع المعارف كالعلمية أو
الموصولية أو الإشارة أو الإضافة . فإنه ربما قصد بهذا التعريف السخرية والتهكم
وحيث إن التعريف تخصيص وتعيين وتقوية للمعنى فإن السخرية هنا تكون
واضحة قوية جلية .

فإذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بالعلمية ، فإنه يعرف لأغراض ومعان
عديدة ، ومن هذه الأغراض قصد الإهانة ، وذلك إذا كان العلم صالحاً لمذمة أو
إهانته ، سواء كان اسماً أو كنية أو لقباً . كأن يكون العلم اسماً قبيحاً مذموماً أو
منقولاً عن معنى خسيس ، أو كان كنية أو لقباً مشعراً بالذم .

والمناداة بالألقاب من أقدم أساليب السخرية ، ولما كان لها من وقع على
النفوس وقوة في التأثير فقد خصها الله عز وجل بالذكر والتعيين في سياق نهى
المؤمنين عن السخرية عموماً .

وكذا التعريف بالإشارة ، فالإشارة قد تكون حسية أو لفظية ، والإشارة الحسية من أقدم وسائل السخرية أيضاً ، وذلك عن طريق محاكاة الشخص المسخور منه في حركاته وإشاراته أو محاكاته في مشيته أو طريقة كلامه ، والإشارة واللفظ كما يقول الجاحظ شريكان نعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه .

ولما لهذه الإشارة من أثر قوي فقد نهى الله عز وجل عن استخدامها في السخرية من الناس وانتقاصهم ، فنهى سبحانه عن اللمز ، واللمز هو التنبيه على المعاييب وتتبعها ، وهو خاص بما كان من السخرية على وجه الخفية ، كالإشارة ونحوها .

أما الإشارة اللفظية فإنها وإن كانت لفظاً إلا أنها أيضاً تتضمن إحضار المشار إليه وتعيينه حساً ، والحالة التي تقتضي كون المسند إليه اسم إشارة هي متى صح إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حساً واتصل بذلك داع .

ومن هذه الدواعي والأغراض قصد التهكم والسخرية من المشار إليه وإلحاق الهوان والحقارة به ، أو رميه بصفات النقص والبلادة والغباوة .

وقد تكون السخرية إذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بالإضافة والإضافة هي أخصر طريق لإحضار المسند إليه في ذهن السامع ، ولتعريف المسند إليه بالإضافة أغراض شتى تفهم من السياق منها التهكم والاستهزاء ، كإضافة الله عز وجل الشركاء إليه يوم القيامة في مخاطبته للمشركين منكراً وموبخاً لهم ، فيضيف لفظ الشركاء إليه تعالى حكاية لما كانوا يقولونه في الدنيا توبيخاً لهم واستهزاء بهم ولا يخفى ما في هذه الإضافة من زيادة في التوبيخ والتهكم بهم ليست في أين أصنامكم مثلاً لو قيل .

وقد تكون السخرية أيضاً إذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بالصلة ويرى
عبد القاهر أن في الموصول علماً كثيراً وأسراراً جمّة ، وخفايا إذا بحثت عنها
وتصورتها ، اطلعت على فوائد تؤنس النفس وتثلج الصدر بما يفضي بك إليه من
يقين ، ويؤديه إليك من حسن التبيين .

والحالة التي تقتضي كون المسند إليه موصولاً هي متى صح إحضاره في
ذهن السامع بوساطة ذكر جملة معلومة الانتساب إلى مشار إليه واتصل بإحضاره
بهذا الوجه غرض . والأغراض كثيرة يدل عليها السياق ، ومنها قصد التهكم
والسخرية .

ومن أغراض التعريف بالصلة قصد الإيحاء إلى وجه بناء الخبر ، ثم إن هذا
الإيحاء ربما جعل ذريعة إلى الإهانة .

أما ثالث مباحث المعاني الساخرة فهو (وضع المظهر موضع المضمّر) وإن
ظاهرة وضع الاسم الظاهر موضع الضمير وإن كانت تبدو مسألة نحوية إلا أن
وراءها أسراراً بلاغية جمّة ، فللمسألة جانبان : أحدهما يتعلق بالإعراب والآخر
يتعلق بالمعاني .

والكلام كما عند البلاغيين قد يكون خارجاً على مقتضى الظاهر ، وقد
يكون خارجاً على خلاف مقتضى الظاهر ، ولذلك أغراض بلاغية ومعان
أسلوبيه . فمن الصور التي يخرج الكلام فيها على خلاف مقتضى الظاهر إذا وضع
الاسم الظاهر موضع الضمير ، فقد يكون مرجع الضمير الذي يعود عليه موجوداً
ظاهراً لا لبس فيه ، ولكن الأديب يؤثر أن يأتي بالاسم الظاهر مخرجاً الكلام على
خلاف مقتضى الظاهر وقاصداً إلى أغراض وأسرار بلاغية يؤديها هذا التصريح
ولا يقوم بها أو يؤديها ذلك الإضمار .

فمن ذلك : أن هذا المظهر إما أن يكون اسم إشارة أو لا يكون . فإن كان اسم إشارة ، فإنه يوضع موضع الضمير لعدة أغراض ، منها التحقير والتهكم بالسامع .

وقد يكون وضع المظهر موضع المضمحل للتنبيه على كمال بلاغة السامع بأنه لا يدرك غير المحس ، وقد يكون لغرض التحقير والتهكم .

ومن المباحث التي تأتي منها السخرية في علم المعاني (الاستفهام) وهو في حقيقته طلب الفهم ، إلا أن أدواته كثيراً ما تستعمل في غير طلب الفهم مما يناسب المقام بحسب معونة القرائن . وهذه المعاني والأغراض التي يخرج إليها الاستفهام لا يكشف عنها ويدل عليها نوع أداة الاستفهام فحسب ، ولا نوع ألفاظ الجملة وطريقة تركيبها فقط ، ولا رؤية المستفهم وحدها ، بل كل ذلك وغيره يشارك في الكشف عن دلالة هذه الجملة .

ووجه دلالة الاستفهام على هذه المعاني التي يخرج إليها تعددت فيه آراء العلماء ، فقليل إنه من قبيل المجاز المرسل ، وقليل إنه كناية وقليل إنه مستفاد من مستبعات التراكيب ، ولا يخفى أن الحمل على أحد هذه الآراء الثلاثة جائز في كل تلك المعاني ، وإن كان أولها اعتباراً أنها من مستبعات التراكيب .

ومن المعاني التي يخرج إليها الاستفهام وتأتي منها السخرية الإنكار والتهكم والتحقير ، ولكن الدلالة على السخرية ليست مقصورة في هذه المعاني الثلاثة ؛ لأن هذه المعاني وغيرها من المعاني التي يخرج إليها الاستفهام وغير الاستفهام يمكن أن يجتمع بعضها ويشترك في الدلالة على سياق واحد ، وهذا أمر طبعي في كثير من الأساليب البلاغية ، فكثيراً ما تتعدد المعاني البلاغية في السياق

الواحد ، ويندر أن يكون المعنى واحداً ، لذلك نلجأ عند تحليلنا لأسلوب استفهامي مثلاً إلى ذكر جملة من المعاني ؛ ذلك لأن المعاني التي يفيدها الاستفهام كثيراً ما تكون خفية وسانحة ومتفلتة ، والدلالة كما قيل بنت السياق والسياق إنما هو تركيب له خصائص وعناصر وعلاقات ، والتعرف على كل ذلك يساعد على معرفة دلالات السياق والكشف عن خفايا المعاني .

وفي السياق البلاغي يغلب أن يكون هناك معنى أو إحساساً مسيطراً أكثر ظهوراً من غيره ، ولا ينفي معاني أخرى متولدة ممتدة متصلة به ؛ ذلك لأن المعاني البلاغية للاستفهام معان شعورية انفعالية تموج بها النفس البشرية متداخلة متعانقة أو متقاربة .

والاستفهام الساخر من الأساليب الشائعة في البيان العربي شعراً ونثراً وهو من الأساليب الكاثرة في القرآن الكريم .

ومن الأساليب الإنشائية التي تناولها هذا البحث وتأتي منها السخرية أسلوب الأمر ، وله صيغ معروفة ربما استعملت في غير الطلب على جهة الاستعلاء ، تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال . عد القزويني منها الإهانة والتسخير والاحتقار ، وهي معانٍ تلازم السخرية والتهكم غالباً .

وقد جاءت أساليب الأمر الساخر في القرآن الكريم كثيراً ، فقد تكون لوناً من ألوان التعذيب النفسي يوم القيامة . وقد تكون تهكماً وسخرية على السنة الرسل عليهم السلام بمن يرى الحق واضحاً لامرية فيه ثم ينكص عنه تكبراً وعلواً وصور الأمر الساخر التي تصور مآل المشركين يوم القيامة كثيرة أيضاً ، وهي تصورهم في أوضاع تثير كثيراً من مشاعر النفس وانفعالاتها . ويحكى القرآن الكريم كثيراً من سخريات بعض الأقوام بأنبيائهم .

وتعد أساليب الأمر الساخر من أكثر الأساليب شيوعاً في شعر الهجاء لأن الهجاء أبداً يحاول أن يظهر الاستعلاء على مهجوه فيسلط عليه الأوامر الساخرة .

ثم تناول البحث أسلوباً آخر من الأساليب الإنشائية الساخرة هو أسلوب (النهي) ويعد النهي الساخر من المعاني الثانية التي تفهم من السياق وتستفاد من مستتبعات التراكيب وقرائن الأحوال ؛ لأنها في حقيقتها نقل للمشاعر التي تجيش بها النفس ، فإن استطعنا أن ندرك جانباً من هذه المشاعر عرفنا المعنى البلاغي الذي يدل عليه هذا الأسلوب .

ولما كان القرآن الكريم كتاب تشريع فقد كثرت فيه النواهي ، وقد بلغت صيغته في القرآن أربع مائة وصيغة واحدة ، خرج كثير منها إلى معان أخرى غير مجرد النهي . وفي الشعر العربي كثر استخدام النهي الساخر ، وربما استخدمه بعض الشعراء لا على سبيل طلب الكف ولكن على وجه يكون الكلام فيه خارجاً مخرج النصح والتماجن كما فعل الحطيئة مع الزبرقان .

ومن الأساليب الإنشائية التي تأتي منها السخرية أسلوب (النداء) وللنداء دلالات نفسية عميقة ، ومعان شعورية دقيقة ، وأغراض بلاغية كثيرة ، وقد تتبعنا بعض أساليبه في القرآن الكريم فوجدناه قد استعمل للدلالة على معان عجيبة ، وقد سمى القرآن الكريم يوم القيامة (يوم التناد) لكثرة التنادي فيه . ولما كان للنداء من وقع وأثر بالغ على النفس ، وخصوصاً المناداة بالألقاب ، فقد وجه الله المؤمنين إلى حسن المناداة مع نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام .

والمناداة بالألقاب من أقدم صور السخرية ، وقد نهى الله عنها وسمّاها فسوقاً ، ومن صور السخرية في النداء استخدام حرف النداء (يا) لمنادى قريب

خلافاً لأصل وضعها تنزيلاً للمنادى القريب منزلة البعيد وذلك لأغراض منها التهكم بالمنادى والإشارة إلى انحطاط شأنه وهوان قدره ومنزلته ، أو كونه بليداً بعيداً من التنبيه . وربما كان النداء أسلوباً قديماً للمعاينة والقذف والسخرية ، ذا صلة بالعرف الشعبي ولغة الحياة اليومية ، وأسلوب القول المتبادل بين عامة الناس فالمناداة بالألقاب والصفات والأسماء الساخرة التي تبتكرها أدهان الساخرين أسلوب شعبي شائع يحدث بين المتخاصمين في الأزقة الشعبية في عصرنا الحاضر وغير الحاضر .

ومن أساليب علم المعاني التي تناولها البحث وتأتي منها السخرية أسلوب التكرار ، وهو مقتل من مقاتل البيان دقيق المسلك والمأخذ ، يحوي على كل ما يتضمنه أي أسلوب آخر من إمكانيات تعبيرية ، ولكنه يحتاج إلى صاحب موهبة يسيطر عليه سيطرة كاملة ، ويستخدمه في موضعه ، وإلا فليس أيسر من أن يتحول هذا التكرار إلى ظاهرة لفظية مبتذلة . وهو أمر نسبي يخضع لاعتبارات عدة . ونلاحظ أنه ظاهرة أسلوبية واضحة في القرآن الكريم ، وذلك لحكم عظيمة نص على بعضها العلماء .

وللتكرار أغراض سياقية كثيرة لا يمكن حصرها ؛ لأن التكرار عبارة عن أسلوب تعبري يصور انفعال النفس ، وانفعالات النفس البشرية يصعب تحديدها في كثير من الأحيان ، ولكن الغرض الرئيس من وراء كل تكرار هو التأكيد ثم إنه يأتي لأغراض أخرى ، منها التهكم والسخرية .

والتكرار يلبي حاجة ملحة في نفس المتهكم ، إذ إن السخرية القائمة على التكرير تكون أشقى لنفس الساخر وألذع لنفس المسخور منه .

وللتكرار الساخر أساليب عدة ، فمنه ما تكون السخرية فيه ناشئة من المبالغة ومنه ما يكون عن طريق تكرار الاسم فقط على سبيل الاستخفاف به ، فكأن مجرد ذكره أصبح باعثاً على التفكه والضحك ، ومن أساليب التكرار التي تأتي منها السخرية ما يسمى تكرار المفارقة ، يكون لتأكيد التفريق على وجه التضاد ، ويقع التكرار في الهجاء على سبيل الشهرة وشدة التوضيح بالمهجو .

بهذا المبحث نكون قد انتهينا من الحديث عن الأساليب الساخرة في علم المعاني ، وننتقل إلى الفصل الثاني الذي يعالج أساليب السخرية في علم البيان وأول مباحثه (التشبيه الساخر) ، والتشبيه جزء أصيل في بلاغة اللغة العربية وآدابها ، وهو لون من ألوان التعبير الممتاز الأنيق ، وهو أشبه بوسائل الإيضاح التي تهدف إلى زيادة التأثير في النفس وتثبيت المعاني فيها ، فإذا كان ذمماً جاء موجعاً يبرز نقائص المهجو ويصورها واضحة للعيان ، فتكون الصورة أبلغ في الذم وأكثر تأثيراً في الخصم .

ولما كان التشبيه أحد أساليب البيان العالية فقد تكررت صورته في القرآن الكريم كثيراً ، وكان من بين هذه التشبيهات الصور الساخرة التي يصورها القرآن لأولئك الكافرين والمعاندين والمستكبرين ، فيسخر من كبريائهم وغرورهم ويسفه أحلامهم وعقولهم ، فنراه مرة يشبههم بالدواب والأنعام ، فيسلبهم العقل والتفكير ، ومرة يشبههم ببعض هذه الدواب كالحمار ، أو الكلب ، أو العنكبوت التي اتخذت بيتاً ، ويسخر القرآن من المنافقين فيشبههم بالخشب المسند ، ولقد كثرت التشبيهات الساخرة في القرآن الكريم .

والتشبيه فن أصيل في لغة العرب ، لذلك أكثروا منه ، وعرفت عندهم تشبيهات مشتهرة مستمدة من بيئتهم وحياتهم ومجتمعهم ، سلكوا بها طريقة معينة

تناقلوها وألفوها ، ومن ذلك تشبيهات تستعمل في حال المدح ، ولكن قد تسلك طريقة في التشبيه لا يكون الوجه فيها صفة مشتركة بين الطرفين ، فتستعمل هذه التشبيهات والمعاني الشريفة في ضدها ، ويتم هذا التشبيه عن طريق تنزيل هذا التضاد في الصفتين منزلة التناسب ثم ينتزع وجه الشبه من التضاد المنزل منزلة التناسب ويكون ذلك لغرض التمليح أو التهكم والسخرية .

والتشبيه غط من التصوير أداته اللغة ، فهو يبرز المعاني والأفكار في أشكال يجسمها ويصورها ويمثلها حية نابضة واضحة ، ويضعها أمام القارئ مشخصة بكل ما تتطلبه هذه الحياة من لون وحركة . وقد كان بعض الشعراء يمتلك عصباً خاصاً يتحسس به مظاهر النقص ، ومقدرة فائقة في التصوير (الكاريكاتوري) الساخر وهذه السخرية تعتمد على التخيل والتصور الدقيق والمبالغة في التقاط صورة مشوهة مضحكة للمهجو ، وهي نوع من النقد يعتمد في جملته على التماس العيوب الرئيسة لظاهرة معينة تعرض بأسلوب فني .

وقد قسم البلاغيون التشبيه إلى حسي وعقلي ، ومعنى حسية التشبيه أن يكون أحد أطرافه أو مادته التي يتركب منها مدركاً بإحدى الحواس الخمس بأن يكون من المسموعات أو المبصرات أو المشمومات أو المذوقات ، أو الملموسات والتشبيهات المحسوسة أقوى أثراً في النفس والوجدان ؛ لأن ما يدرك بالحواس أقوى مما يدرك بالعقل فليس الخبر كالمعاينة .

وقد برع بعض الشعراء في التصوير الحسي الساخر ، فكانت لهم ملكات وقدرات فائقة في تصوير نقائص مهجويهم ، فهم شديداً الملاحظة يملكون حاسة قوية نحو كل ماهو غير طبعي ، وينشدون الكمال والجمال لدى الآخرين في

الناحيتين الشكلية والنفسية ، وقد توجه كثير من الشعراء وبشكل واسع إلى السخرية من العيوب الشكلية والنقائص الجسدية ، واعتمدوا في ذلك على التصوير المبالغ فيه ، بوضع الشخص في صورة مضحكة ، كالمبالغة في تصوير عضو من أعضاء الجسم ، ومحاولة تشويهه بحيث يجعل هذا الشخص وكأنه لا يدرك ولا يعرف إلا بهذا العيب ، من ذلك المبالغة في تصوير ضخامة الجسم أو نحافته ، وقصر القامة أو طولها المفرط وارتفاع أحد الكتفين بصورة ظاهرة أكثر من الآخر ، وتصوير الشذوذ في ملامح الوجه يؤدي دوراً مهماً في هذا الصدد والأنف غير الطبيعي بصفة خاصة يعد مقياساً للشذوذ المثير للضحك ، وكذلك يصور الفم تصويراً ساخراً لاتساعه أو لعدم انتظام أسنانه أو لعيب في إحدى الشفتين . والشذوذ الحسي يدخل في هذا النطاق كالأعمى والأصم والأبكم ، فهؤلاء جميعاً يثيرون عاصفة من الضحك إذا سلكوا مسلكاً يحاولون به إنكار ما فيهم من نقص .

لقد تناول الشعراء كل عيب بالسخرية ، فسخروا من الأصوات الشاذة للمغنين والمغنيات ، فما أن يفاجأ الشاعر بصوت لا يعجبه حتى يتناوله بالسخرية والعبث ، فهو مرة صوت دجاجة يخنفها ثعلب ، ومرة صوت أحجار الرحي وهي تدور ، ومرة صوت جمع من الفئران يقرضن خبزاً يابساً .

وتناول الشعراء أصحاب العاهات بالسخرية لأن منظرهم فيه شذوذ عن ذلك الكمال والجمال الذي ينشدونه . فانحناء الأحذب ليس تشوهاً خلقياً بل هو تجمع لأعضاء الجسم خشية الصفع واللطم ، أما الصلعة فهي مرآة من الفولاذ صالحة للصفع ترن تحت الأكف حتى ترن لها الأرجاء .

وسخروا من القصير الدحداح ، ومن السمين المفرط ، فشبهوا القصير والسمين بالدب والفيل . وسخروا من القصر في الأنامل فشبهوها بالخنفساء . أما

الوجه فقد نال النصيب الأكبر من السخرية ، فوجه المجدور شبهوه قديماً بسلحة جامدة نقرتها الديكة ، وطول بعض الوجوه عند بعض الشعراء يذكر بطول وجوه الكلاب ، وكثيراً ما شبه الشعراء وجوه مهجويهم بوجه القرد أو الضفدع وضحكوا من الوجه الذي كسي بقشور الخنافس أو الذي امتلأ بالكلف فكأنه سلح فوق وجنة برصاء .

وسخروا من أصحاب الروائح الكريهة المنتنة ، فسخروا من بخر الأفواه وتنتن الأبدان ؛ لأنهم يرون أن أصحاب هذه الصفات بعيدون عن أسباب اللياقة وآداب الحضارة .

ولم تسلم اللحى - وهي شعيرة ثابتة من شعائر الدين - من السخرية والعبث فتناولها بعض السفهاء والمتماجين بالسخرية والهزء .

وهذا النوع من الهجاء لا يراه بعض النقاد هجواً ، لأنه لا يرى الهجاء إلا في سلب الفضائل النفسية ، فأما ما كان في الخلقة الجسمية من المعاييب فليس بهجاء . وهذا رأي يخالف واقع الشعر العربي ، فإننا نجد الشعراء الهجائيين قد أكثروا من تناول هذه المعاييب الجسمية بالسخر والهجاء .

كما تناول الشعراء بالسخر بعض الذين اتصفوا ببعض الصفات والعيوب الخلقية والنفسية التي لا تسير المثل العالية للمجتمع ، كالبخل والجبن والثقل والتطفل وغيرها من العيوب ، وهذا أجود الهجاء عند بعض النقاد .

ثم نتقل إلى مبحث آخر من مباحث علم البيان هو (الاستعارة الساخرة) وتأتي السخرية في الاستعارة من عدة أساليب أولها هو ما يسمى عند علماء البلاغة المتأخرين بالاستعارة (العنادية التهكمية) أما معظم الذين تعرضوا لها قبل ذلك فلا

يرون أنها استعارة . وأبرز هؤلاء الزمخشري الذي يسميها (العكس في الكلام)
ويظهر أن تسميته لهذا اللون من الكلام بالعكس أفضل ، فهو يعده لوناً أسلوبياً
يعكس فيه الكلام ويشيع عند العرب وغيرهم .

وهذا الأسلوب التهكمي الساخر شائع في شعر العرب ونثرهم ، وقد جاء
في القرآن الكريم في مواضع عدة ، يسخر القرآن من أولئك المعاندين الذين يكذبون
بآيات الله ورسله ويتشددون بالإفك ، أو يحكي سخريتهم بأنبيائهم ، فمن
سخريتهم بالأنبياء وصف بعضهم بالحلم والرشد وهم يقصدون عكس ذلك .
والقرآن الكريم يرد عليهم بنفس أسلوبهم فيصف بعض المتكبرين بأنه العزيز الكريم
مع أنه يتككب في قاع الهوان .

وتحتوي سخرية القرآن على ألفاظ حين نتأملها نجد أنها توحى بمعان
ومشاعر وأجواء فسيحة فوق دلالتها الأصلية مثل كلمة (النزول) التي استخدمت
في بعض السياقات القرآنية في عكس ما وضعت له ، فالنزل ما يعد للضيف النازل
تكريماً ، ولكنها في هذا السياق ما أعد للكافر في جهنم من هوان .

أما شيوع هذا الأسلوب في الشعر العربي فأمر ظاهر لا يخفى ، ويكفي
تناول عصر من العصور الأدبية بالدرس لنكتشف هذا الشيوع ، وقد قام بعض
الدارسين بإجراء دراسة تحليلية لهذا الأسلوب على الشعر الجاهلي ، فكان الشعراء
الجاهليون يستعيرون الكأس في شماتة وتهكم لما يلقاه عدوهم من قتل وإيلام
يذيقونه إياها ملئت مرة بالنار ومرة بالسّم الناقع ، وهم إن لم يذكروا الكأس
مستعارة ذكروا التصبيح ، فشبهوا غارة الصباح بخمر الصباح على سبيل التهكم
والسخرية ، وكثيراً ما شبهوا العدو المغير بالضيف ، وعبروا عن التنكيل به بالقرئ
تهكماً .

ومن هذا النوع الاستعارة في الأعلام ، فالعلم إذا تضمن وصفاً معيناً بأن يكون صاحبه مشتهراً بوصف متى أطلق فهم منه هذا الوصف فإنه يجوز إجراء الاستعارة فيه ، كحاتم للجود ، وسحبان للفصاحة ، فتقول : جاء حاتم ، وأنت تقصد علياً ، فتستعير هذا العلم لتدعي لعلي مشابهة تلك الصفة التي اشتهر بها هذا العلم ، ولكن الكلام قد يعكس بقصد السخرية والتهكم .

ومن أساليب الاستعارة التي تأتي منها السخرية (الاستعارة التمثيلية) والاستعارة هنا في تركيب استعمل في غير ماوضع له لعلاقة المشابهة ، ووجه الشبه يكون هيئة منتزعة من عدة أمور تشكل صورة نسميها استعارة تمثيلية واستخدم هذا النمط من الاستعارة في السخرية كثيراً ، وشاع استعارة الأمثال بقصد التعليق الساخر على حادثة أو موقف ، أو التهكم بشخص أو الهزاء به بقصد الشماتة أو غيرها .

وهناك لون آخر من ألوان الاستعارة تأتي منها السخرية تجري بين الأسماء التي تتحد أجناس مسمياتها كالشفة ، والمشفر ، والقدم ، والحافر ، والأظلاف والأظافر ، والتولب ، والولد ، والطلا وغير ذلك ، فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز به موضعه . ولا يكون هذا النقل مفيداً إلا إذا قصد به غرض بلاغي كأن يكون هذا النقل من قبيل الذم والتهكم ، وقصد السخرية والتهكم في هذا النقل واضح لا لبس فيه ، ولكن جعل ذلك من الاستعارة فيه نظر ، وقد صعب ذلك حتى على عبد القاهر الجرجاني فنراه يتردد بين أن يعده في الاستعارة أو لا .

والاستعارة الساخرة أسلوب رائق ورصين له أمثلة وشواهد في القرآن الكريم وكلام العرب وأشعارهم .

ومن الأساليب البيانية التي تأتي منها السخرية (الكناية) والكناية كما هو معلوم عدول عن لفظ إلى آخر يدل عليه ، وهو عدول لا يعني إخفاء اللفظ أو ستره كلياً ، ولا يعني أيضاً إبرازه واضحاً ، إنما يعني التحول عنه إلى غيره ، فيكون اختفاؤه بقدر يحتاج معه إلى شيء من التمعن والتدقيق .

وقد أجمع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، والهجاء والسخرية إنما تفضل وتقوى بالكناية والتعريض ، ذلك لاتساع الظن في التعريض وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً وقبلته يقيناً في أول وهلة ، فكان كل يوم في نقصان .

وقد ذكر البلاغيون أن من الأغراض التي يعدل لأجلها من التصريح إلى الكناية قصد الذم وعدّ بعضهم من فوائد الكناية القصد إلى الذم بلفظ ظاهره المدح وهذا باب عظيم من أبواب السخرية . وقد اشتهر عند العرب بعض الهجاء الذي قيل في ذم قبيلة فسارت تلك الألفاظ والأشعار الساخرة بين الناس فحفظوها ، ثم أخذوا يكتنون عنها كلما أرادوا أن يسخروا أو يلمزوا أحداً من أفراد تلك القبيلة التي قيل فيها ذلك الهجاء ، من ذلك أن قريشاً لقت (بسخينة) أما تميم فقد عيروا (بالشيء الملفف في البجاد) وشيوخ بني محارب يلقبون (بالصفادع) وهكذا سارت هذه التسمية فأصبح يكنى بها في مواقف السخر .

وقد عدّ البلاغيون من فوائد الكناية التحرز من ذكر الفواحش السخيفة بالكنايات اللطيفة . وقد استعمل الشعراء وغيرهم كثيراً من الكنايات التي حاولوا باستخدامها أن يبتعدوا عن الفحش الظاهر ، فكثروا في سخرهم وهجائهم بألفاظ اشتهرت عندهم ، من ذلك أنهم كنوا عن المرأة الفاسدة (برقة الحافر) ويقولون (فلان يستفرخ في برجه) ويكنون عن الابن غير الشرعي (بابن مطفئة السراج) .

ومن الكنايات الساخرة ماجرى مجرى الأمثال ، وهذا كثير جارٍ في كلام العرب ، وأكثر أمثالهم الفصيحة على مجاري الكنايات .

ومن الكناية أن تكني عن اسم الرجل بالأبوة ، وربما استخدمت هذه الكنية للذم والتهكم كما في (أبي لهب) ، وكما كان يفعل بعض الشعراء حيث كان يحلو له أن يكني بعض خصومه بكنى يخترعها ويؤلفها بنفسه ليسخر منهم ، من ذلك أن المتنبي كان يكني كافور (بأبي البيضاء) وكان ابن الرومي يكني ابن بلبل (بأبي الصقر) وكان بعض الشعراء يعمد إلى طريقة طريفة في السخرية بكنية مهجوه حيث يعمد إلى هذه الكنية فيشوهرها ، كما كان ابن الرومي يفعل مع أبي حفص الوراق حيث كان يكنيه (بأبي حفصل) .

نتقل بعد هذا إلى الفصل الثالث الذي يتناول السخرية في أساليب علم البديع ويشمل ثمانية مباحث ، أولها (الاستطراد الساخر) وهو فن دقيق المسلك ، يضيف على الكلام طرافة وجدة ، وينقل نظر المتلقي من معنى إلى آخر يلفته إليه التفاتاً سريعاً يحقق به غرضاً ثم يعود به إلى ما كان فيه ، ويكون الاستطراد في المدح كما يكون في الهجاء ، ولكنه في الهجاء أشهر ، وهو باب واسع من أبواب السخرية وأسلوب فذ من أساليبها ، فعنصر المفاجأة والتحول السريع الذي يميز هذا الأسلوب له دور كبير في إضفاء القوة على سخرياته ، حيث يظهر الساخر في صورة المتعالي المترفع الذي لم يقصد إلى السخرية من خصمه قصداً حثيثاً بل قعد الخصم في طريق قافيته ، ومما يزيد السخرية بهذا الأسلوب قوة التصريح باسم المهجو ، فكلما أمكن وضع هذا الاسم في القافية كان أحسن موقعا .

والمبحث الثاني من مباحث البديع الساخر (أسلوب المبالغة) وهي من الفنون التي كثر جدل النقاد والبلاغيين حولها ، فالناس فيها مختلفون . أما بالنسبة للمبالغة الساخرة فإن سبيل التهكم غالباً المبالغة في إظهار العيوب والنقائص ، وإن

مقام الهجاء والسخرية يستدعي توفير أشنع صفات الذم للمهجو حتى تكون السخرية أوجع ، وبمقياس المبالغة في ذكر صفات الذم تقاس السخرية علواً وإيجاعاً وقوة وإحكاماً . شأن السخرية مع المبالغة شأن بقية الفنون كالمديح والغزل . وغيرهما ، فكثير من المديح بعيد عن الحقيقة ، ولكنه صورة للنموذج الذي يتخيله الشاعر في ممدوحه الفاضل الكامل ، ويحاول الساخر أن يسلب كل المثل والقيم الكريمة الفاضلة في مهجوه رامياً له بعيوب الدنيا كلها إن استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ومع اختلاف النقاد في نظرتهم إلى هذا الفن ، إلا أننا نجد أن كتب الأدب والنقد مليئة بالأمثلة التي إتخذت من المبالغة سبيلاً إلى السخرية ، بل إننا نجد بعض النقاد قد أفرد للمبالغة باباً أو فصلاً في مؤلف ، وكل هذا يدل على أن هذا الأسلوب شائع مشهور واسع الاستعمال في أدب العرب .

ولابد أن نشير إلى أن من المبالغات الساخرة ماهو مقبول ، ومنها ماهو مرفوض .

وننتقل إلى المبحث الثالث من مباحث البديع الساخر ، وهو (الهجاء في معرض المدح) وهو من مستخرجات ابن أبي الإصبع والفرق بينه وبين التهكم الاصطلاحي أن قرينة السخر فيه معنويه ، أما في التهكم الاصطلاحي فالقرينة لفظية . وهذا الأسلوب باب واسع من أبواب السخرية .

ويدخل فيه ما يسمى (بتأكيد الذم بما يشبه المدح) وهو مصطلح بديعي يشتمل على ثلاثة أضرب ، أولها : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم ثابتة له ، بتقدير دخول صفة الذم في صفة المدح . والسبكي له في هذا الضرب نظر دقيق ، إذ يرى أن الاستثناء في هذا الضرب يقدر فيه الاتصال ، ولابد أن يكون

فيه مناسبة بين الخصلة المستثناة والخصال المحمودة . والتأكيد في هذا الضرب من وجهين ، وليس وجود الاستثناء شرطاً في تحقق ماهيته وإنما هو من جملة صور تحققه .

وثاني هذه الأضرب : أن يثبت للشيء صفة ذم تعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى .

وهناك ضرب ثالث ينسب لابن جابر الأعمى ، وهو أن تأتي بصفة ذم مثبتة ، ثم بصفة بعدها توهم رفع الذم ، ثم تعلق بها ما يبين أنها ذم ، فتكون ذماً بعد ذم ، ومن الشراح من يرى أنه أبلغ من الأولين .

ويتضح جلياً أن هذا الأسلوب من السخرية يعتمد على البناء اللفظي للنص الأدبي أكثر من اعتماده على أي شيء آخر ، ثم إن عنصر المفاجأة التي يحدثها ذلك الاستثناء غير المتوقع يجعل من تلك السخریات ذات وقع وأثر بعيد في النفس . ويعد التصرف والتلاعب بالألفاظ أمر رئيس في مثل هذه الأساليب البديعية التي تبعث على السخرية والهزء ، ومن العناصر الرئيسة أيضاً في هذا الأسلوب عنصر المفارقة والتناقض ، فبينما يريك الشاعر أنه يمدح إذا به يفاجئك بالهجو والسخر ، وبينما يستثني من صفة ذم أو مدح منفية صفة أخرى يظنها السامع مدحاً إذا به يأتي بدم على الذم القائم ، فالمفاجأة ، والتناقض ، والتلاعب بالألفاظ ، كلها عناصر رئيسة في تكوين هذا الأسلوب .

أما المبحث الرابع (فالإبهام الساخر) وله عدة تسميات ، ولكن تسميته بالإبهام أليق ، ومطابقة التسمية فيه لاتخفى على أهل الذوق ، والذي تخير هذه التسمية هو ابن أبي الأصبع . والأساس الذي يقوم عليه هذا الأسلوب هو الإبهام ، بحيث يكون الكلام محتملاً للضدين وهما المدح والهجاء . ولكن مع

وجود هذا الاحتمال للغرضين إلا أن المقصود هو الهجاء والسخرية . والاحتمالان في هذا الأسلوب يستويان ما لم ينظر إلى قرائن الأحوال والقائل والمقول فيه ، فإذا جرد من هذه القرائن كان احتمالهما للمعنيين على السوية . فالمدح لا يكون الكلام فيه محتملاً للضد ، إذ لا حاجة للمادح لأن يبهم كلامه ، فالإبهام فيه قبيح ، أما الذي يهجو أو يسخر فإنه يحتاج في كثير من الأحيان إلى أن يبهم كلامه .

وأمثلة هذا الفن الساخر كثيرة ، إلا أن ابن حجة الحموي قلل منها ، حيث يرى أنه لم يتفق للمتأخرين ولا للسلف من قبل في هذا الإبهام غير البيت المتعلق بالخياط زيد والبيتين المتعلقين بالحسن بن سهل . ولكن ضياء الدين بن الأثير حين تناول الإبهام أورد له أمثلة كثيرة مع أنه قرر في بداية كلامه عنه أنه قليل الوقوع جداً إلا أنه عاد فقال : وكثيراً ما كان يقصد المتنبي هذا القسم في شعره ، وأكثر ما كان يستعمله في قصائده الكافوريات . والذي يظهر أن كثيراً من مدح المتنبي لكافور كان في حقيقته هجاءً ، لذلك كان المتنبي يقول « لو قلبت مدحي فيه كان هجاءً » .

وننتقل إلى المبحث الخامس وهو السخرية في (الهزل الذي يراد به الجد) وهو أن يقصد المتكلم ذم إنسان فيخرج الكلام مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب . أما حقيقة هذا الأسلوب فليست مقصورة على ذم أو مدح أو غيرهما فأي غرض سلك به صاحبه مسلك الهزل والمجون يمكن أن يدخل في هذا الأسلوب . ومن هذه الأغراض التي يسلك بها صاحبها سبيل الهزل والمجون السخرية ، وهي غرض يناسبه الضحك والهزل والعبث ، فأبلغ الهجو ما خرج مخرج التهزل والتهافت ، وكثيراً ما يلجأ الساخر إلى إضفاء جو من الفكاهة حول سخرياته . وأمثلة هذا الفن كثيرة في الشعر العربي تناولنا كثيراً منها بالتحليل .

أما المبحث السادس فهو (التجاهل الساخر) وتجاهل العارف قد يكون لغرض المدح أو الذم أو التوبيخ أو التعجب أو التقرير . . . وحين يكون للذم

والسخرية ، يأتي قوياً حسناً ؛ لأن الكلام فيه أخرج مخرج التشكيك والتجاهل والتهافت والتهزل واعترض بين التصريح والتعريض .

وقد اختلف في تسمية التجاهل وتعريفه وحده ، وهو عند العارفين بطرائق البيان من أشد أنواع الهجاء وأمضه ، لذلك كان استعماله في الهجاء والسخرية كثيراً عند الشعراء .

وننتقل إلى المبحث السابع وهو ما يسمى (بالتهكم) والمقصود به التهكم الاصطلاحي أي الذي اصطلح علماء البلاغة على جعله أحد فنون البديع ، أما التهكم كظاهرة أسلوبية فهو موضوع بحثنا هذا ، أما في هذا المبحث البديعي فهو فن اجتمعت فيه عدة أساليب ، والتهكم عند البلاغيين الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير ، والبشارة في موضع التحذير ، والوعد في مكان الوعيد ، والعذر في موضع اللوم ، والمدح في معرض السخرية ، ونحو ذلك . ويبدو أن الأساليب الأربعة الأولى ترجع إلى أصل واحد وهو ما أسماه الزمخشري بالعكس في الكلام ، أما المدح في معرض السخرية فهو فن من فنون البديع أفرد له باب مستقل من أبواب البديع .

ويبدو أن عقد البلاغيين للتهكم باباً ضمن أبواب البديع ، جمعوا فيه بين هذه الأساليب المتفرقة ، ناتج عن الشعور بأن التهكم أسلوب شائع يمكن أن يأتي من عدة فنون بلاغية ، وهذا يعزز الفكرة التي قام عليها هذا البحث .

ويعد من أوائل من أشار إلى مصطلح التهكم جار الله الزمخشري ، وإن كان ابن أبي الإصبع يرى أنه من مخترعائه ، وربما قصد أنه أول من أفرد له باباً في البديع ، أما أن يكون أول من فطن له فلا .

وآخر مباحث البديع الساخر (الاقتباس والتضمين) وقد كان كثير من الساخرين يلجئون إلى اقتباس أو تضمين بعض النصوص في هجائهم . واختلف في

جواز تغيير المقتبس إذا كان من القرآن الكريم ، ولا يخفى أن هذا النص المقتبس لا يقصد به القرآن بل هو كلام كما يقول العلماء وجد نظمته في القرآن وأريد به غير القرآن ، فلو أخذ مراداً به القرآن الكريم كان ذلك من أقبح القبائح ومن عظام المعاصي والذنوب ، فهو ليس بقرآن حقيقة بل كلام يماثله ، بدليل جواز نقله عن معناه الأصلي ، وذلك في القرآن لا يجوز ، وقد أثر التغيير في كثير من النصوص القرآنية المقتبسة في شعر بعض الشعراء من الصحابة الأطهار وهم من هم في الورع والتقوى .

والاقتباس قسمان مقبول ومردود ، فما كان في معنى هزل أو سخرية أو مجون أو نحو ذلك فإنه مردود ، وما كان غير ذلك مما لا يتنافى مع جلال القرآن الكريم والسنة المطهرة وقدسيتهما فهو مقبول .

وقد شاع في بعض العصور المتأخرة استخدام المصطلحات العلمية واقتباسها في الشعر والكتابة شيوعاً قوياً ، ولابن سنان الخفاجي في تضمين هذه المصطلحات رأي وجيه غاب عن بعض الدارسين ، فابن سنان لم يرفض تضمين المصطلحات العلمية رفضاً مطلقاً ، بل عاب وضع هذه المصطلحات في غير موضعها ، والتكلف والإفراط في استعمالها ، ولكنه استحسّن ما كان من هذا التضمين خارجاً مخرج الهزل والسخرية والمجون ، فهذا النوع إذا استعمل على الوجه المرضي كان حسناً ، وإذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحاً .

والتضمين فن بديع وأسلوب جميل من الأساليب التي تأتي منها السخرية حيث يوظف الساخر الموهوب تلك النصوص المضمنة في السخرية بخصومه فيستعين بما لها من شهرة وأثر في النفوس حتى تكون سخريته قوية ومؤثرة .

وبنهاية هذا المبحث ينتهي الفصل الثالث من هذا البحث وينتهي الحديث عن أساليب السخرية في البلاغة العربية ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

المصادر والمراجع

(أ)

- ابن الرومي حياته من شعره ، عباس محمود العقاد . بيروت : المكتبة
العصرية ، ١٤٠٢ هـ .
- ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ، إيليا حاوي . بيروت : دار الكتاب
اللبناني ، ١٩٨٠ م .
- أبو الشمقمق شاعر الفقر والسخرية ، د . محمد سعد الشويرع (ط ٢) دار
العلوم ، ١٤٠٣ هـ .
- الاتجاه الساخر في أدب الشدياق ، د . شوقي محمد المعاملي . القاهرة :
مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٧ م .
- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، قحطان رشيد التميمي . بيروت :
دار المسيرة .
- الإتيقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، تقديم وتعليق
د . مصطفى ديب البغا (ط ١) . دمشق : دار ابن كثير ،
١٤٠٧ هـ .
- أخبار أبي تمام ، أبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، حققه وعلق عليه خليل
محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي ، قدم
له د . أحمد أمين . بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر
والتوزيع .
- أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق ، لأبي بكر محمد بن يحيى بن عبدالله
الصولي ، عني بجمعه ج . هيوارث دن .

- أدبنا الضاحك ، عبدالغني العطري ، ط ٢ ، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٤١٢ هـ .
- الإشارات والتهيئات في علوم البلاغة ، محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق د. عبدالقادر حسين . القاهرة : دار نهضة مصر .
- أساس البلاغة ، جارالله محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق عبدالرحيم محمود . بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٢ هـ .
- أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي ، د. حسني عبدالجليل يوسف . القاهرة : دار الثقافة .
- أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ، عبدالعليم السيد فودة . القاهرة : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .
- الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية ، د. عبدالعزيز أبوسريع ياسين (ط ١) . القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٤١٠ هـ .
- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ، د. صباح عبيد دراز ، (ط ١) . مصر : مطبعة الأمانة ، ١٤٠٦ هـ .
- أساليب النفي في القرآن الكريم ، د. أحمد ماهر البقري (ط ٢) ، دار المعارف ، ١٩٨٤ م .
- أسرار البلاغة ، الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق هـ . ريتز (ط ٢) . القاهرة : مكتبة المتنبى ، ١٣٩٩ هـ .

- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر (ط ١) ، دار المدني ، ١٤١٢ هـ .
- أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، د. عبد الحليم حفني . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م .
- الأسلوب الكنائي نشأته تطوره بلاغته ، د. محمود السيد شيخون (ط ١) القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٨ هـ .
- الإصا به في تمييز الصحابة ، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، (ط ١) . مصر : مطبعة السعادة ، ١٣٢٨ هـ .
- الأعلام ، خير الدين الزركلي (ط ٤) . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ م .
- الأغاني ، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، خرج بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم . بيروت : مؤسسة جمال للطباعة والنشر .
- أمالي المرتضى (المسمى درر الفوائد وغرر القلائد) للشريف المرتضى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣ هـ .
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، مطبوع ضمن تفسير الكشاف ، للإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري المالكي .

- أنوار الريح في أنواع البديع ، السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني ،
حققه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر (ط ١) . كربلاء :
مكتبة العرفان .
- الإيضاح (ضمن شروح التلخيص) للإمام الخطيب القزويني .

(ب)

- البديع ، عبدالله بن المعتز ، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس إغناطيوس
كراتشكوفسكي ، (ط ٣) . بيروت : دار المسيرة ، ١٤٠٢ هـ .
- البديع في البديع في نقد الشعر ، أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ ، حققه
وقدم له عبد آ . علي مضا ، ط ١ . بيروت : دار الكتب
العلمية ، ١٤٠٧ هـ .
- البديع من المعاني والألفاظ ، د . عبدالعظيم المطعني (ط ٣) . مكة المكرمة :
المكتبة الفيصلية ، ١٤١٠ هـ .
- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي ، تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم . بيروت : دار المعرفة .
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، كمال الدين عبدالواحد الزملكاني ،
تحقيق د . خديجة الحديثي ، ود . أحمد مطلوب ، (ط ١) .
بغداد : مطبعة العاني ، ١٣٩٤ هـ .

- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبدالمتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب .

- البلاغة الاصطلاحية ، د. عبده عبدالعزيز قلقيلة ، القاهرة : دار الفكر ، ١٤٠٦ هـ .

- بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ، السيد عبدالرحيم عطية . القاهرة : السلام العالمية للطباعة والنشر .

- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، د. محمد محمد أبو موسى ، (ط ٢) . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤٠٨ هـ .

- بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) أبو سليمان حمد ابن محمد بن إبراهيم الخطابي ، تعليق محمد خلف الله ، د. محمد زغلول سلام (ط ٤) . القاهرة : دار المعارف .

- البيان والبيان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، (ط ٥) . القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤٠٥ هـ .

(ت)

- تأويل مشكل القرآن ، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، شرحه ونشره السيد أحمد صقر (ط ٢) القاهرة : دار التراث ، ١٣٩٣ هـ .

- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، أحمد مصطفى المراغي (ط ١) .
القاهرة : مطبعة البابي الحلبي ، ١٣٦٩ هـ .
- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ابن أبي الإصبع
المصري . تقديم وتحقيق د . حفني محمد شرف ، الجمهورية
المتحدة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء
التراث الإسلامي .
- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان ، د . محمد أبو موسى ، (ط ٢) .
القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤٠٠ هـ .
- التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية ، د . شفيق السيد ، (ط ٣) . القاهرة : دار
الفكر العربي ، ١٤٠٩ هـ .
- التعريفات ، الشريف علي بن محمد الجرجاني ، (ط ١) . بيروت : دار
الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ .
- تفسير أبي السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ،
أبوالسعود محمد بن محمد العمادي . بيروت : دار إحياء
التراث العربي .
- تفسير البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ،
(ط ٢) . بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٣٩٨ هـ .
- تفسير التحرير والتوير ، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور . تونس : الدار
التونسية للنشر ، ١٩٨٤ م .

- تفسير القرآن العظيم ، للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي . طبع بدار إحياء الكتب العربية .
- التفسير الكبير ، محمد بن عمر الفخر الرازي (ط ٣) . بيروت : دار إحياء التراث العربي .
- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل ، جار الله محمود بن عمر الزمخشري . بيروت : دار المعرفة .
- تفسير النهر الماد من البحر ، ضمن البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ، (ط ٢) . بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٣٩٨ هـ .
- التكرير بين المثير والتأثير ، د. عز الدين علي السيد ، (ط ١) . القاهرة : دار الطباعة المحمدية .
- تهذيب التهذيب ، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، (ط ١) . دار الفكر ، ١٤٠٤ هـ .

(ج)

- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع ، أحمد الهاشمي ، (ط ١٢) . بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٦ هـ .

- جوهر الكنز « تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة » ، نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالاسكندرية .

(ح)

- حاشية الدسوقي على مختصر السعد على تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص) محمد بن عرفه الدسوقي . بيروت : دار الكتب العلمية .

- حاشية السيد علي المطول ، السيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني . دار السعادة ، ١٣١٠ هـ .

- حاشية الشهاب على تفسير اليعاقبة المسماة عناية القاضي ونهاية الرازي . بيروت : دار صادر .

- حسن التوسل إلى صناعة التوسل ، شهاب الدين محمود الحلبي ، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف . بغداد : دار الحرية للطباعة ، ١٤٠٠ هـ .

- حصاد الهشيم ، إبراهيم عبدالقادر المازني . القاهرة : مطابع دار الشعب .

- الحماسة ، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، تحقيق د. عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان . الرياض : أشرف على طبعه ونشره إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠١ هـ .

- الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون .
بيروت : دار إحياء التراث العربي .

(خ)

- خزانة الأدب وغاية الأرب ، تقي الدين أبوبكر علي المعروف بابن حجة الحموي ، شرح عصام شعيتو ، (ط ١) . بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ١٩٨٧ م .
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبدالقادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون . القاهرة : مكتبة الخانجي .
- خصائص التراكيب ، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، د. محمد أبو موسى ، (ط ٢) . القاهرة : مكتبة التضامن ، ١٤٠٠ هـ .
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، د. عبدالعظيم إبراهيم محمد المطعني ، (ط ١) . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤١٣ هـ .

(د)

- دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت ، دراسة تحليلية لحياته وشعره ،
د. عبدالكريم الأشتر . دمشق : دار الفكر ، ١٩٦٤ م .

- دلائل الإعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، (ط ٢) . القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤١٠ هـ .
- دلائل التراكيب دراسة بلاغية ، د. محمد محمد أبو موسى ، (ط ٢) . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤٠٨ هـ .
- ديوان ابن الرومي ، شرح وتعليق عبدالأمير على مهنا ، (ط ١) . بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ١٤١١ هـ .
- ديوان ابن الرومي ، اختيار وتصنيف كامل كيلاني . مصر : المكتبة التجارية الكبرى .
- ديوان ابن شهيد الأندلسي ، جمعه وحققه يعقوب زكي ، وراجعته د. محمد على مكي . القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .
- ديوان أبي تمام ، شرح الإمام أبوزكريا يحيى بن على الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، (ط ٥) . القاهرة : دار المعارف .
- ديوان أبي الطيب المتبي ، بشرح أبي البقاء العكبري المسمى (التبيان في شرح الديوان) ، ضبطه وصححه ووضع فهرسه مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبدالحفيظ شلبي ، (ط الأخيرة) ، دار الفكر .
- ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ ، حققه وضبطه وشرحه أحمد عبدالمجيد الغزالي . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٢ هـ .

- ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (ط ٤) . القاهرة : دار المعارف .

- ديوان البحري ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي ، (ط ٣) . القاهرة : دار المعارف .

- ديوان البهاء زهير ، شرح وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ومحمد طاهر الجبلاوي ، (ط ٢) . القاهرة : دار المعارف .

- ديوان جرير ، بشرح محمد بن حبيب ، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ، (ط ٣) . القاهرة : دار المعارف .

- ديوان الخطيئة ، برواية وشرح ابن السكيت ، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ، (ط ١) . القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤٠٧ هـ .

- ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي ، بشرح أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي الأصمعي ، ورواية أبي العباس بن ثعلب ، حققه وقدم له وعلق عليه د. عبد القدوس أبو صالح . بيروت : مؤسسة الإيمان ، ١٤٠٢ هـ .

- ديوان عبيد ابن الأبرص ، تحقيق وشرح حسين نصار . القاهرة : الحلبي ، ١٣٧٧ هـ .

- ديوان الفرزدق ، قدم له كرم البستاني . بيروت : دار صادر .

- ديوان القطامي ، بتحقيق د. إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب . بيروت : دار الثقافة ، (ط ١) ، ١٩٦٠ م .

- ديوان كعب بن زهير ، صنعه الإمام أبي سعيد السكري ، شرح ودراسة د. مفيد قميحة ، (ط ١) . الرياض : دار الشواف ، ١٤١٠ هـ .
- ديوان المعاني ، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ، عن نسخة الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي . عالم الكتب .

(ر)

- الرسوم الساخرة في الصحافة (الكاريكاتور) دراسة تحليلية ، سليمان بن محمد الشبابة . الرياض : شركة العبيكان للطباعة والنشر .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، السيد محمود شكري الألوسي البغدادي (ط ٤) . بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٥ هـ .
- روضة الفصاحة ، زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي ، دراسة وتحقيق د. أحمد النادي شعلة (ط ١) ، دار الطباعة المحمدية ، ١٤٠٢ هـ .

(ز)

- زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع ، الشيخ أحمد الحملوي (ط ٧) . مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٩١ هـ .

(س)

- السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، د. نعمان محمد أمين طه ، (ط ١) . القاهرة : دار التوفيقية ، ١٣٩٨ هـ .

- السخرية في أدب المازني ، د. حامد عبده الهوال . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ م .

- سر الفصاحة ، أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢ هـ .

(ش)

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، أبو الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلي . بيروت : منشورات دار الإقامة الجديدة .

- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، بهاء الدين على بن عقيل العقيلي المصري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (ط ٢٠) . القاهرة : دار التراث ، رمضان ١٤٠٠ هـ .

- شرح ديوان جميل بثينة ، قدم له الأستاذ إبراهيم جزيني . بيروت : المؤسسة العربية للطباعة والنشر .

- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، ضبط الديوان وصححه عبدالرحمن البرقوقي . بيروت : دار الأندلس .
- شرح عقود الجمان ، عبدالرحمن بن عيسى بن مرشد العمري المعروف بالمرشدي (ط ٢) . مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٧٤ هـ .
- شروح التلخيص . بيروت : دار الكتب العلمية .
- شعر دعل بن علي الخزاعي ، صنعه د . عبدالكريم الأشتر . دمشق : المجمع العلمي العربي .
- شرح المطول ، للملا عبدالحكيم بن شمس الدين الهندي السيكالكوني (ط قديمة) بتصحيح الحاج محمد الطرنوي المشتهر بقرازادة . اسطنبول : مطبعة الحاج محرم أفندي ، ١٣٠١ هـ .
- شرح المعلقات السبع ، أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني . بيروت : مكتبة المعارف ، ١٤٠٨ هـ .
- شعر النابغة الجعدي ، جمعه عبدالعزيز رباح . دمشق : منشورات المكتب الاسلامي (ط ١) ، ١٣٨٤ هـ .

(ص)

- الصاحبي ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، بتحقيق السيد أحمد صقر . القاهرة : طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- الصبغ البديعي في اللغة العربية ، د. أحمد إبراهيم موسى . القاهرة : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٨ هـ .
- الصناعتين الكتابة والشعر : أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري ، حققه وضبط نصه د. مفيد قميحة (ط ٢) . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٤ هـ .
- الصورة بين البلاغة والنقد ، أحمد بسام ساعي . بيروت : دار المنارة ، ١٤٠٤ هـ .

(ض)

- الضحك ، بحث في دلالة الضحك ، هنري برجسون ، ترجمة د. سامي الدروبي ، ود. عبدالله عبدالدائم (ط ٢) . دمشق : دار اليقظة العربية ، ١٩٦٤ م .

(ط)

- طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ، محمود الطناحي (ط ١) . الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- طبقات الشعراء ، عبدالله بن المعتز ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (ط ٤) .
القاهرة : دار المعارف .

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة
العلوي اليمني . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢ هـ .

(ع)

- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص) ، لبهاء
الدين السبكي .

- عقود الجمان في المعاني والبيان ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر
السيوطي (ط ٢) . مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي
وأولاده ، ١٣٧٤ هـ .

- علم البيان « دراسة تاريخية في أصول البلاغة العربية » ، د. بدوي
طبانة . بيروت : دار الثقافة ، ١٤٠١ هـ .

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ،
تحقيق د. محمد قرقزان (ط ١) . بيروت : دار المعرفة ،
١٤٠٨ هـ .

- علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع) ، أحمد مصطفى المراغي (ط ٢) .
بيروت : دار القلم ، ١٩٨٤ م .

- عيون الأخبار ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . نسخة
مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ،
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

(ف)

- الفرج بعد الشدة ، القاضي أبو علي المحسن علي التنوخي ، انتقاء وترتيب
ودراسة د. محمد حسن عبدالله (ط ١) . القاهرة : مكتبة
وهبة ، ١٤١٣ هـ .
- فقه اللغة ، لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي ، حققه ورتبه ووضع
فهارسه مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبدالحفيظ
شليبي ، (ط الأخيرة) . القاهرة : مطبعة مصطفى البابي
الحلبي ، ١٣٩٢ هـ .
- الفكاكة عند العرب ، د. أنيس فريحة (ط ١) . بيروت : مكتبة رأس ،
١٩٦٢ م .
- فن الاستعارة « دراسة تحليلية في البلاغة العربية مع التطبيق على الأدب
الجاهلي » ، د. أحمد بن عبدالسيد الصاوي ، الاسكندرية :
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ م .
- فن التشبيه ، علي الجندي (ط ٢) . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ،
١٣٨٦ هـ .

- فن الهجاء وتطوره عند العرب ، إيلياحاوي . بيروت : دار الثقافة .
- فنون التصوير البياني في البلاغة العربية ، د. توفيق الفيل ، (ط ٢) .
القاهرة : مكتبة الآداب ، ١٤١٢ هـ .
- فوات الوفيات ، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ذيل على وفيات الأعيان)
حققه محمد محي الدين عبد الحميد . ملتزم الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ م .
- في ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب (ط ١٢) ، دار الشروق ، ١٤٠٦ هـ .

(ق)

- القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق مكتب
التراث في مؤسسة الرسالة (ط ٢) . بيروت : دار الرسالة ،
١٤٠٧ هـ .
- قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، (ط ٧) . بيروت : دار العلم
للملايين ، ١٩٨٣ م .

(ك)

- الكامل ، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد
أبو الفضل إبراهيم . القاهرة : دار الفكر العربي .

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ،
للمحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ،
أشرف على طبعه والتعليق عليه أحمد القلاش (ط ٤) .
بيروت : مؤسسة الرسالة .

- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله
ابن محمد ابن الأثير ، تحقيق نوري حموي القيسي وحاتم
صالح الضامن وهلال ناجي . الموصل : جامعة الموصل .

(ل)

- لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور . دار
الفكر .

(م)

- المبالغة في البلاغة العربية تاريخها وصورها ، عالي سرحان القرشي (ط ١) .
الطائف : النادي الأدبي ، ١٤٠٦ هـ .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، قدمه وعلق
عليه د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة (ط ٢) . القاهرة :
دار نهضة مصر .

- مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- مختصر السعد على تلخيص المفتاح ، (ضمن شروح التلخيص) ، سعد الدين التفتازاني . بيروت : دار الكتب العلمية .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تصنيف أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، وتحقيق وتعليق قاسم الشماعي (ط ١) . بيروت : دار القلم ، ١٤٠٨ هـ .
- مستبعات التراكيب بين البلاغة القديمة والنقد الحديث ، د . عبدالغني محمد بركة (ط ١) . القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، ١٤٠٩ هـ .
- المستطرف في كل فن مستظرف ، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي ، دار الفكر .
- مسند الإمام أحمد ، فهرست محمد ناصر الدين الألباني (ط ٥) بيروت ، دمشق : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥ هـ .
- المصباح في المعاني والبيان والبديع ، بدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم ، حققه وشرحه ووضع فهرسه د . حسني عبدالجليل يوسف . ملتزم الطبع والنشر مكتبة الآداب ومطبعاتها بالجماميز .
- المطول على تلخيص المفتاح ، لمسعود بن عمر بن عبدالله مسعود ، الشهير بسعد الدين التفتازاني (ط أحمد كامل) ، ١٣٣٠ هـ .

- المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، د. فتحي أحمد عامر . الإسكندرية : منشأة المعارف .
- معاني القرآن ، أبوزكريا يحيى بن زياد الفراء ، تحقيق أحمد نجاتي ومحمد علي النجار ، (ط ١) ، القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٧٤ هـ .
- معاهد التصييص على شواهد التلخيص ، الشيخ عبدالرحيم بن أحمد العباسي ، حققه وعلق حواشيه وصنع فهرسه محمد محي الدين عبدالحميد . بيروت : عالم الكتب ، ١٣٦٧ هـ .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب . مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٣ هـ .
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة ، وكامل المهندس (ط ٢) . لبنان : مكتبة لبنان ، ١٩٨٤ هـ .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضعه محمد فؤاد عبدالباقي (ط ١) . القاهرة : دار الحديث ، ١٤٠٧ هـ .
- معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون . قم : دار الكتب العلمية .
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة : لطاش كبري زادة . القاهرة : دار الكتب الحديثة .

- مفتاح العلوم ، أبويعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ .
- المفردات في غريب القرآن ، أبوالقاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني . بيروت : دار المعرفة .
- المفضليات ، الفضل بن محمد بن يعلى الضبي ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، (ط ٦) ، بيروت .
- مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ، ضمن كتاب السخرية في الأدب العربي ، جمع د . نعمان محمد أمين طه .
- من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي . القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر .
- من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، د . عبدالعزيز عبدالمعطي عرفه ، (ط ٢) . بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٥ هـ .
- المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء ، أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني ، (ط ١) ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٦ هـ .
- من سمات التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم البيان ، د . عبد الستار حسن زموط (ط ١) . القاهرة : مطبعة الحسين الإسلامية ، ١٤١٣ هـ .

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، أبو الحسن حازم القرطاجني ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، (ط ٣) ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٦ م .

- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص) ، ابن يعقوب المغربي .

- الموشح « مأخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر » ، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تحقيق على محمد البجاوي . القاهرة : ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي .

(ن)

- نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى (ط ٣) . القاهرة : مكتبة الخانجي .

- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، دراسة وتحقيق د. أحمد حجازي السقا (ط ١) ، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع ، ١٩٨٩ م .

- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي ، بيروت : المكتبة العلمية .

(هـ)

- الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية ، د. عباس بيومي عجلان . الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٥ م .

- الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، د. محمد محمد حسين (ط ٣) . بيروت :
دار النهضة العربية ، ١٣٨٩ هـ .

- الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ، د. محمد محمد حسين (ط ٢) .
بيروت : دار النهضة العربية ، ١٣٨٩ هـ .

(و)

- الوساطة بين المتبني وخصومه ، للقاضي على بن عبدالعزيز الجرجاني ، تحقيق
وشرح محمد أبو الفضل وعلى محمد البجاوي . طبع بمطبعة
عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(ي)

- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن
إسماعيل الثعالبي ، بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،
دار الفكر .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
أ	المقدمة .
ي	شكر وتقدير .
	التمهيد
٢	السخرية بين المدلول اللغوي والاستعمال الفني
٢١	المصطلح والظاهرة في التراث البلاغي
	الفصل الأول
	السخرية في أساليب علم المعاني
٣٧	المبحث الأول : السخرية باستعمال الكلمات غير الفصيحة .
٥٠	المبحث الثاني : التعريف الساخر .
٦٥	المبحث الثالث : السخرية في وضع المظهر موضع المضمهر .
٧٠	المبحث الرابع : الاستفهام الساخر
١٠٣	المبحث الخامس : الأمر الساخر .
١٢٢	المبحث السادس : النهي الساخر .
١٢٧	المبحث السابع : النداء الساخر .
١٣٨	المبحث الثامن : التكرار الساخر .
	الفصل الثاني
	السخرية في أساليب علم البيان
١٥٢	المبحث الأول : التشبيه الساخر .
٢٠٧	المبحث الثاني : الاستعارة الساخرة .
٢٣٠	المبحث الثالث : الكناية الساخرة .

الفصل الثالث

السخرية في أساليب علم البديع

٢٤١	المبحث الأول : الاستطراد الساخر .
٢٤٩	المبحث الثاني : المبالغة الساخرة .
٢٦١	المبحث الثالث : السخرية والهجاء في معرض المدح
٢٧٩	المبحث الرابع : الإيهام الساخر .
٢٨٨	المبحث الخامس : السخرية في الهزل الذي يراد به الجد .
٢٩٨	المبحث السادس : التجاهل الساخر .
٣٠٤	المبحث السابع : التهكم .
٣١١	المبحث الثامن : الاقتباس والتضمين الساخر .
٣٢٦	ملخص البحث وأهم نتائجه .
٣٥٢	المصادر والمراجع .